حكاياتى مع العبقرى

نجيب محفوظ

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٥٢٩٦

بطاقة فهرسة

الكفراوي ، محمد عبد الحميد

حكاياتي مع العبقري نجيب محفوظ/ محمد عبد الحميد الكفراوي، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٣٠٤ صفحات؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٦-٢٠٦-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- الحوار في الأدب العربي

٢-الأدباء العرب

٣- محفوظ، نجيب محفوظ عبدالعزيز إبراهيم، ١٩١١-٢٠٠٦

أ - العنوان

٨١٠,٨٠٢٦

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

رائد مجدي

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

حكاياتي مع العبقري
نجيب محفوظ

ما تبقى في الذاكرة من ندوات قصر النيل
وهيلتون رمسيس وسوفوتيل المعادي وشبرد

مهندس
محمد الكفراوي

الفهرست:

الصفحة	الموضوع	
٧	مقدمة	١-
١١	النهاية	٢-
١٣	الإنسان	٣-
١٥	مطبات فى طريق الصداقة	٤-
٣١	شخصيات حوله	٥-
٩٧	لمحات من شخصيته وآرائه	٦-
١٧١	حوارات معه حول مؤلفاته وغيرها	٧-
٢٧٣	هجوم مضاد للدفاع عن أولاد حارتنا	٨-
٢٨٨	المقال الذي أغضب العبقري	٩-
٢٩١	صور متنوعة للندوات فى مراحلها الزمنية المتعاقبة	١٠-

مقدمة

كتب الأستاذ إبراهيم عبد العزيز مدير التحرير السابق لمجلة الإذاعة والتلفزيون مقدمة لكتابه الممتع "ليالي نجيب محفوظ في شبرد" الذي صدر عن دار بتانة عام ٢٠١٧، والذي سرد فيه مجمل الحوارات التي دارت في ندوة الأستاذ نجيب محفوظ بشبرد، إبتداء من يناير ٢٠٠٣ وحتى يوليو ٢٠٠٦. وهي الفترة التي حضرها الأستاذ إبراهيم بنفسه. كتب إبراهيم في نهاية المقدمة يقول: "ولنترك الصالون (الندوة) يتحدث بنفسه عن نفسه، وإن كان من المهم التنويه أن بطليه هما المهندس "محمد الكفراوي" و"د. محمود الشناوي ". أما الأول فهو عضو اللجنة العليا بحزب الوفد، (يقصد عضو بالهيئة الوفدية)، واهتماماته سياسية في المقام الأول، وهو من النوع الذي يعتز بآرائه إلى درجة الحدة أحيانًا إن خالفه أحد رأيه، متهمًّا إياه بأنه لا يفهم في السياسة، مع أنه يعتبر نفسه ليبراليًّا وصاحب أفكار ليبرالية، وهو إذا حضر

فله ناصية الكلام، وإذا سأل سائل فهو الذي يصل بالسؤال إلى أذن الأستاذ، فهو يأتي في السابعة والنصف، ويعتبر أنه ترك لك ساعة كاملة لتتحدث إلى الأستاذ كما تريد، فقد كان الصالون يبدأ في السادسة والنصف- فليس لك عذر لكي تجور على وقته، ومحفوظ يستمع إليه مهما تكن أسئلته لا ترضيه، فهو وحده القادر على أن يسأله بما لا يستطيع أحد أن يسأله عنه، ويُلح في السؤال حتى ينتزع منه الإجابة، ويتهمنا بأننا لا نهتم إلا بما يرضي الأستاذ، أما هو فمصدر الحقيقة مهما تكن صادمة، سواء أعجبت الأستاذ أم لم تعجبه سواء فيما يتعلق بالحاضر أو بالتاريخ، وسعد زغلول يعشقه الأستاذ، ولا يقبل فيه طعنًا؛ لأنه رمز جيلهم الذي لا يمس، ولا يغيب الكفراوي عن الأستاذ إلا نادرًا لظروف قهرية، وإذا تأخر لسبب من الأسباب سأل عنه الأستاذ: أين الكفراوي؟ فهو محور الصالون في فندق شبرد".

والحقيقة أن مقدمة الأستاذ إبراهيم عبد العزيز صادقة في توضيح العلاقة القوية بيني وبين العبقري نجيب محفوظ، كما أن كتابه الممتع بجزئيه يؤكِّد هذه الحقيقة، ولكن، ربما لأن الأستاذ إبراهيم قد حضر الندوة في سنواتها الأخيرة، لم يدرك سر هذه العلاقة القوية بيني وبين الأستاذ، ومن ثم لم يوضح للقارئ لماذا شرفني واختصني الأستاذ نجيب بهذه المشاعر؟ لماذا كان يتحمل مني أسئلة وحوارات لم يكن يجرؤ أحد على أن يطرحها عليه أو يناقشها معه؟ ولو أنه أحيانًا -كما سيتضح للقارئ- كان يعاقبني عليها بشدة! فكانت فكرة هذا الكتاب الذي أوضِّح فيه كيف بدأت معرفتي

بنجيب محفوظ، وكيف تطورت هذه الصداقة، ولماذا صمدت نحو خمسة وعشرين عامًا حتى رحيله عن دنيانا. ومن خلال هذا التوضيح سوف تظهر شخصية نجيب محفوظ للقارئ كما لم تظهر من قبل، وسوف يتعرف على مشاعره الحقيقية تجاه الأحداث والشخصيات والمواقف التي قابَلها وعاشها. وهو في الوقت ذاته كتاب يعطي القارئ صورة عامة موجزة عن ندوات محفوظ في كازينو قصر النيل، وسوفتيل المعادي، وشبرد، وأيضًا عن جلستنا الخاصة التي شرفني بها في هليتون رمسيس. ويشمل الكتاب أيضًا في جزء لا بأس به الحوارات والتحليلات التي أجريتُها مع محفوظ، الخاصة بكتبه ورواياته وقصصه القصيرة، والتي أجزم، بكل تواضع أن القارئ عمومًا، والقارئ الشاب خصوصًا سوف يستفيد منها في كيفية قراءة فن هذا المصري العبقري الذي قلما يجود الزمان بمثله.

مهندس / محمد الكفراوي

النهايــة

في يوم كالح من أيام عام ٢٠٠٦، سقط نجيب محفوظ من فوق سريره بمنزله، هكذا قيل لي، ذهبتُ لأراه في غرفته بالمستشفى. كان في حالةٍ جيدة جدًّا، وكانت روحه المعنوية عالية، وضحكته تضيء وجهه كالمعتاد وهو يقول لي: إزيك يا كفراوي؟ وخرجت من غرفته وأنا متفائل، ولكن بعدها بأيام وفي الزيارة الثانية، دخلتُ غرفته وإذا بالمكشوف من جسده ممتلئ ببقع دكناء، وقيل لي إنه قد سقط في الليلة السابقة من سريره العالي في المستشفى، حيث نسي المسؤولون رفع المساند المتدلية على جانبي السرير! وجدته يترنَّح يمينًا ويسارًا، فقد نزع عنه الأطباء نظارته، ونزعوا عنه ساعته، بدعوى أنهم يحمونه من إيذاء نفسه لو سقط مرة أخرى! كان رأسه وجذعه يترنحان يمينًا وبسارًا بلا توقف، وكأنه في حفلة زار، ذاهلًا عما حوله، وعندما قال له أحد

الموجودين: إن الكفراوي بيسلم عليك، لم يُبد أيَّ إدراك، ولم ينطق بكلمة واحدة، بل استمرَّ في الاهتزاز يمينًا ويسارًا. كان هذا المنظر فوق احتمالي، فخرجت مسرعًا وأنا أدرك تمامًا أنها النهاية، وأنني لن أرى أحبَّ وأعز إنسان لدي في الحياة مرة أخرى، وقد كان.

الإنســان

كان إحساسي دائماً وأنا ذاهب لرؤية الأستاذ في ندوته، هو أجمل وأقوى إحساس شعرتُ به في حياتي وحتى اللحظة. إحساس غامر بالسعادة والحب والجمال وكل المشاعر الخيِّرة التي من الممكن أن يختبرها الإنسان. هذا الإحساس يصل إلى أقصاه عندما يقابلك بابتسامته الجميلة قائلًا: أهلا يا فلان. وأنا واثق تمام الثقة أن هذا هو شعور كل الذين كانوا يحرصون على حضور ندواته.

كان الأستاذ نجيب محفوظ رمزًا للحياة الإنسانية في أجمل أحوالها وأشرقها وأنبلها. كان الإنسان في معيته يشعر بهذا، ويتمنى لو أن الحياة تعامله مثلما يعامله نجيب محفوظ، تحترمه مثلما يحترمه نجيب محفوظ، تحنو عليه مثلما يحنو عليه نجيب محفوظ، تحاول أن تفهمه مثلما يحاول نجيب محفوظ، تستقبله وتودعه بابتسامة وضحكة مشرقة كنجيب محفوظ.

ونعرف من خبرات الحياة والتاريخ أنه لا يوجد إنسان كامل. فقد يكون الإنسان عبقريًّا في مهنته أو عمله، ولكنك قد تجده مغرورًا بنفسه وبعبقريته، أو تجده عابسًا أو كئيبًا لا يعرف المرح في حياته العملية والاجتماعية. أو قد يكون منعزلًا ضيق الصدر، أو قد تجده سليط اللسان أو في أفضل الأحوال إنسانا عاديًّا لا يثير الاهتمام. أما أن يكون الإنسان عبقريًّا في عمله كأعظم ما تكون العبقرية، ومتواضعًا في سلوكه مع الآخرين كأصدق ما يكون التواضُع، واجتماعيًّا ومرحًا و(ابن نكتة)، وإذا كان عمله يعمق في مشاعرك حب الوطن وعشق الحياة، هنا تكون قد صادفت إنسانا يمكن أن تصفه بأنه إنسان شِبه كامل! وهكذا كان نجيب محفوظ، لمن أسعده الحظ وأصبح من أصدقائه، إنسان أقرب ما يكون إلى الكمال.

مطبات في طريق الصداقة!

مفاجأة سارة

بعد عودتي من العمل في السعودية مهندسًا مدنيًّا عام ١٩٨٢ تقريبًا، كنتُ جالسًا في كازينو كليوباترا أمام النيل بحي العجوزة مع ضيف لي في أثناء فترة العصر، وفجأة شاهدتُه، الروائي العبقري نجيب محفوظ بشحمه ولحمه جالسًا على المائدة التي أمامي وحده، سارحًا ببصره إلى الأفق. كنتُ قد قرأتُ كُتبه، وبهرت بعبقريته، وعُمق رواياته، وأصبحت أمنيتي أن أعرفه عن قُرب، وأتمتع بصحبته؛ لذا وجدتها فرصة لا تُعوَّض. ناديتُ الجرسون، وأخبرته أن يذهب إلى الكاتب العبقري ليستأذنه في جلوسي معه دقائق معدودة، وعندما وافق نجيب استأذنتُ ضيفي بضع دقائق، وذهبتُ إليه، وجلستُ معه، وأخبرتُه بمدى إعجابي وتأثري بروعة رواياته، واستأذنته أن يحدد لي موعدًا أستطيع فيه أن أتمتع بصحبته بصفة دائمة، فأخبرني أنه يعقد ندوته الأسبوعية يوم الجمعة في كازينو قصر النيل، وأنه يُرحب بي في أي وقت، عُدتُ إلى ضيفي وأنا أكاد أطير من الفرحة. وبدأتْ من هنا صداقة طويلة ممتدة معه حتى وفاته، رحمه الله عام ٢٠٠٦.

نتصبب عرقًا أمام النيل!

كانت الندوة في كازينو قصر النيل تضم في المتوسط ثمانية أفرادٍ أو عشرةً، يزيدون أحيانًا وينقصون أحيانًا. أذكر منهم مصطفى أبو النصر، موظف كبير سابق في الرقابة على المصنفات الفنية، وهو مثقف وأديب، وهارفي أسعد، محامٍ ماركسي، وعلى سالم الكاتب المسرحي الشهير، وفتحي هاشم، طبيب بيطريٍّ، وسامي البحيري، مهندس مدني، ومهندس زراعي لا أتذكر اسمه الآن، ومحمد الشربيني، فنان تشكيلي، وعزيزة الياسرجي، مهندسة، ومديحة أبو زيد، صحفية في مجلة صباح الخير، وعادل عزت، محاسب وشاعر، ود. محمود الشنواني، وأحمد فهمي، ناقد سينمائي، ومحمد البدري، مهندس، وأحمد سعيد، مدرس وناقد أدبي، ثم انضم إلى الندوة نعيم صبري، مهندس وشاعر، ومعه ثُلة من أصدقائه، أبرزهم إلهامي، بولس محاسب وصاحب دار نشر، ووالده أستاذ علم النبات. وكان يأتي إلى الندوة أحيانًا

المخرج السينمائي الكبير توفيق صالح، الصديق القديم للأستاذ، وهاشم النحاس، الناقد السينمائي المعروف، وبعض شباب الصحفيين. طبعًا تغيَّر الحال تمامًا بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل، حيث توافَدت أعداد من الشخصيات الأدبية، وعدد كبير من الشباب، ليشاهدوا ويسمعوا أول أديب مصري وعربي يحصل على جائزة نوبل.

كان نجيب محفوظ يجلس في أثناء ندوته في القاعة المغطاة بكازينو قصر النيل أمام مائدة داخلية ملاصقة لجدار القاعة صيفًا وشتاء، وكنا نتصبَّب عرقًا في ذروة شهور الصيف. وقد حاولت عزيزة الياسرجى أن تقنعه بأن ينتقل إلى مائدة مجاورة لنافذة من النوافذ المطلة على النيل حتى نتخفف من الحر ونستمتع بنسمة هواء في أثناء الندوة. طاوعها الأستاذ نجيب مرة أو مرتين، ثم عاد إلى قواعده سالمًا، إلى المائدة الداخلية ملاصقًا للجدار دون أي تفسير، ولم يناقشه أحد أو يطلب منه تفسيرًا!

أما ندوة نجيب محفوظ في الإسكندرية فقد كانت تُعقد عصرًا في حديقة فندق سان إستفانو القديم، وكنتُ أحضرها كلما جئتُ إلى الإسكندرية، وهي مرات تعدُّ على أصابع اليد، وكان من أبرز رُوادها الذين أتذكرهم الشاعر نعيم تكلا، والشاعر عبد الله الوكيل، والأستاذ محمد الجمل، والكاتب يوسف عز الدين، الذي ترك القاهرة بزحامها وضوضائها، ليقيم إقامة دائمة في الإسكندرية حيث الهواء العليل، والبحر الجميل، ليكتشف

بعدها أن كل مشكلة أو مصلحة له لا يمكن حلها إلا بالذهاب إلى القاهرة! كما أسعدني الحظ بالجلوس مع نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم في بعض جلساتهما بالإسكندرية صباحًا في كازينو على الجانب المقابل للكورنيش، لا أتذكر اسمه، وكانت تضمُّ أحيانًا القطب الوفدي المعروف إبراهيم باشا فرج، والكاتب ثروت أباظة.

أما بعد حصول نجيب محفوظ على نوبل فقد توثقت علاقتي بالأستاذ إلى الدرجة التي تحدث عنها إبراهيم عبد العزيز في كتابه "ليالي نجيب محفوظ في شبرد". وسوف يدرك القارئ في أثناء تصفحه لهذا الكتاب، كيف؟ ولماذا أصبح الأستاذ نجيب يتحمل مني كلمات وتعليقات لا يجرؤ أي إنسان آخر على قولها له؟ ولو أنه كان في بعض الأحيان يلومني عليها بقسوةٍ، كما سيأتي فيما بعد.

سيب عادل في حاله

كانت بداية علاقتي بنجيب محفوظ بداية عاصفة. كانت مشاعره تجاهي على وشك أن تتحول إلى غضبٍ مكتوم، يمكن أن ينفجر أو يخرج إلى العلن إذا لم أعالج الموقف بسرعة، وقد فعلتُ وأنقذت نفسي من مصير أسود. إذ لم أكن أتخيل لحظة أن العبقري الذي تغلغلتْ رواياته إلى أعماقي، وغيَّر شخصيتي ونظرتي إلى الحياة وإلى الناس وإلى الوطن، يمكن أن يكرهني أو يبعدني عنه، إنه مصير أسود بكل تأكيد.

عندما ذهبتُ إلى ندوة الأستاذ نجيب في قصر النيل كانت الندوة تمتلئ بالناصريين والشيوعيين، فوجدتُ نفسي الليبرالي الوحيد تقريبًا في الندوة. ولك أن تتخيل أنه حتى الكاتب الساخر علي سالم، الذي أصبح في السنوات الأخيرة من عمره من أشد المؤمنين بالليبرالية، وأشد المؤمنين بالسادات، كان في بداية انضمامي إلى الندوة، من أشد الناصريين تعصبًا! كان هذا هو حال

الفنان الساخر الجميل علي سالم، فما بالك ببقية الناصريين والشيوعيين الذين كانوا يتوافدون على الندوة دون أن يتمتعوا بظُرف علي سالم وتهذيبه! لذلك كان لا بد أن أكون شديد التركيز، وشديد الاستفزاز في الدفاع عن مبادئ الليبرالية، وعن أنور السادات الذي كنتُ من أشد المؤيدين له. وبالرغم من أن الأستاذ نجيب كان شعوره محايدًا تجاه السادات، فقد كان اشتراكيًّا أصيلًا، وكان كل أصدقائه والمحيطين به عن قرب هم من الناصريين والماركسيين. وكانت شهُرته الأدبية والفنية تدين - بجانب موهبته الفذة - لهؤلاء الناصريين والماركسيين الذين ألَّفوا الكتب النقدية الرائعة عن رواياته، مثل الأستاذ محمود أمين العالم، والأستاذ غالي شكري، والأستاذ رجاء النقاش، وغيرهم من كُتاب المقالات، ومؤلفي الكُتب في الصحف والمجلات. لكل هذا أظنُّ أنه لم يرتح في البداية إلى هذا الوافد الجديد الذي يدافع عن الليبرالية والرأسمالية بأسلوب استفزازي بعيد كل البعد عن الأسلوب الهادئ لنجيب محفوظ. وزاد الطين بلة واقعة طريفة وعجيبة، لم أقلها للأستاذ نجيب حتى رحيله حرصًا على مشاعره. وقد كادت هذه الواقعة، كما ذكرتُ في البداية، تُحوِّل مشاعر الأستاذ تجاهي وتبعدني نهائيًّا عن الندوة بالرغم أنني كنت أدافع فيها عن فنِّه وعبقريته! وجاء الوقت لأحكيها، ولكن لا بد من مقدمة لها.

كانت الشخصية المصرية - وما زالت، لأسباب تاريخية مفهومة - ترهب وتحترم القوة. وكانت شخصية الأستاذ نجيب الظاهرة للناس هادئة وديعة، لذلك لم تبهر شخصيته المتواضعة الهادئة، المواطن المصري الذي يرهب

القوة الظاهرة ويحترمها، والتي لا تختفي وراء ستار. وكان الأديب الموهوب الطبيب يوسف إدريس على العكس تمامًا من نجيب محفوظ، كانت شخصية الدكتور يوسف إدريس قوية ظاهرة في مقالاته بالأهرام، وفي أحاديثه العامة والخاصة، وكان معتدًّا بنفسه وفنِّه إلى الدرجة التي جعلته يصفع الناقد فاروق عبد القادر على وجهه، عندما لم يعجبه كلامه في قهوة ريش! وهي حادثة معروفة رواها لي المرحوم مصطفى أبو النصر. لذلك وبمرور الزمن بدأت أحاديث يوسف إدريس ومقالاته تظهر وتطغى على أخبار نجيب محفوظ وروايات إلى الدرجة التي جعلت جريدة مصرية كبرى، وفي صورة كاريكاتورية تجمع أدباء مصر وكُتَّابها، تُظهِر وجه يوسف إدريس في صدر الصورة، ومعه مجموعة من الكُتاب والأدباء، وخلفهم بعدة صفوفٍ صورة نجيب محفوظ باهتة كأنه أصبح من الماضي!

ووصلت شخصية يوسف إدريس إلى القمة في نظر جموع المصريين، بمن فيهم رُواد ندوة نجيب محفوظ نفسه، عندما حصل على جائزة صدام حسين في الأدب العربي، مناصفة مع أديب أردني، على ما أتذكر. وعندما وصلتُ إلى ندوة الأستاذ نجيب في كازينو قصر النيل يوم الجمعة كالمعتاد، وجدتُ الجميع في حالةٍ من الهياج والحماسة والذهول والإعجاب. ووجدتُ الأستاذ مصطفى أبو النصر يحكي للأستاذ نجيب، مدى روعة يوسف إدريس وقوته، والذي بعث إلى صدام حسين محتجًّا ورافضًا أن يشاركه أحد في الجائزة المالية الهائلة، فكانت النتيجة أن صدام حسين أمر بأن يحصل يوسف إدريس على الجائزة كاملة.

وكانت جلستي بعيدًا عن الأستاذ وبجوار الشاعر الرقيق المهذب عادل عزت، وهو شخصية محبوبة، تدخل قلب أي إنسان يعرفه، وجدت عادل عزت في حالة انبهار بتصرف يوسف إدريس القوي. نظر عادل إلى عيني مباشرة قائلًا ما معناه: إن الأستاذ نجيب قد يكون موهوبًا، ولكن الدكتور يوسف إدريس موهبته أعلى بكثير. وكان بجانبه المهندس والشاعر نعيم صبري الذي أمَّن على كلامه، وعلى ما أذكر أنني قلتُ لهما ما معناه: إنكما لا تفقهان شيئًا، وعلى ما أذكر أن نعيم صبري ردَّ قائلًا بتهذيب: إن كلامي هذا يعدُّ ضربًا تحت الحزام، واكفهرَّ وجه عادل عزت.

وصل إلى سمع نجيب محفوظ، دون أن يعرف فحوى الموضوع، أن الكفراوي يهاجم عادل عزت، وانتهز الأستاذ فرصة اقترابي منه، ووجَّه تحذيرًا لي، وكان يحب عادل عزت إلى أقصى درجة، قائلًا: "إنت مش ناوي تسيب عادل عزت في حاله؟!". أدركتُ ساعتها أنه يجب أن أفعل شيئًا لإصلاح الموقف دون أن أحكي للأستاذ نجيب ما حدث من حوار، حتى لا أتسبب في جرح مشاعره، وحتى لا أعكر صفو مشاعره تجاه عادل عزت. فاتصلت هاتفيًّا بمنزله بعد انتهاء الندوة، واعتذرتُ له بأن الحوار (سخن) بيني وبين عادل، فرد الأستاذ قائلًا باقتضاب: المهم ألَّا يكون الحوار فيه أي تجريح، فوعدته بأن أكون أكثر تهذيبًا، وأنني أحب عادل عزت، وهو كما ذكرت شخصية جميلة فعلًا. وحتى وفاة الأستاذ لم أحكِ لنجيب محفوظ قط فحوى الحوار الذي دار بيني وبين عادل عزت. المهم أنه بعد هذه الواقعة

بشهور أو بأسابيع، نال نجيب محفوظ جائزة نوبل العالمية، وعادت سُمعته وصورته وعبقريته إلى مكانها الطبيعي داخل مصر، وفي أذهان الشعوب العربية، ووجدتُ نفسي وأنا أستقبله بالأحضان في أول ندوةٍ بعد نوبل أقول له: "خلاص يا نجيب بك، لا أحتاج الآن إلى ضرب أي إنسان تحت الحزام من أجلك"، فضحك ضحكته الكبيرة الرائعة كأنه قد فهم، وضحك نعيم صبري أيضًا.

عثمان أحمد عثمان وفرويد ومحفوظ!

بعد فوزه بجائزة نوبل مباشرة، ارتفعت معنوياتي إلى السماء، وأصبح واضحًا لنجيب محفوظ مدى سعادتي وحبي واقتناعي العقلي والقلبي بعبقريته وفنِّه، فقد انطلقتُ بإخلاص وحماسةٍ أتكلم عن مَواطِن القوة والجمال في فنِّه، وأُعقِّب على كل موقف في الحياة والسياسة والتاريخ بجملٍ وعبارات وكلمات من رواياته، حتى أن الشاعر نعيم صبري اتهمني بأنني أحفظ عباراته حفظ تلميذ يذاكر، ويا لها من تهمة جميلة! ولم أنسَ قط الصورة الكاريكاتورية التعسة التي نشرتها الجريدة المصرية الكبرى، والتي وضعت فيها صورته في الصف الأخير. فقلت له: كنت تغرق وسطنا يا نجيب بك إلى أن أتت طائرة نوبل وانقضت لإنقاذك وإنقاذ المؤمنين بعبقريتك من الغرق في بحور الجهل، ورفعتْكَ ورفعتْهُم إلى عنان السماء. وزدت من توضيحي لهذه النقطة، فقلت له: إن حصولك على جائزة نوبل زاد ثقتنا بأذواقنا نحن

المؤمنين بعبقريتك، فلا شك أننا، بالرغم من ثقتنا بأنفسنا وبأذواقنا، كنا نشعر بالحيرة واهتزاز هذه الثقة، ولو قليلًا، من أن دول الحضارة الحديثة لم تكن تعترف بفنك.

بدأت اشعر بأن الأستاذ نجيب قد بدأ يرتاح إلى مواقفي وآرائي، فبدأتُ على استحياء أطلب منه تليفونيًّا أن يوليني شرف الجلوس معه خلال الأسبوع بجانب ندوة الجمعة، وكانت وقتها ندوة الجمعة هي ندوته الوحيدة. كان محفوظ يرد بأن أنتظر قليلًا. وجاءت ندوة الجمعة التي تلت أنباء غضب الدكتور يوسف إدريس العنيف لأن جائزة نوبل كانت من نصيب نجيب محفوظ، بعد أن كان قد ظنَّ هو أنه سيحصل عليها! والحقيقة أن ذلك لم يكن ذنب يوسف إدريس بقدر ما هو ذنب – كما شرحت من قبل– النقاد والأدباء والصحفيين المصريين الذين صوروا له أن قوة الشخصية والنجومية التي يتمتع بها في مصر، سوف يكون لها التأثير نفسه في اللجنة المانحة للجائزة.

حضرت الندوة، وبدأ الأستاذ مصطفى أبو النصر يشرح ما علم به الجميع من غضب يوسف إدريس وثورته، وتكلم الأستاذ نجيب عاتبًا على الدكتور يوسف إدريس غضبه قائلًا بتواضع مذهل: إنه، أي نجيب، أكبر سنًّا من يوسف إدريس. يريد أن يقول إن يوسف إدريس كان يجب أن يقتنع بقرار لجنة نوبل؛ لأن نجيب أكبر سنًّا! وهنا لم أستطع الصبر على هذا التواضع الظالم لصاحبه، ووقفتُ قائلًا الآتي وبأعلى صوت وأمام العشرات

من الحضور: " أنا مش فاهم أي مبرر لغضب الدكتور يوسف إدريس". ثم وجهت كلامي إلى نجيب محفوظ قائلًا "يا نجيب بك، معنا ضيف جديد في الندوة صديق لي وهو المهندس محمود عبد السميع، وهو من أنجح المقاولين في شلة أصدقائي وفي دفعته كلها، هل ممكن يغضب لأن اتحاد المقاولين العالمي قد اختار عثمان أحمد عثمان منشئ شركة "المقاولون العرب" كأعظم مقاول في الشرق الأوسط؟! ما شأن محمود عبد السميع بعثمان أحمد عثمان؟! ده مستوى وده مستوى تاني خالص! وأردفت قائلًا: "ومعنا في الندوة طبيب مصري في زيارة لمصر اسمه سامح يعمل بنجاح كطبيب لعلم النفس في مستشفى بالولايات المتحدة الأمريكية، هو طبيب ناجح لا شك، ولكن هل ممكن يغضب لأن العالم كله بيحتفل بمرور خمسين عامًا على وفاة عبقري ورائد علم النفس سيجموند فرويد؟! أين سامح من فرويد؟! هو حاجة وفرويد حاجة تانية خالص! الدكتور يوسف إدريس لا شك أنه أستاذ القصة القصيرة في مصر، ولكن أين هو من العبقري نجيب محفوظ عملاق الرواية في العالم كله، وأحد أكبر عباقرة هذا الفن على مر العصور؟! ده مستوى والتاني مستوى تاني خالص!"

انتهى كلامي وجلست، ونظرت إلى العبقري، فوجدت عينيه تلمعان خلف نظارته السوداء، وابتسامته تتلألأ، فقد قلت كل ما منعه تواضعه أن يقوله وأمام الجميع، الذين أحبوه والذين ظلموه! وعندما انتهت الندوة

ووقف نجيب محفوظ يسلم على الجميع فردًا فردًا كعادته، وإذا به ينظر إليَّ وأنا بعيد عنه، ويسألني بصوت عالٍ ليسمعه الجميع: " كفراوي.. هو أنا سلمت عليك؟" ورددتُ على الفور: "أيوه يا نجيب بك". كان مدركًا تمامًا أنه قد سلَّم عليَّ من قبل، ولكنه أراد أن يوضح لي وللجميع امتنانه لموقفي في الدفاع عنه. والحقيقة أنني لم أقل إلا ما كنتُ أومن به تمامًا. وبعدها بأسبوع، وبطريقة في غاية الشياكة، وأعتبرها أنا طريقة محفوظية مائة في المائة، وافق الأستاذ على أن أمر عليه أمام منزله يوم الأربعاء من كل أسبوع لأقله بسيارتي لنجلس معًا في فندق هيلتون رمسيس. وكان شرفًا ما بعده شرف. والحقيقة أن نجيب محفوظ عندما يوافق أو يعترض على شيء، وعندما يجامل إنسانا أو ينتقده، لا يفعلها أبدًا بطريقة مباشرة، لكنه يفعلها بطريقته هو، وبأسلوبٍ غاية في الجمال عندما يشكر أو يجامل، وغاية في القسوة أحيانًا عندما ينقد أو يعترض أو يكره! وأنا أسميها الطريقة المحفوظية! وقد جربتُ شخصيًّا الطريقتين! فعندما وافق الأستاذ نجيب على أن أرافقه في ندوة خاصة، لم يقلها لي مباشرة، ولكن في نهاية الندوة يوم الجمعة، وقفنا جميعًا، واستأذن الطبيب سامح المهاجر والموجود في مصر حاليًّا في إجازة قصيرة، استأذن الأستاذ أن يراه مرة أخيرة وسط الأسبوع قبل أن يعود إلى الولايات المتحدة، فقال له الأستاذ وهو يشير إليَّ حيث أقف: فوت على الكفراوي يوم الأربعاء وتعالوا معًا لمقابلتي! وكانت مفاجأة رائعة لي، واستمرت بعدها جلسة يوم الأربعاء بيني وبينه فقط إلى أن تعرض لمحاولة الاغتيال الخسيسة التي أنجاه الله منها.

شخصيات حوله

نجيب محفوظ مجنونًا !

في الجلسة الصباحية بالإسكندرية، كان الأستاذ توفيق الحكيم متصدرًا الندوة بجانب الشباك المطل على الكورنيش، وكان نجيب محفوظ يجلس أمام المائدة منضبطًا كما يجلس الرجل أمام والده أو أستاذه، مما جعلني أتيقن من صِدق تعليق الأستاذ نجيب وتواضعه عندما صرَّح لجريدة مصرية بأنه لا يتخيل مدى الإحراج الذي كان سيشعره لو كان قد حصل على جائزة نوبل في حياة توفيق الحكيم!

وقد ذكرت للأستاذ توفيق الحكيم أنني وأصدقائي كنا من أشد المعجبين بابنه إسماعيل الحكيم - رحمه الله - الذي تُوفي في حياة والده، حيث كنا مبهورين بفرقته الموسيقية التي كانت تعزف أعذب الألحان وأشهرها والأغنيات الغربية في الستينيات من القرن الماضي. ظهر الأسى على وجه توفيق الحكيم. وقد أهداني في نهاية الندوة أحدثَ كُتبه وقتها وهو "الأحاديث الأربعة والقضايا الدينية التي أثارتها"، وعليها إهداؤه بخطِّ يده.

أتذكر أن الأستاذ توفيق الحكيم كان غاضبًا من هجوم الشيخ الشعراوي عليه وعلى الأهرام، وذكر، ووجهه قد احمرَّ من الغضب، أن الشيخ الشعراوي ما هو إلا مدرس لغة عربية! وبمناسبة خلاف الشيخ متولي الشعراوي مع الأستاذ توفيق الحكيم، فللأستاذ نجيب محفوظ حكاية طريفة خاصة بهذا الخلاف حكاها لنا في ندوة قصر النيل بالقاهرة. وأصل الحكاية أن الشيخ متولي الشعراوي كان قد ذكر الحديث النبوي الشريف عن الذبابة عندما تقع في طعام إنسان أو شرابه، فيجوز أن يأكله أو يشربه الإنسان بعدها؛ لأن في جناح الذبابة فوائد، فاعترض على ذلك الأستاذ توفيق الحكيم والدكتور يوسف إدريس والدكتور زكى نجيب محمود، وتطايرت الكلمات، واحتدت المناقشات، وتشعَّبت حتى شملت كل القضايا الخِلافية بين العلمانيين والتيار الديني، وإذا بالشيخ الشعراوي يستخدم السلاح النووي، فعندما سُئل عن رأيه في ردود الكتاب الكبار الثلاثة وانتقاداتهم، وجميعهم من كتاب الأهرام، رد الشيخ الشعراوي بأن جريدة الأهرام أصبحت "وكرًا للكفرة"!

أُسقط في يد مجلس إدارة الأهرام، واجتمع على الفور، فقد كان الشيخ الشعراوي في أوج تأثيره الكاسح في الملايين من أبناء الشعب المصري والعربي، بتفسيره المتفرد للقرآن الكريم والكاريزما الهائلة لشخصيته أمام الشاشة. فإذا دخل في روع هذه الملايين أن جريدة الأهرام تُروِّج للكفر، فالنتائج ستكون مُروِّعة لا شك. للجريدة طبعًا! عُرضت المشكلة، مشكلة اتهام الشيخ الشعراوي لجريدة الأهرام بالكفر، أمام أعضاء المجلس، وكان

نجيب محفوظ حاضرًا. تطوع الأستاذ نجيب ببدء الحديث، فاقترح ببساطة أن يرفع الأهرام قضية سبٍّ وقذف ضد الشيخ الشعراوي. ويحكي الأستاذ بخفة دمه المعهودة، أن جميع أعضاء مجلس الإدارة نظروا إليه، كأنه معتوه، ولم يكلفوا أنفسهم حتى بالرد على اقتراحه! ثم بدؤوا يقترحون كيف يخطبون وُدَّ الشيخ الشعراوي، وأخيرا استقروا على أن يذهب الأستاذ صلاح منتصر إلى فضيلة الشيخ ليجريَ معه حديثًا صحفيًّا، وقد كان. كان عنوان الحديث على ما أتذكر "زدني علمًا يا فضيلة الشيخ" على صفحة كاملة من صفحات الجريدة، وعلى ما أتذكر أيضًا استمرَّ عدة أيام متتالية. وهدأ الشيخ الشعراوي، وغَفَرَ لجريدة الأهرام.

محفوظ يتسبب في رفت صديقه!

كان الكرسي المقابل للأستاذ نجيب، في ندوة قصر النيل، محجوزًا للأستاذ مصطفى أبو النصر، وكان الأستاذ مصطفى في مرحلة عمرية تتوسط بين عمر الأستاذ وبين عمر أكثريتنا. كان والده ضابطًا كبيرًا في الحرس الملكي قبل ثورة يوليو، ومن ثم لم يكن ينتمي إلى الأكثرية الكاسحة من الكتاب والأدباء الذين اختلط بهم، والذين أتوا من الطبقات الكادحة، وعبدوا عبد الناصر. كان غريبًا وسطهم. أحب الأستاذ مصطفى - مثلنا جميعًا - نجيب محفوظ جدًّا، ولكنه تعرض لكارثة وظيفية بسببه! فقد كتب الأستاذ نجيب قصة أخرجها للسينما المخرج الكبير سعيد مرزوق، وعُرضت في دور العرض المصرية والعربية تحت اسم "المذنبون". وكانت قصة الفيلم تدور حول مقتل فنانةٍ مشهورة اعتادت أن تقيم سهرات ليلية في شقتها الفاخرة، يجتمع فيها رجال من مختلف المهن، تاجر وموظف كبير وناظر مدرسة وغيرهم من

أطياف المجتمع المصري، وبطبيعة الحال أصبح الكل مشتبهًا بارتكابه جريمة قتلها حتى يثبت براءته. وعندما تطلب النيابة من المترددين إلى القتيلة إثبات وجودهم في غير مكان الجريمة وتوقيتها، يتضح أن كلًّا منهم كان وقتها يمارس عملًا غير مشروع، من نصبٍ أو سرقة أو خيانة أو رشوة!

كان الفيلم مليئًا بنجوم السينما المصرية وقتها، وعلى رأسهم الممثلة سهير رمزي التي أدَّت دور الفنانة القتيلة. كان الأستاذ مصطفى أبو النصر وقتها موظفًا كبيرًا في الرقابة على المصنفات الفنية، ولسبب ما وقعت مسؤولية رقابة الفيلم عليه. تردَّد الأستاذ مصطفى في الموافقة على عرض الفيلم الجريء الذي يُظهر كل مظاهر الفساد في مصر وقتها. كان على وشك الرفض والاعتراض، وأبلغ منتجي الفيلم بذلك. فوجئ بعدها بمكالمة تليفونية مباشرة من وزير الثقافة حينذاك، يأمره بالموافقة على عرضه للجمهور! امتثل الأستاذ مصطفى للأمر، وأعطى موافقته بالعرض. وعُرض الفيلم فعلًا، وإذا بالمصريين في العراق وغيرها من الدول العربية يمطرون المسؤولين في مصر وعلى رأسهم رياسة الجمهورية ببرقيات الغضب، بدعوى أن الفيلم يسيء إليهم وسط الشعوب العربية التي يعملون بها! وتمت إحالة الأستاذ مصطفى إلى التحقيق، ثم تمت إحالته إلى المعاش! رفع الأستاذ مصطفى قضية ضد الظلم الذي تعرَّض له، ولما سأله القاضي: "لماذا وافقتَ على عرض الفيلم رغم ادعائك بأنك كنت مترددًا في الموافقة؟" رد مصطفى بأن الوزير أمره تليفونيًّا بالموافقة على العرض، وعندها سأله القاضي: "ولماذا لم تطلب من

الوزير أن يعطيك موافقة خطية؟"، رد الأستاذ مصطفى صارخًا: هل معقول يا سيادة القاضي أن أطلب من الوزير موافقة خطية، بعد أن أمرني تليفونيًّا؟! وطبعًا كان من المستحيل لموظف مصري وقتها أن يطلب من الوزير المسؤول موافقة خطية لأمر ما بعد صدوره شفويًّا، وإلا كان مصيره العقاب لا شك. ولكن القاضي لم يقتنع بدفاع الأستاذ مصطفى، بل هدده بالسجن إذا استمرَّ يصرخ في وجهه، وتم عقاب الأستاذ مصطفى وإحالته إلى المعاش! وظل الأستاذ مصطفى أبو النصر طوال حياته يشعر بالمرارة كلما تذكر ما حدث له من ظلم على يد قصة "المذنبون".

وفي حادثة ثانية، كتب الأستاذ مصطفى أبو النصر قصة قصيرة جيدة، وبعث بها إلى مجلة إبداع، وكان القائمون على إدارة المجلة من الناصريين واليساريين كالعادة، وإذا بالمجلة تنشرها تحت اسم مصطفى نصر وليس مصطفى أبو النصر! والأستاذ مصطفى نصر هو أحد الكتاب الذين ينتمون إلى المجموعة الناصرية واليسارية الكاسحة التي كانت مسيطرة على أمور النشر في مصر. وأخذ الأستاذ مصطفى أبو النصر يحكي لنا ولنجيب بك ما حدث له وهو يضرب كفًّا بكفٍّ.

وقد حدثت لي واقعة مشابهة لما حدث للأستاذ مصطفى على يد الناصريين، فقبل صدور هذا الكتاب، وقبل يوم ١١/ ١٢/ ٢٠١٩ الموافق للذكرى السنوية لميلاد نجيب محفوظ، اتصل بي هاتفيًا صحفي بجريدة الدستور

وطلب مني كلمات أوجهها لروح العبقري لكي تنشر في ذكرى ميلاده. بعثت للصحفي عن طريق "الواتس اب" صفحة من الكتاب بعنوان "الإنسان" مع تصرف بسيط لكي تخاطب العبقري مباشرة. طلب مني الصحفي صورة لي فبعثت له بثلاث صور كي تختار الجريدة منها واحدة لنشرها مع كلمتي. وإذا بالجريدة تنشر كلماتي وبجانبها صورة لزميل لهم اسمه مطابق لإسمي!!. وإذا بالصحفي يقول لي ببساطة "معلهش.. حقك عليا"!!".

وأذكر أن الأستاذ مصطفى كانت له نظرة ثاقبة في الفيلم الاستعراضي الجميل "خللي بالك من زوزو" الذي عُرض عام ١٩٧٢. فقد ذكر أن الفيلم بجانب أنه ترفيهي في المقام الأول، فإنه يُنبِّه إلى خطورة انتشار الأفكار المتطرفة في الجامعات المصرية، وأن على الأحزاب المصرية أن تحذو حذوه، وللأسف أنني ساعتها سخرت من الفكرة برمتها، وتساءلت: هل تريد من فؤاد سراج الدين (رئيس حزب الوفد وقتها) وخالد محيى الدين (رئيس حزب التجمع وقتها) أن يذهبا معًا إلى السينما ليشاهدا الفيلم؟ وضحك الجميع ومعهم محفوظ، وغضب مني ساعتها الأستاذ مصطفى. ولكن بعد أن انتشرت الأفكار المتطرفة في ربوع مصر، وليس في الجامعات فقط، أدركتُ كم كان الأستاذ مصطفى أبو النصر على حقٍّ.

مَن الأحق باللوم ؟!

كان للأستاذ مصطفى أبو النصر نظرة ثاقبة في (الشلل) الناصرية واليسارية المسيطرة على الحياة الأدبية في مصر. وكان يؤمن بأنهم يتبادلون المجاملات على حساب جودة الفن الذي يقدمونه! كان ينتقد على سبيل المثال الأستاذ الناقد فاروق عبد القادر، لأنه لا يهتم إلا بقصص الكاتبات الخليجيات. ولا ينتقده أحد في ذلك، لأنه من أعضاء (الشلة) الناصرية المهيمنة على الأقسام الأدبية في الصحف والمجلات المصرية! وكان يتعجب من اهتمام الأستاذ فاروق بالكاتب المسرحي بيتر بروك، إذ إنه في رأي الأستاذ مصطفى ليست له أهمية تذكر. وأتذكر جلسة من جلسات قهوة الحوامدية بميدان باب اللوق، والتي كان يصحبني إليها الأستاذ مصطفى أحيانًا بعد انتهاء ندوة الأستاذ نجيب بقصر النيل، وكان ممن يجتمع على قهوة الحوامدية الأستاذ فاروق عبد القادر، والناقد المسرحي الكبير فؤاد دوارة، والأديب الصحفي عبد الوهاب الأسواني، وغيرهم.، وتصادف بعد انتهاء هذه الجلسة أن سِرتُ قليلًا مع الأستاذ فاروق. وجدته ثائرًا على الشيخ

متولي الشعراوي؛ لأنه قد ذكر في حديث تلفزيوني أو إذاعي أنه قد سجد لله شكرًا على هزيمة يونيو ٦٧؛ لأنها كسرت العهد الشيوعي أو الطغيان الناصري في مصر، شيء من هذا القبيل. وأخذ الأستاذ فاروق يهاجم الشيخ الشعراوي بمرارة لشماتته هذه. فقلت للأستاذ فاروق إنه على حق في نقده للشيخ الشعراوي، ولكن، إذا كنا سنلوم من يشمت في الهزيمة، فالمنطق يحتم لومًا أشد بكثير للمتسبب أصلًا في هذه الهزيمة المخزية! ونظر إليَّ الأستاذ فاروق بإمعان من تحت نظارته، وقد بوغت بهذا الرد قائلًا: "لا". ثم تركني ومضى إلى حال سبيله. وقد حكيت هذا الحوار الذي دار بيني وبين الأستاذ فاروق لنجيب محفوظ فابتسم قائلًا: "معك حق".

لذلك كان الأستاذ نجيب محفوظ، بموضوعيته الهائلة وإنسانيته وهدوئه وأدبه الجم، هو الملاذ الأمن الذي يحتاج إليه أيُّ مظلوم مثل الأستاذ مصطفى، وأي ليبرالي مثل كاتب هذه السطور، وسط جحافل الناصريين واليساريين والشيوعيين الذين كانت تغص بهم الندوة بل مصر كلها في أثناء فترة الستينيات والسبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي. والحقيقة أنني اكتشفتُ بعد طول السنين أن الشعب المصري في أغلبيته ينقسم إلى اتجاهين لا ثالث لهما، إما ناصري أو إخواني! أما الليبراليون ودعاة الحرية وحقوق الإنسان كما تعرفها دول الحضارة الحديثة، فهم قلة قليلة لا وزن لها! وعندما تُوفي الأستاذ مصطفى ذهب نجيب محفوظ لتقديم واجب العزاء لأسرته في السرادق المقام بجامع عمر مكرم.

على سالم، مُفترٍ أم مُفترًى عليه ؟

شهدت ندوة الأستاذ بقصر النيل التحول التدريجي لعلي سالم الكاتب المسرحي الموهوب من ناصري إلى ليبرالي حقيقي، وهو ما جعله أكثر قُربًا من نجيب محفوظ، وأظنُّ أن هذا التغير البطيء والتدريجي في عقله وعاطفته كان سببًا في ألَّا تحوز مسرحياته الأخيرة النجاح نفسه الذي حققته مسرحياته الأولى، تلك التي كتبها وهو واثق بعقيدته الناصرية اليسارية! وأتذكر أن الأستاذ علي سالم كان في شدة العصبية خلال الندوة، عندما لم تلقَ مسرحيته "الكلاب وصلت المطار" النجاح الذي تحقق لمسرحياته الأولى. وعندما تعمق إيمان علي سالم بالليبرالية والرأسمالية اللتين أسهمتا في سقوط الاتحاد السوفييتي والشيوعية، بدأت مرحلة جديدة من فنه، حيث أبدع في فن كتابة المقالات التي تدعو إلى الحرية وحقوق الإنسان والقطاع الخاص. ثم فاجأنا بقرار زيارته إسرائيل. حذَّرته من تبعات هذه الزيارة، لكنه كان قد

حزم أمره. بعد عودته، قاطعه جميع الأدباء والكتاب المصريون الذين - كما نعرف - أغلبيتهم الكاسحة من الناصريين والماركسيين واليساريين. وعانى الأستاذ علي سالم الأمرين، ولكنه واجه موجة العداء والكراهية والحرب النفسية والمادية عليه برجولة منقطعة النظير، وظلَّ يدعو إلى السلام مع إسرائيل دون خوفٍ أو تراجُع مثلما تراجَع بعض الكُتاب قبله، وهو ما جعل الأحرار يتعاطفون معه، وعلى رأسهم الأستاذ نجيب، الذي كان يستقبله أحسن استقبال. والحقيقة أن علي سالم كان فنانًا بمعنى الكلمة، وكان يُضفي على الندوة من ظُرفه وخِفة دمه الكثير. وكان عندما يؤمن بشيء يندفع بشدة إلى الكلام عنه، فعشق كتاب "الأمير" لمكيافيلي، وكان يستشهد بفقرات من الكتاب في معظم مناقشاته السياسية معي ومع غيري. وكان يعشق تحليلات مؤسس علم النفس سيجموند فرويد وكتبه المتعددة مثل "قلق في الحضارة" و"مستقبل وهم" وغيرها ويستعين بها في حكمه على الشخصيات والمواقف وفي مقالاته الجميلة الساخرة. وظل علي سالم حريصًا على حضور ندوات العبقري حتى النهاية.

كذبة بيضاء

كان نجيب محفوظ يتذكر مبتسماً كيف كانت مقابلته مع الرئيس عبد الناصر، عندما دعاه الأستاذ حسنين هيكل لافتتاح مبنى الأهرام الجديد، فعندما صافَحَ الرئيس جمال الأستاذ نجيب، سأله مجاملًا عن أحدث رواياته التي سينشرها الأهرام، فتدخل هيكل مبتسماً قائلًا: إنها رواية من النوع "اللي يودي كاتبها في داهية"، فردَّ عبد الناصر، على الفور، على هيكل ضاحكًا: "يوديك إنت في داهية "، وضحك الجميع، وهو رد يلخص بذكاء كيف كان حال الكتابة في الحقبة الناصرية، فرئيس التحرير هو أول من سيُعاقب إذا كَتبَ أيُّ إنسان في الجريدة كلمات لا يرضى عنها النظام!

ويتذكر الأستاذ نجيب، ضاحكًا ضحكته الصاخبة التي تنير وجهه، تعليق الرئيس السادات عندما تزعم الأستاذ توفيق الحكيم جموع الأدباء في كتابة بيان يؤيدون فيه المظاهرات التي خرجت تحتجُّ على وضع اللاحرب

واللاسلم قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ . ولم يكن أحد يعرف بالطبع أن السادات الداهية يخطط هو والقوات المسلحة المصرية لمفاجأة الجميع، الشعب المصري والإسرائيليين على السواء بعبور أكتوبر المجيد. وعندما قرأ السادات البيان الذي وقَّعه الأدباء وعلى رأسهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ، استشاط غضبًا وصرَّح قائلًا: حتى الحشاش ده كمان وقع على البيان؟! يقصد الأستاذ نجيب محفوظ، وكما ذكرت، كان الأستاذ يضحك بسعادة وهو يذكر هذا التعليق للسادات، وهو يدل على أن الأستاذ نجيب كان قد غفر للسادات تعليقه هذا بعد أن تحقق العبور والنصر على يديه.

أما عن زوجات الرؤساء فيتذكر الأستاذ نجيب أنه مساء ذات يوم تلقى اتصالًا هاتفيًا، وإذا بالسيدة تحية زوجة الرئيس عبد الناصر على الخط تسأل الأستاذ عن بكرة (شريط) فيلم عربي أو أجنبي، لا أتذكر، تريد أن تشاهده في منزلها مع بعض ضيوفها، وردَّ نجيب بلباقة، وكان يشغل وقتها مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية: إنه لا يحتفظ بالأشرطة في منزله! وأيضًا في اتصال تليفوني، كانت السيدة جيهان أرملة الزعيم أنور السادات على الخط، وقد عرفت أن نجيب محفوظ يكتب رواية عنوانها "يوم قُتل الزعيم"، فاستفسرت من الأستاذ نجيب إذا كانت الرواية عن زوجها أنور السادات، فأكد لها نجيب أن الرواية لا صلة لها بحياة الرئيس السادات، ولا توجد بها أي إساءة له.

شتيمة قذرة !

وجاء إلى ندوة قصر النيل عدة مرات المرحوم الدكتور فرج فودة، وكان في عز شُهرته وتصديه للجماعات الإسلامية التي كانت في أوج قوتها ونفوذها. جاء ومعه (شلة) من مريديه وأحبابه. وأتذكر أنه في نهاية ندوةٍ، وأنا أسير بجانبه، قلت له: "يا دكتور، أنت أثناء هجومك على التصرفات البشعة والمرفوضة التي تقترفها هذه الجماعات، أحيانًا تنجرف إلى مهاجمة الدين نفسه!" فردَّ قائلًا:"لو سمعت الشتائم القذرة والتهديدات المتواصلة التي يتفوهون بها لعائلتي وأولادي في التليفون لكنت عذرتني في فقداني لأعصابي والتجاوز أحيانًا في محاولتي الرد على هذه الإساءات والبذاءات". وفعلًا أشفقتُ عليه؛ لأن التعرض للأولاد وللزوجة في أي خلاف فكري هو انحطاط ما بعده انحطاط.. وكان الأستاذ نجيب محايدًا في مشاعره تجاه فرج فودة، فلم أشعر قط بأنه يحبه أو يكرهه، وأظنُّ أنه كان يتوتر عندما يجيء للندوة خوفًا من أن تتحول إلى مجرد ندوة للهجوم على التطرف والمتطرفين.

اليساري كامل "من مجاميعه" !

وجاءت للندوة مرة واحدة في قصر النيل، الأستاذة درية شرف الدين لتهنئة العبقري بحصوله على جائزة نوبل، وكانت حينذاك مذيعة تلفزيونية شهيرة، وبرنامجها نادي السينما كان من أنجح البرامج التلفزيونية، والحقيقة أن العبقري مهذب مع جميع ضيوفه، ولكن الذين عاشروه مدة كافية يستطيعون أن يدركوا متى يكون سعيدًا فعلًا بضيفه. وكما ذكرتُ كان يظهر على ملامح وجهه وبريق عينيه من أسفل نظارته إذا كان راضيًا بما يقال أو بالضيف الذي أمامه أم لا. وأتذكر أن نجيب محفوظ كان سعيدًا فعلًا بوجودها. وهي مذيعة محترمة بالفعل بالرغم من معاملتها السيئة وغير منصفة للأستاذ الصحفي المحترم محمود عوض عندما استضافته في برنامجها ليحلل فيلم عن قبائل الزولو. كما أنها كانت لا تحاول مناقشة النقاد اليساريين في آرائهم المتحاملة على أي فيلم لا يتوافق مع عقيدتهم وتعصبهم. وقد حكيت للأستاذ نجيب كيف أن ضيف البرنامج في إحدى حلقاته كان الناقد اليساري أحمد رأفت بهجت الذي انهال على فيلم

أمريكي جميل بالنقد والتجريح، فقط لأن الفيلم كانت به لمسات إنسانية رقيقة! حيث تتأرجح مشاعر البطل بين الخير والشر إلى أن انتصر الخير في داخله. وطبعًا هذا لم يتوافق مع تطرف الناقد اليساري، إذ كيف يُظهِر الفيلم أن هناك جانبًا خيِّرًا في شخصية الرجل الأمريكي أو في الحياة الأمريكية عموما؟! لا بد، وفقًا لتصور اليساري، أن يظهر الفيلم أن الحياة بشعة في أمريكا، وأن كل رجالها أشرار! ولتذهب أصول الدراما إلى الجحيم. والغريب أن درية شرف الدين لم تحاول أن تعترض على هذه الترهات التي يتفوه بها الناقد ضد كل أصول الدراما والواقع. وقد ابتسم الأستاذ نجيب وأنا أحكي له هذه الواقعة، وأكد لي أنه عانى الانتقاد نفسه من كتاب يساريين متطرفين كانوا يريدونه أن يُمجِّد أي شخصية يسارية تظهر في رواياته على طول الخط! فلم يعجبهم مثلًا تصويره لشكل المدرس الماركسي وشخصيته في رواية "خان الخليلي"، فقد كان متجهماً باستمرار، وذا عينين زجاجيتين، مما نفر منه تلميذته "نوال". وبالرغم من أن نجيب محفوظ قد أظهر مدى ثقافة هذا المدرس الماركسي وعلمه، فإن النقاد اليساريين كانوا يريدونه إنسانا كاملًا من "مجاميعه"!

وحضرت الدكتورة نوال السعداوي الندوة للتهنئة، ولم تتحمل أكثر من عشر دقائق، وانصرفت، فالندوة شمسها هو نجيب محفوظ، ومن يقرأ مقالات د. نوال السعداوى يفهم تمامًا لماذا انصرفت بعد عشر دقائق. فهي لم تتحمل أن تكون، كغيرها من الأدباء والمشاهير، مجرد كوكب صغير بجانب شمس نجيب محفوظ.

وجاءت الفنانة الكبيرة فاتن حمامة والفنان الكبير عادل إمام لتهنئة الأستاذ، ولكن للأسف الشديد لم أكن موجودًا يومها.

وجاء للتهنئة أيضًا من الأدباء والنقاد سمير فريد وعبد الرحمن أبو عوف وفيصل ندا وسليمان فياض وفؤاد دوارة وعبد الوهاب الأسواني ومفيد فوزي وصبري حافظ وغيرهم. وجئتُ إلى الندوة يومًا فوجدت فيها رجلًا ودودًا لم أعره اهتمامًا وقتها. ولم أعرف حتى وفاته أنه كان عبد الله رزة أحد أبرز قيادات مظاهرات الطلبة أيام ما قبل حرب أكتوبر١٩٧٣! ولم أعرف حجم شعبيته وجماهيريته إلا عندما رثته أقلام كثيرة ومحترمة.

كانت الندوة في قصر النيل قد استقرت على أفراد ثابتين تقريبًا بعد أن انتهت كما يقولون هوجة وفرحة نوبل، وهم مصطفى أبو النصر، (وقد تُوفي، رحمه الله، في فترة ندوات قصر النيل)، وعلي سالم، وزكي سالم الذي حصل على درجة الدكتوراه فيما بعد، ود .فتحي هاشم، وأحمد سعيد، ومحمد البدري، وأحمد فهمي، ونعيم صبري، وإلهامي وعماد ومحمد الشربيني، وعزيزة الياسرجي وريموند ستوك (أديب أمريكي ترجم للأستاذ عدة قصص قصيرة)، ود. هاشم أستاذ لعلم الجمال بجامعة حلوان، ومجموعة من سيدات محترمات يعملن في كل المجالات من صحافة وصيدلة وبنوك وشركات مقاولات، للأسف لا أتذكر من أسمائهن الآن سوى هناء ونبيلة ودينا جلال التي كتبت دراسة قيمة عن المعونة الأمريكية لمصر وقتها، وطبعًا كان يأتي آخرون أحيانًا، ولكن دون انتظام.

لا أفهمه !

كان نجيب محفوظ صريحًا فيما يحب ولا يحب من إنتاج الأدباء والشعراء والسياسيين. وعندما أتى إلى الندوة الشاعر الشهير "أدونيس" لتهنئة العبقري بالجائزة، أتذكر أني ألقيتُ أمامه للترحيب به بيتًا من شعره أحببتُه وما زلت، وهو: "إنها الأمة ترتاح إلى أشلائها، وعلى الجدران تاريخ ينام، ليس هذا وطنًا، هذا ركام"، وهو من أشعاره القديمة قبل أن يوغل في الغموض. وقد سألت الشاعر الكبير إذا كان ما يزال على رأيه هذا في أحوال الأمة العربية؟ فردَّ بالإيجاب. وبعد أن استأذن أدونيس في الانصراف، سألت الأستاذ نجيب عن رأيه في أشعار أدونيس؟ فرد ببساطة: "لا أفهمها!".

وعندما احتفى بعض النقاد بروائي مصري وهو الأديب (إ.إل) أحضر الأستاذ مصطفى أبو النصر كتابين من تأليف هذا الكاتب لنجيب محفوظ، أخذهما الأستاذ ليقرأهما في منزله، وفي الندوة التالية فوجئنا بنجيب محفوظ،

فور جلوسه، يلقي الكتابين على الترابيزة أمام الأستاذ مصطفى قائلًا: "بلا قرف"! ولم أكن قد قرأت شيئًا لهذا الكاتب، ولكن الأستاذ مصطفى أبو النصر قال لي بعدها تعليقًا على كلمات نجيب محفوظ، إن كتابات هذا الأديب كانت - في رأيه - أقرب إلى الهلوسة.

المتنبي ونيتشه

في معرض انبهاري بأشعار الشاعر العربي الكبير "المتنبي"، ذكرتُ أمام الأستاذ نجيب في ندوة قصر النيل، أنه، أي المتنبي، هو نيتشه العرب، أقصد الفيلسوف الألماني الأشهر "فردريك نيتشه" الذي يعدُّ أبرز الفلاسفة العالميين الذين مجدوا القوة والكرامة والعزة في الإنسان إلى درجة مرعبة! وطبعًا المتنبي هو القائل: "عِش عزيزًا أو مت وأنت كريم"، وهو القائل: "فاطلب العز في لظى ودع الذل ولو كان في جنان الخلود"، وهو القائل: "من يهن يسهل الهوان عليه، ما لجرح بميت إيلام" وهو القائل: "ذو العقل يشقى في النعيم بعقله، وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم".

وقد وافقني العبقري على الفور. وكنت بين الحين والحين أُردد أمام نجيب محفوظ والحضور كلمات نيتشه في كتابه "هكذا تكلم زرادشت": كم يضحكني أولئك الضعفاء، يظنون أنفسهم رحماء، وهم قد شُلت أيديهم ولا

حول لهم ولا قوة!". فالضعيف ليس رحيماً أو طيبًا كما يتراءى لنا، بل هو في أغلب الأحيان مغلوب على أمره، فإذا ما تمكَّن أو أُعطي سلطة على العباد قد يفجر ويتنمر ويُظهر شَرَّه. وهذا ينطبق على الشعوب بمثل ما ينطبق على الأفراد. وكنت دائماً أقول إن الغرب تتنازعه صفتان لشخصيتين رئيسيتين يتردد بينهما كبندول الساعة، وهما نيتشه والمسيح. أي القوة والرحمة، فأحيانًا يظهر الغرب تصرفات هي قمة في الإنسانية والحب والتسامح والرحمة، وأحيانًا أخرى يُظهر قوة وقسوة وحشية هائلة ومدمرة!

والحقيقة أن الحضارة العربية الإسلامية قد امتلكت عقول المصريين وقلوبهم لأجيال وأجيال لدرجة أن معظمنا من الجيل الحالي لا يتذكر من الجمل والعبارات المصرية الشهيرة سوى كلمات الزعيم مصطفى كامل: "لو لم أكن مصريًّا، لوددتُ أن أكون مصريًّا"، أو كلمات الزعيم سعد زغلول: "الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة"، أما الغالبية العظمى من الأقوال والعبارات المأثورة التي يستعين بها المصري، مثقفًا أو غير مثقف في مناقشاته وفي وصف كل شؤون حياته، فكلها أقوال وعبارات من القرآن الكريم، وأقوال الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يأتي بعدها أقوال الصحابة رضي الله عنهم، كقول عمر بن الخطاب مثلًا في تصوره لمسؤوليات الحاكم تجاه رعيته: "والله لو أن دابة تعثرت في العراق لسُئل عنها عمر" أو قوله: "أخطأ عمر وأصابت امرأة"، وأقوال علي بن أبي طالب مثل: "لا تعرف الحق بالرجال، وإنما اعرف الرجال بالحق، اعرف الحق تعرف أهله"، "لو كان

الفقر رجلًا لقتلته"، وغيرها، ثم أقوال الولاة العرب الأقدمين مثل معاوية في قوله: "بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، لو شدوها أرخيتها، ولو أرخوها شددتها"، وغيره كثير من قادة العرب المسلمين في عِز قوة الحضارة العربية الإسلامية. ويأتي بعدها أقوال الشعراء والأدباء العرب، وما أكثرهم، المتنبي كما ذكرتُ وغيره كثير.. امرؤ القيس والفرزدق وجرير والبحتري وابن الرومي وأبو تمام وأبو فراس الحمداني وأبو نواس وأبو العلاء المعري وغيرهم. وأقوال الفقهاء؛ أبو حنيفة ومالك بن أنس، والشافعي وابن حنبل. كل هؤلاء يستعين المصري بأقوالهم المأثورة في المناقشات والمناسبات المختلفة في الأطوار المتعددة من حياته.

تولستوي وبروست وكامو وفوكنر!

ومن الجدير بالذكر أنه قبل أسبوعين تقريبًا من تاريخ حصوله على جائزة نوبل، كان الحديث في الندوة عن الأدباء الذين حصلوا على هذه الجائزة، وعن الذين لم يحصلوا عليها، وجاء ذكر الروائي الأشهر والأعظم الروسي ليو تولستوي، باعتباره أبرز الذين تخطتهم جائزة نوبل بدعوى أنه مجَّد الحرب والقتال في روايته العظيمة "الحرب والسلام"، وهذا اعتبرته لجنة نوبل منافيًا لغرض مؤسس الجائزة بأنها جائزة لنشر مبادئ السلام في العالم ومناهضة الحروب. ووقف كل أدباء الدول الإسكندنافية وقتها وقفة احتجاج أمام مقر اللجنة المانحة؛ لأنها حرمت أعظم روائي عرفه العالم بلا منازع من الجائزة التي يستحقها. وعلق نجيب محفوظ، بأن الرجل – يقصد تولستوي– معذور، فبلاده روسيا كانت تخوض حربًا، ويريدونه أن يكتب ممجدًا السلام؟! وعندما ذكرت الأديب صاحب الرواية العبقرية الواحدة

الفرنسي "مارسيل بروست" وهي "البحث في الزمن الضائع" اعترض الأستاذ نجيب، فاحتججت وقلت له: كيف يا نجيب بك؟! وحاولت أن أكمل، فقاطعني قائلًا: "أنا عارف إنه كان بيكتب عن كل فتفوتة حصلت له" ومن الغريب أني لا أتذكر قط ما حجة نجيب محفوظ للاعتراض على عبقرية مارسيل بروست؛ لأننا لم نستأنف حوارنا عنه بعدها! وشرح لنا الأستاذ نجيب رأيه في أن لجنة نوبل أعطت الجائزة الكاتب الفرنسي ألبير كامو عن روايته "الغريب" قبل زميله الأشهر منه "جان بول سارتر"، مما جعل جان بول سارتر يرفضها عندما أُعطي إياها بعده. فقال الأستاذ نجيب مبررًا، إن رواية "الغريب" عند صدورها لمست على الفور مشاعر الضياع والغربة التي أحس بها الأوربيون في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، والتي أودت بحياة الملايين، وخرَّبت حياة الباقين منهم، فبهرت الرواية الجميع، وطبعًا أعضاء لجنة نوبل.

وقد وافقني الأستاذ نجيب رأيي عندما ذكرت أن الفصل الذي كتبه الكاتب الأمريكي ويليام فوكنر في رواية الصخب والعنف على لسان الأخ المتخلف عقليًّا "بنجي"، كيف يفكر وكيف يحس بالأشخاص وبالطبيعة من حوله، يعتبر من أعظم ما كُتب في تاريخ الرواية العالمية. وقد حصل ويليام فوكنر على جائزة نوبل بهذه الرواية.

وغني عن الذكر أن ندوة قصر النيل كانت تمتلئ بالحوارات والتعليقات

حول مؤلفات كبار الكتاب العالميين، على سبيل المثال لا الحصر،: "الإخوة كرامازوف" لديستوفسكي و"أقاصيص سيباستيبول" لتولستوي، و"العجوز والبحر" لهيمنجواي، و"موبي ديك" لهيرمين ميلفيل، و"البيت والعالم" لطاغور، و"الآلهة عطاش" لأناتول فرانس، و"أنطوانيت" لرومان رولان، و"دكتور زيفاجو" لباسترناك، و"زوربا اليوناني" لكنتزاكيس، و"عالم تسكنه الحيوانات" لجورج أورويل، و"مائة عام من العزلة" لماركيز والقصص القصيرة لموباسان وأنطون تشيكوف وديوان "أزهار الشر" لبودلير، و"الأرض الخراب" لإليوت، ومسرحيات" بيت الدمية" لأبسن، و"جان دارك" لبريخت، و"مشرب شاي في ضوء القمر" لجون باتريك، و"الولد الذهبي" لكليفورد أوديتس وغيرها وغيرها مما لا تسعه الذاكرة التي تخبو بتقدم العمر.

إنت كده بتعتبرنا بهائم !

وبعد أن تحدثنا عن بعض الأدباء الذين حصلوا على الجائزة مثل الأمريكي ويليم فوكنر والفرنسي ألبير كامو والإنجليزي برنارد شو والأمريكي هيمنجواي والهندي طاغور وغيرهم، قلت: يا نجيب بك أنت لا تقل قيمة عن أي أديب من هؤلاء الكبار الذين حصلوا عليها، ولو أنصفت اللجنة لأعطتك الجائزة مثلهم. ورد الأستاذ قائلًا بصوت خفيض: "لا، أنا لا أستحقها! فرددتُ بحدة: إنت كده بتعتبرنا بهائم يا نجيب بك، أنا وغيري في الندوة نقول لك لقد قرأنا كتب كل هؤلاء العظماء، وقرأنا كتبك وأؤكد لك أنت لا تقل عنهم عبقرية. فسكت ولم يرد. وبعدها بأسبوع أو اثنين منحته لجنة نوبل جائزتها العالمية في الثالث عشر من أكتوبر عام ١٩٨٨! وذهبت مساء اليوم التالي أو يومها لا أتذكر إلى منزله لأهنئه، وتقابلت مع الروائي والصحفي يوسف القعيد على سلم منزل نجيب محفوظ، وكان

يوسف القعيد حاضرًا قبلها في تلك الندوة، فبادرني قائلًا "إنت فاكر لما قلت لنجيب محفوظ منذ أسبوع إنه يستحقها؟" فرددت عليه ونحن ندخل شقة الأستاذ نجيب لأول مرة: "طبعًا فاكر.. مبروك لنا جميعًا". المهم أن باب شقة الأستاذ نجيب كان مفتوحًا على مصراعيه، وأعداد غفيرة من الصحفيين من كل الجنسيات تملأ الشقة، لأول وآخر مرة في حياته! ونجيب داخل غرفة من الغرف بابها مغلق عليه ومعه الصحفي الذي كان أسبق إلى الحضور، وأمام الغرفة إحدى بناته ترحب بالموجودين وتمنعهم في ذات الوقت من اقتحام الغرفة! ولم أعرف من أو ما الجريدة التي يمثلها، ربما كانت جريدة الأهرام. وخرجت بهدوء دون أن أقابله، فعلى كل حال كنت سأراه الجمعة التالية.

كانت ندوة الجمعة في كازينو قصر النيل بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل تضم أعدادًا كبيرة من الحضور، وكثيرًا من الشباب، لدرجة أنها كانت تضم عدة صفوف من الكراسي وراء بعضها البعض حول المائدة التي نجلس حولها.

الأدباء والسياسة والزلزال

حضر ندوة قصر النيل وفد من الأدباء من دولة ألمانيا الغربية، وكانت ألمانيا، بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، قد تم تقسيمها عام ١٩٤٩ إلى جزأين، أحدهما يخضع للاحتلال الغربي تحت اسم ألمانيا الغربية، والجزء الثاني دولة شيوعية تخضع لهيمنة الاتحاد السوفييتي الذي لم يكن قد تفكك بعد، وسألتهم أمام نجيب محفوظ: هل تتوقعون أن تتوحد بلادكم يومًا ما في المستقبل؟ وأجمع كل الأدباء الألمان على أنه لا أمل لديهم على الإطلاق في توحُّد ألمانيا مرة أخرى! وما هي إلا سنوات قليلة، حتى انهار الاتحاد السوفييتي وسرعان ما أسقط الألمان الشرقيون السور الذي كان يفصلهم عن ألمانيا الغربية، وتوحَّدت ألمانيا مرة أخرى عام ١٩٩١. وكنت أذكِّر الأستاذ نجيب بهذه الواقعة كلما أردت أن أداعبه بأن الأدباء لا يتقنون السياسة وتوقعاتها.

وفي هيلتون رمسيس، في ندوتنا الخاصة، جاءت الأستاذة الصحفية ماجدة الجندي، وهي شخصية محترمة وزوجة الأديب جمال الغيطاني، لتجري حوارًا ستنشره مجلة صباح الخير مع الأستاذ نجيب، عن موضوع طريف وجديد، وهو عن أثر الزلزال في حياتنا، وصلته بالحياة السياسية في مصر، وكان قد حدث زلزال قوي في مصر وقتها أكتوبر عام ١٩٩٢. وقد سعدت عندما أرسل لي جمال الغيطاني بعدها صورة أخذت في أثناء هذا الحوار، وعلى ظهرها إهداء منه يقول: "الصديق الأستاذ محمد الكفراوي مع تحيات واحترام جمال الغيطانى".

كما حضر مرة الشاعر فؤاد بدوي ليجري حديثًا مع محفوظ حول الموضوع نفسه، وأخبرني العبقري، بعد انصرافه، أنه يعاني تسمم الكبد، وقد كان مقاتلًا محبًّا للحياة رغم مرضه.

وتصادف أن قابلنا الدكتور حازم الببلاوي، وتصافَح هو ونجيب محفوظ بحرارة بالغة، والظاهر أنهما كانا على صلةٍ جيدة من قبل، وكان الدكتور حازم الببلاوي وقتها على ما أذكر رئيسًا لأحد البنوك، وكان يكتب مقالات اقتصادية قيمة بالأهرام، وشكرته على كتبه الاقتصادية التعليمية التي استفدتُ منها شخصيًّا ومن أهمها "دليل الرجل العادي للتعبير الاقتصادي".

كما حضر إلى جلستنا الخاصة بهيلتون رمسيس قادمًا من لندن في إجازة قصيرة الدكتور صبري حافظ الناقد، الأدبي المعروف، الذي يقيم إقامة

دائمة في بريطانيا، وكان قد هاجَم الأستاذ نجيب لموافقته على السلام مع إسرائيل ثم تصالح معه. ومن الطريف أنه عندما قلت إنني أحسد الدكتور صبري على أنه يعيش في دولة ديمقراطية، وإذا بالدكتور صبري يفاجئنا، أنا والأستاذ نجيب، قائلًا بصوت خافت، وعلى وجهه ابتسامة عذبة وخجول: "وهل في بريطانيا ديمقراطية"؟! وابتسمت أنا والعبقري في الوقت نفسه، ونظرنا إلى بعضنا البعض بنظرة ذات دلالة، فقد كان الدكتور صبري، كمعظم اليساريين المصريين، لا يعترف بديمقراطية الغرب، ولكنه يستمتع حتى النخاع بالعيش في جحيمها!

عادات مصرية

من الأحداث الجديرة بالذكر، والتي حكيتها للعبقري، أن الأستاذ علي سلامة السكرتير المساعد لحزب الوفد كان دائمًا ما يردد أمامي، في مكتبه بمقر حزب الوفد بيت شعر، يقوله وهو يتنهد: إيه يا سى كفراوي، "رب يوم بكيت منه، فلما عشت في غيره، بكيت عليه ". ويستطرد شارحًا: كنا أيام الملك فاروق، نخرج ضده في مظاهرات صاخبة دون أن يعترضنا أحد، فعندما طلق الملكة فريدة خرجنا نهتف: "خرجت الطهارة من بيت الدعارة". وعندما استعد الملك لزيارة تركيا، خرجنا نهتف: "إلى أنقرة يا ابن المرة". كنا غير راضين عن الأوضاع حينذاك، يستطرد علي سلامة قائلًا لي: "وإذا بالأقدار، تجعلنا نترحم على هذه الأوقات! فقد انزاح الملك، وإذا بالعهد الذي أتى بعده يزج بنا في السجون لمجرد تشييعنا لجنازة النحاس! ولولا هزيمة يونيو ٦٧ لكنا قد دُفنا في السجون!".

وكما ذكرتُ من قبل، إنني اكتشفت بعد طول السنين أن أحمد مثل الأستاذ أحمد مثل الحاج أحمد! وأن الليبراليين ودعاة الحرية وحقوق الإنسان في مصر قلة قليلة لا وزن لها. وقد ذكرت للأستاذ واقعة ذات دلالة حضرتُها وأنا في ذروة نشاطي بصفتي ليبراليًّا داخل حزب الوفد. فذات يوم دخلت مقر الحزب، وفي غرفة السكرتارية المساعدين، والتي كانت تضم القوة الضاربة للحزب، الأساتذة علي سلامة وكرم زيدان وعبد المنعم حسين والدكتور إبراهيم أباظة رحمهم الله جميعًا. وجدت الجميع في حالة نشوة وسعادة، وسألني الدكتور إبراهيم أباظة على الفور: هل قرأت مقالة الدكتور عبد العظيم رمضان اليوم؟ ثم اندفع قائلًا دون أن ينتظر إجابتي: لقد كتب يؤكد بالوثائق والحقائق، أن كل إنجازات عبد الناصر مقتبسة من أفكار الوفد التي كان ينوي تطبيقها فيما لو استقر في الحكم، وأن عبد الناصر، نسب هذه الأفكار والسياسات لنفسه بعد أن نفذها على أرض الواقع! وذهلت وسألت الدكتور إبراهيم: هل هذا حقيقي؟! وهل هذه حقيقة تسعد الوفديين الليبراليين؟! من المفترض أنها تُتعسهم لأسباب واضحة! ولم يرد الدكتور إبراهيم.

وذكرت للأستاذ نجيب أيضًا ما فاجأني وأدهشني في مذكرات السير مايلز لامبسون، السفير البريطاني في مصر، في الأربعينيات من القرن الماضي، فقد ذكر أن مديري المصانع في مصر، وكان معظمهم من الإنجليز والأجانب، قد اجتمعوا به، أي بالسفير، ليشتكوا مُر الشكوى من أن أعضاء

حزب الوفد يدورون على المصانع ليحثوا العمال المصريين على عدم العمل، وعلى المطالبة بحقوق تفوق كثيرًا ما يقومون به من واجبات! وسألت الأستاذ نجيب: أليست هذه العقلية نفسها التي دمرت روح العمل والإنتاج في العهد الناصري؟!

كل واحد رشح نفسه !

من الأحداث السياسية الطريفة، التي حكيتها للأستاذ نجيب، والتي توضح أشياء كثيرة حدثت وتحدث في حياة المصريين، واقعتان حدثتا وأنا عضو نشط في حزب الوفد في عهدي فؤاد سراج الدين ونعمان جمعة. فعندما دخل حزب الوفد الانتخابات البرلمانية في عهد حسني مبارك، ونجح أعضاء كثيرون في الحصول على العضوية، فكر فؤاد سراج الدين في تعيين أخيه ياسين سراج الدين رئيسًا للهيئة البرلمانية لحزب الوفد، وأخبر بقية الأعضاء الناجحين بذلك. ثار الأعضاء القدامى الذين نجحوا في الانتخابات على هذا التفكير، ومنهم الأساتذة على سلامة، وكرم زيدان وغيرهم من قيادات الحزب الذين عاصروا النحاس باشا، وسُجنوا في عهد عبد الناصر. وقال علي سلامة لفؤاد باشا: "لولاك ما كان". يقصد أن ياسين سراج الدين لم يكن لينجح لولا نفوذ أخيه. وافق فؤاد باشا ظاهريًّا على اعتراضهم، وقابل

كل واحد من المعترضين على حدة، وسأله مَن ترشح لرئاسة الهيئة البرلمانية لحزب الوفد؟ فكانت النتيجة أن كل واحد منهم رشح نفسه للرئاسة! فقال لهم فؤاد باشا أن يجتمعوا معًا ويتفقوا على واحد منهم فقط؛ لكي يكون رئيسًا، فاجتمعوا وفشلوا جميعًا في الاتفاق على واحد منهم، فقد أصرَّ كل منهم على أنه الأحق بالرئاسة! فكانت النتيجة أن عيَّن فؤاد باشا أخاه ياسين رئيسًا للهيئة البرلمانية للحزب، ولم يستطع واحد منهم بعدها أن يفتح فمه ليعترض! وقد ضحك الأستاذ نجيب من أعماقه وهو يستمع إلى هذه الواقعة التي حكاها لي وقتها د. إبراهيم أباظة عضو الهيئة العليا والسكرتير المساعد للحزب رحمه الله، وكانت واقعة معروفة تمامًا داخل أروقة الحزب.

طيب قول وزير!

والواقعة الطريفة الأخرى التي حكيتها للعبقري، حكاها لي حسن حافظ رحمه الله. كان الأستاذ حسن حافظ عضوًا شهيرًا في الحزب الوطني الذي يرأسه حسني مبارك، وكان رئيسًا للجنة من اللجان المهمة في الحزب الوطني. وقد اختلف حسن حافظ، لسبب لا أتذكره، مع أعضاء الحزب الوطني، وانضم إلى حزب الوفد. تكررت جلساتي مع حسن حافظ، وأصبحت مقربًا منه. وقتها بدأ الحزب الوطني في تلميع جمال مبارك تمهيدًا لمخطط التوريث في المستقبل. وعندما تعجبت أمام المرحوم حسن حافظ كيف يقبل أعضاء الحزب الوطني هذا المخطط من حسني مبارك فاجأني بالحكاية الآتية؛ وهي أنه على مدار اجتماعات الرئيس بأعضاء لجان الحزب الوطني ورؤسائها، والتي كان يحضرها حسن حافظ بانتظام، كان يدخل عليهم عضو تلو الآخر قائلين للرئيس: إنه لا بد له أن يعين جمال ابنه نائبًا للرئيس، وكيف أن ابنه

جمال عبقري، وأنه موهوب في السياسة... إلخ، وكان مبارك في كل مرة يستمع صامتًا إلى هذا النفاق، إلى أن سمعه حسن حافظ يرد أخيرًا، على أحد المطالبين بتعيين ابنه نائبًا للرئيس، قائلًا: "طيب قول وزير؟!"

حكيت هذه الواقعة لنجيب بك كمثال حقيقي وفي الصميم لمدى النفاق الذي يتعرض له الحاكم، أي حاكم لمصر، ممن يحيطون به ويدفعونه دفعًا للانحراف والتأليه، وأن الإنسان، أي إنسان، لا بد أن يكون ملاكًا لكيلا يستسلم لهذا النفاق المتواصل! وعندما ختمت حكايتي عن هذه الواقعة للأستاذ بقولي: "يا فرعون مين فرعنك؟" وإذا بالأستاذ يكمل المقولة مُؤَمِّنًا على كلامي قائلًا: "مالقتش اللي يردني". فالعيب، في معظم الأحوال، يكون في الحاكم والمحكوم معًا. وكنت دائمًا أُردِّد أمام العبقري كلمات "مونتسكيو" المفكر الفرنسي الشهير: "كل شعب يستحق الحكومة التي تحكمه". وقول علي بن أبي طالب: كما تكونوا يولَّى عليكم. وكنت دائمًا أذكر الشعب الألماني وزعيمه هتلر، كمثال، في ثلاثينيات القرن الماضي. وكيف أن هتلر، بغروره وديكتاتوريته، ما هو إلا نتاج للشعب الألماني بتاريخه المليء بالغرور والاستعلاء على جيرانه. وفلاسفته الكبار هيجل ونيتشه وكانت وغيرهم، كانوا يمجدون القوة والحرب وإطاعة القادة طاعة عمياء، وأداء الواجب مهما تكن النتائج، ودون انتظار لأي مكافأة دينية أو دنيوية.

والحقيقة التي ذكرتها مرارًا للعبقري، هو أنني في كل مقالاتي التي كانت تنشرها جريدة الوفد، وعلى مدى سنوات، والتي كنت أهاجم فيها الرئيس حسني مبارك وعهده بضراوة، لم يحدث قط أن تعرضتُ لتهديد صريح أو مُستتر من النظام، ولم يتدخل أحد لمنع مقالاتي، مما جعلني أنتبه في النهاية إلى أن عهده، عهد مبارك، كانت حرية الرأي فيه مكفولة، ومن ثم بدأت نظرتي لعهده تأخذ مسارًا أكثر واقعية واعتدالًا. ثم بدأت أنتبه إلى أن كل من قابلته من أعضاء حزب الوفد الذين كانوا من رجال القوات المسلحة يومًا ما، كلهم دون استثناء كانوا يمتازون بالأدب الجم والتواضع والإخلاص في ما يفعلون ويقولون، ومن ثم أدركت قيمة الانضباط واحترام النظام الذي يتعلمونه في شبابهم في الكليات العسكرية. وكنتُ أُردِّد أمام العبقري عبارة صمويل هنتجتن المفكر الأمريكي الشهير وصاحب كتاب صِدام الحضارات، وهي: "النظام والقانون هما المتطلب الأول للحضارة"! فالنظام الأسبرطي الذي يطبق بصرامة على طلبة الكليات العسكرية هو في حد ذاته مطلب من متطلبات الحضارة. وكان العبقري ينصت دون تعليق.

أخطاء قاتلة

عندما بدأت عملية السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، اغتيل إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل في نوفمبر عام ١٩٩٥ على يد متطرف ديني إسرائيلي. بعدها تولى شيمون بيريز رئاسة الوزراء خلفًا له وتعهد بالاستمرار في عملية السلام. بعدها مباشرة فجَّر انتحاريون فلسطينيون حافلتين إسرائيليتين مكتظَّتين بالركاب. وفي ندوة شبرد، ناقشنا جميعًا هذين التفجيرين مع الأستاذ، والآثار التي ستنتج عنهما، وكيف أن الإخوة الفلسطينيين لا يتركون أبدًا الفرصة للعالم كله كي يلتقط أنفاسه ويتمعن في وحشية التصرفات الإسرائيلية وحمقها، وإنما يسارعون دائمًا إلى القيام بتصرفات تجعل العالم يصرف النظر عن معنى اغتيال رابين بيد متطرف إسرائيلي، ويعود ليستمع إلى الدعاية الإسرائيلية للعالم بأنهم، أي الإسرائيليين، يعيشون وسط متوحشين يفجرون الحافلات وغيرها! ولا

أدري لماذا قلت وقتها للحضور إن القدس قد ضاعت نهائيًّا من أيدينا، وكأنها كانت نبوءة مشؤومة لما سيحدث في المستقبل البعيد.

قلت للأستاذ ذات مرة إن الغرب، كثيرًا ما يستغل سذاجتنا في الكلام والتهديد والوعيد الفارغ من أجل قلب الأمور ضدنا، حتى ولو كان الحق معنا! وقد حكيت له، أنه في سبيل تشويه شخصية صدام حسين، قبل الإطاحة به، وكنت وقتها في الولايات المتحدة، أذاعت محطة تلفزيونية أمريكية شهيرة حديثًا له مع مراسلتها. سألته المذيعة عن علاقته بإسرائيل، وهل هو يستعد للحرب معها؟ ردَّ صدام باللغة العربية قائلًا: نحن لسنا دعاة حرب، ولكن لو هجم علينا الإسرائيليون سوف أحرق نصف إسرائيل! وكنت أتابع الترجمة الأمريكية الفورية التي تقوم بها المحطة الأمريكية، ولذهولي فوجئت بأن المحطة أسقطت تمامًا عبارة "لو هجمت علينا إسرائيل" من الترجمة الإنجليزية! فأصبحت كلمات صدام بالإنجليزية وأمام ملايين الأمريكيين والعالم كله كالآتي: "نحن لسنا دعاة حرب، ولكن سوف أحرق نصف اسرائيل"! طبعًا غِشٌّ واضح وحقير من المحطة، ولكن أيضًا فإن جزءًا كبيرًا من العيب يقع علينا، فلو استخدم صدام الطريقة الذكية التي دائمًا ما يتبعها الغربيون في كلامهم عن الحرب، مثلًا لو ردَّ قائلا: "نحن لسنا دعاة حرب، ولكن لو هجم علينا الإسرائيليون فسوف ندافع عن أنفسنا"، لما استطاعت المحطة أن تغير معنى الكلمات حتى لو اقتطعت منها أي جزء. وقد وافقني العبقري، بعد أن أنصت باهتمام إلى هذه الواقعة.

اللّه يرحمك يا رضا

كان رضا هلال - رحمه الله - الصحفي في جريدة الأهرام قد بدأ نجمه يلمع في سماء الليبرالية، وكنت بدأت أقرأ عموده بانتظام، فقررتُ أن أتصل به هاتفيًّا وأدعوه لحضور ندوة الأحد بشبرد، وقد حدث. وبدأ رضا هلال يحضر بانتظام، واندمج بسهولة في أجواء ندوة الأحد، لكثرة العناصر الليبرالية فيها (أخيرًا!). وكانت شخصيته ليبرالية أصيلة مثل كتاباته. وقد روى لنا رضا هلال حادثة لها دلالة عميقة عما كان يحدث من تغيرات هائلة في المجتمع المصري، فقد كان يوم جمعة، وكان رضا هلال هو الصحفي المناوب أو النبتشي (بلغة الجيش) في جريدة الأهرام، أي الصحفي الموجود لأي طارئ قد يحدث يوم الإجازة، عندما اتصلت سيدة من القراء تليفونيًّا، حوَّلوا مكالمتها إلى الأستاذ رضا. بدت السيدة شديدة التهذيب وهي تتحدث وتعتب على الجريدة أنها نشرت إعلانًا في الصفحة الأخيرة من

عدد الجمعة عن البيرة وغيرها من منتجات كحولية لشركة من الشركات. رد الأستاذ رضا عليها بأن هذا الإعلان مدفوع الأجر، فرجته السيدة أن تتوقف الجريدة عن نشر الإعلان؛ لأنها خمور محرمة دينيًّا، وعندما وجدت أن الأستاذ رضا لا يستطيع أن يُلبي طلبها، فجأة وبدون سابق إنذار، إذا بصوتها الهادئ يتحول إلى صياح، وتهذيبها يتحول إلى سباب من أقذع ما سمع رضا من شتائم بالأب والأم وغيرها. أغلق رضا هلال التليفون، واتصل بالأستاذ إبراهيم نافع شاكيًا ما تعرَّض له من سباب، وإذا بالأستاذ نافع - وكان رئيسًا للتحرير - يوبخه على أسلوب ردِّه على هذه السيدة، ويصدر قرارًا فوريًّا بعدم نشر هذا الإعلان مرة أخرى! كانت هذه الواقعة لها دلالة لا تخفى على أحد، أن التيار الديني قد أصبحت له السيطرة على الحياة الاجتماعية في مصر.

وقد ذكرتُ للأستاذ كيف أنه في رائعته "بين القصرين" صور بعفوية أول ملامح العنف الديني وبداياته في مصر الحديثة في الموقف الذي تعرض له السيد أحمد عبد الجواد عند خروجه من المسجد ومعه أبناؤه كمال وفهمي وياسين. فقد فاجأهم شاب أزهري مُعمم، وهو يصرخ متهماً ياسين بأنه جاسوس، فقد شاهده يتكلم ويضحك مع الجنود الإنجليز! وكيف بدأ الموقف يتصاعد وينذر بالخطر، وكادت الجموع تفتك بياسين لولا أن تعرف مصادفةً شابٌّ يرأس لجنة من اللجان التي تكونت لمقاومة الاحتلال، بفهمي أخي ياسين الذي كان مع هذا الشاب في لجنة واحدة، فتدخل في الوقت

المناسب، وأنقذ ياسين من اتهام المعمم المتطرف دينيًّا. ولم أنتبه أنا وغيري من القراء إلى هذه الحادثة التي كتبها نجيب محفوظ باقتدار وتلقائية بالغة في رواية "بين القصرين" إلا بعد مرور عشرات السنين على قراءتنا للرواية، حيث كما ذكرت، أثبتت الأحداث صِدقها.

عالم تاني

حدثت، قبل إحدى ندوات شبرد بأيام، حادثة غريبة وذات دلالة على مدى اختلاف الحياة في بلادنا عن بلاد الغرب، وقد حكيتها للعبقري ولرواد الندوة. والواقعة كما نشرتها الصحف، أن رجلًا مصريًّا وزوجته المصرية هاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ونجحا في الإقامة هناك، واشتريا منزلًا كعادة الأمريكان، وعمل الاثنان كلٌّ في وظيفته بنجاح. وإذا بفكرة تخطر على ذهنيهما، أن يحضرا فتاة من الريف المصري لكي تخدمهما في أمريكا في أثناء وجودهما في العمل، أي تطبخ وتكنس وغيره، وذلك بدلًا من الاستعانة بـ [illegible]، أي شغالة أمريكية تأخذ أجرها بالساعة أو باليوم. وطبعًا هذا التقليد كان منتشرًا بكثرة في الأسر والعائلات المصرية في القاهرة، حيث اعتادت كل أسرة أن تحضر فتاة من الأرياف لتخدمهم في مقابل أجر يتسلمه والدها عند حضوره كل شهر من قريته. ولكن أن

يفكر هذان الزوجان في تطبيق هذه الفكرة في أمريكا، فهذا ما لا يخطر على ذهن إنسان! وأحضرا الشغالة المصرية الصغيرة بالفعل إلى أمريكا. ومرت الأيام والأسابيع والشهور، إلى أن جاء يوم فوجئ فيه الزوجان بالبوليس الأمريكي يقتحم منزلهما ويقبض عليهما، ويودع الفتاة في دار رعاية للأطفال. فقد أبلغ الجيران الشرطة، بأنهم قد شاهدوا فتاة صغيرة موجودة في منزل الزوجين باستمرار، ولاحظوا أنها لا تذهب إلى المدرسة، ولا يسمح لها باللعب مع أصدقاء من سنها، ولا تلعب حتى وحدها في حديقة المنزل! وعُرض الزوجان على المحكمة التي حكمت عليهما بالسجن ثلاث سنوات، ليتم بعدها ترحيلهما إلى مصر، ومصادرة ممتلكاتهما التي حازاها لصالح تعليم الفتاة الريفية الصغيرة! وفعلًا التحقت الفتاة بالمدرسة، وباتت تلعب كرة القدم مع زميلاتها في دار الرعاية! وقد أكد رضا هلال أنه في أثناء دورته التدريبية في الولايات المتحدة، كان بوليس رعاية الطفل له الحق في انتزاع أي طفل من والديه، إذا ما كان هناك أي شكٍّ في سوء معاملة الوالدين له، إلى أن تبت المحكمة في الأمر. علق العبقري قائلًا: "عالم تانى!"

بداية الوباء!

ولا أنسى يوم حكيت للأستاذ مشكلة غريبة قرأتُها في صفحة بريد الجمعة بجريدة الأهرام التي كان يشرف عليها الأستاذ عبد الوهاب مطاوع حينذاك. فقد بعثتْ طبيبة تحاليل - على ما أتذكر - إلى بريد الأهرام تسأل الأستاذ عبد الوهاب عن حل لمشكلة مفاجئة تواجهها هي وزوجها. فلهذه الطبيبة ابن في مرحلة الشباب، في السابعة عشرة من عمره، على ما أذكر، شديد التهذيب معها ومع والده ومع بقية العائلة، ومتفوق في دراسته. جاء لزيارة هذا الابن زملاء له، ودخلوا غرفته، وأغلقوا عليهم الباب، كانت الأصوات داخل الغرفة خافتة هامسة؛ مما استرعى انتباه الأم، فاقتربت من الباب لتتنصت على ما يقولون. فوجئت الأم بأن ابنها يتباحث مع زملائه - الذين يشجعون فريق كرة القدم لنادٍ ما - كيف يهاجمون مشجعي الفريق المنافس بطرق وأساليب وصفتها الأم بأنها طرق وأساليب تصل إلى حد

الإجرام ويعاقب عليها القانون! واجهت الأم والأب الولد وأخبراه أن ما ينوي فعله هو وزملاؤه إنما هو جريمة يعاقب عليها القانون. فوجئت الأم بأن ابنها المهذب ذا الصوت الهادئ يتحول تمامًا إلى شخص آخر، فيخبرها هي والأب بصرامة بألا يتدخلا نهائيًّا في نشاطه التشجيعي هذا، حتى ولو وصل إلى مرحلة الإجرام!

ودُهش العبقري، ونحن رواد الندوة جميعًا معه، من هذه المشكلة التي كنا نتعرف عليها للمرة الأولى، وتعجبنا من تصرف هذا الشاب الذي تحوله الرياضة التي يشجعها إلى شخصية أخرى تمامًا! وغني عن القول أنه بعدها بسنوات وسنوات ظهرت الملامح الكاملة لهذا الوباء وهذا التغير في جينات الشباب المصري، فحدثت مذبحة استاد بورسعيد عام ٢٠١٢ التي راح ضحيتها نحو خمسة وسبعين شابًّا مصريًّا، وبعدها حدثت مذبحة باستاد بمدينة القاهرة وراح ضحيتها نحو عشرين شابًّا أيضًا نتيجة التشجيع الإجرامي المعتوه لكرة القدم!

براءة مذهلة

عندما كانت الحوارات السياسية تسخن في ندوة شبرد، لاحظت أن رضا هلال كان يتكلم بجرأة وحرية دون أن يلتفت إلى أن وجوده في مركز مهم في جريدة الأهرام، له محاذير. وأتذكر مرة عندما كنا نتحاور حول مبادئ الديمقراطية وتطبيقها في مصر، وجئت على ذكر حسني مبارك وموقفه، ثار رضا هلال، وصاح ساخطًا: ليه بتجيب سيرة حسني مبارك دلوقتى؟! ظَنَّ رضا الله يرحمه- خطأ- أننى أستخدم اسم الرئيس لكي أُخيفه من ذكر رأيه بصراحة في الأوضاع القائمة، كان رافضًا لذكر اسم حسني مبارك، في أي حديث سياسي! لم أنتبه كثيرًا، ساعتها، لغرابة الحوار، وبراءة رضا هلال التي وصلت إلى حد السذاجة، إلا بعد خطفه واختفائه الله يرحمه. وذكرت الأستاذ نجيب بعدها بهذا الحوار العجيب الذي تكلم فيه رضا وكأنه يعيش في كندا أو النمسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة وليس في دولة من دول

العالم الثالث، خاصة في مصر، حيث نظام الحاكم الفرعون مستقر ومستتب منذ آلاف السنين! وعرفت بعدها أن رضا هلال، كان يخرج من ندوة نجيب محفوظ، ليذهب إلى ندوات أخرى يتكلم فيها بحرية مطلقة سياسيًّا واجتماعيًّا وفنيًّا، كأنه يعيش في مجتمع متفتح وليبرالي لأقصى درجة، وكان يصطدم بالآراء المحافظة والتقليدية والمتخلفة، ويثير حفيظتها. وعندما كتب عن أرامل صدام حسين، وكتب يؤيد غزو العراق، على صفحات جريدة الأهرام، ثم سمعنا أنه يهاجم جمال مبارك في جلساته الخاصة، في قمة تجهيزه ليصبح وليًّا للعهد! فإذا أضفت إلى هذا كله، أن رضا - رحمه الله - لم يكن من عائلة كبيرة تحميه عند اللزوم، وتعمل لها الأجهزة والحكام حسابًا، مثل عائلة الأباظية مثلًا، فقد كان عبد الناصر يترفق بالمعارضين منهم، بل كان رضا - على ما أذكر - يتيمًا وله أخ واحد لم يكمل تعليمه. عندما ندرك هذا، نعرف لماذا كان من السهل على أي جهاز أجنبي أو محلي تصفيته جسديًّا دون أن يخشى أي عواقب! وقد حزن نجيب محفوظ على اختفائه، مثلنا جميعًا، فقد كان قد بدأ يحبه ويرتاح إلى وجوده بيننا.

د. عبد المنعم سعيد

أما الدكتور عبد المنعم سعيد، فقد بزغ نجمه في فترة بزوغ نجم الأستاذ رضا هلال نفسها، وقد أعجبت أيضًا بمقالات الدكتور عبد المنعم في الأهرام، فاتصلت به هاتفيًّا، وعرَّفته بنفسي، ودعوته إلى حضور ندوة الأستاذ نجيب يوم الأحد، فحضر. ولكن الدكتور عبد المنعم لم يستطع تحمُّل جو الندوة أكثر من مرة واحدة! فشخصية عبد المنعم سعيد، تختلف جذريًّا عن شخصية رضا هلال. فالدكتور عبد المنعم يشعرك على الفور أنك أمام أكاديمي هادئ يريد أن يلقي أو يستمع إلى محاضرة هادئة، أو منظمة في مدرج جامعي، عن موضوع محدد، ولم يكن مستعدًّا لتحمل مناقشات صاخبة مليئة بالحياة والحيوية والقفشات في مختلف الموضوعات والقضايا، سياسية كانت أم أدبية أم اجتماعية... إلخ. عكس زميله في الجريدة الأستاذ رضا هلال رحمه الله، الذي، كما ذكرت، اندمج بشكل طبيعي مع جو الندوة.

سر المخرج توفيق صالح

في ندوة شبرد، كان حاضرًا المخرج الكبير توفيق صالح وصديق الأستاذ منذ بداية ما يُعرف بالحرافيش. قلت لنجيب محفوظ: إنني بالرغم من سعادتي أن المخرج المصري يوسف شاهين حصل على جائزة من مهرجان كان السينمائي إنني استغربت أن يعطي المهرجان الدولي، جائزة لمجمل أعماله. وقلت للعبقري: إنني قرأت أن نقادًا فرنسيين، علقوا على فيلم "المصير"، بأنه يشبه الأفلام الهندية، حيث الرقص والغناء بمناسبة وبدون مناسبة! كما أن فيلم "نابليون" كان سيئًا، وفشل تمامًا عندما عُرض في فرنسا، فعقَّب الأستاذ توفيق صالح ضاحكًا، أن المخرج يوسف شاهين، لم يخلف موعدًا لمهرجان "كان" منذ نشأته، وكان يحمل بكرة فيلمه في بداياته ليذهب للمهرجان، على حد تعبير الأستاذ توفيق، لذلك كان لا بد، ذوقيًّا وسياسيًّا أن يعطونه جائزة عن مُجمل أعماله، خصوصًا أن عمره بات كبيرًا. والحقيقة التي ذكرتها مرارًا

أمام نجيب محفوظ، ولم يعترض عليها قط أنه في بداية الستينيات ظهرت موضة في بعض الأفلام الفرنسية بأن ينطق الممثلون والممثلات بصوت سريع ومنخفض، بحيث لا يسمعه المتفرج إلا بصعوبة بالغة! وهي طريقة يريد بها مخرج الفيلم الادعاء بأن فيلمه معقد وعميق. ولكن هذه الموضة فشلت تمامًا وماتت بسرعة، لعدم معقوليتها وعدم قابليتها للحياة، ففن السينما يختلف تمامًا عن فن الكتابة. فالكتاب ممكن أن تقرأه بين يديك مرة واثنتين وثلاثًا إذا لم تستوعبه من أول مرة، أما الفيلم السينمائي، فالمشاهد لن يذهب إلى دار العرض مرتين أو ثلاثًا إلا إذا أعجب بالفيلم فعلًا من أول مرة، أما إذا لم يفهمه فسوف يكره تمامًا الذهاب لرؤيته مرة أخرى. لذلك فشلت تمامًا - كما ذكرت - هذه الموضة التعسة. ولكن لسبب ما أُعجب الأستاذ يوسف شاهين بهذه الموضة وتمسك بها حتى النهاية! وزاد الطين بلة أن يوسف شاهين بدأ يعتقد بمرور الوقت أنه مفكر كبير. ومن ثم كانت كل أفلامه الأخيرة غير مسموعة أولًا، وفكرها متوسط القيمة ثانيًا، كل ذلك قلته، ولم يعترض العبقري على أي كلمة، بل كان يستمع باهتمام. ولو كان له رأي غير هذا لكان قد أعطى أي إشارة أو أي تعليق يعرف الجميع منه أنه يعترض أو غير موافق على ما يسمع، كما اعتدنا منه دائمًا. وقد اعترف بهذا حديثًا وقبل وفاته بمدة قصيرة، الفنان الكبير جميل راتب في حديث صحفي بإحدى الصحف، قائلًا إنه لم يُعجب بأفلام الأستاذ يوسف شاهين الأخيرة التي أخرجها بعد اعتقاده أنه أصبح مفكرًا كبيرًا. ونظرًا لأن شعوب

العالم الثالث مليئة بمدعي الثقافة وحب الاستعلاء، التف حول يوسف شاهين كثير من أدعياء النقد الذين خدعوه وخدعوا أنفسهم، ولكنهم لم يستطيعوا خداع أغلبية الشعب المصري. وما زالت أفلام صلاح أبو سيف، وهنري بركات، وعاطف سالم، وكمال الشيخ، وعز الدين ذو الفقار، وتوفيق صالح، وسعد عرفة، وحسن الإمام، وداوود عبد السيد، ومحمد خان، تقف شامخة بجانب أفلام يوسف شاهين الأولى الجيدة مثل باب الحديد، والناصر صلاح الدين، والأرض.. وقلت لنجيب محفوظ إن أي محاولة لخلق أسطورة المخرج الأوحد، مثلها مثل محاولات خلق أسطورة الزعيم الأوحد، سوف ينتهي مآلها إلى الفشل، "صح!" هكذا علَّق العبقري أخيرًا.

شخصيات جميلة ومتنوعة

حضر ندوة الأحد في شبرد عدة مرات الأديب والمفكر الليبي الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه، وهو شخصية محترمة إلى أقصى درجة، ووجه مشرف للثقافة الليبية، وكان تحفُّظه على حكم القذافي لبلده واضحًا، ولكنه كان يتحاشى ذكره، طبعًا، خوفًا من بطشه! وكنت أداعبه أمام الأستاذ بأن أذكر مدى ذكاء القذافي في الجلوس على سُدة الحكم في بلده كل هذه المدة، فكان يتميز غيظًا، ولكن لا يستطيع أن يتمادى في إظهار هذا الغيظ! ولكنه كان يكتب في جريدة الأهرام مربعًا غاية في الحكمة والقوة والشجاعة عن مدى أهمية الديمقراطية لبلداننا العربية.

وانضمَّ إلى ندوة شبرد في سنواتها الأخيرة الكاتب الصحفي إبراهيم عبد العزيز، مدير تحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون وقتها، وهو كاتب جاد وشخصية هادئة جميلة ومحترمة، يُذكِّرك بالصحفيين القدماء الأصلاء في

العهد الليبرالي، بالرغم من سنه الصغيرة نسبيًّا! وقد اكتسب بصفاته هذه ثقة كبار الكتاب والمفكرين المصريين، أمثال الأستاذ توفيق الحكيم والأستاذ أنيس منصور، وعائلة طه حسين، فأعطوه أوراقهم الشخصية وعصارة ذكرياتهم ليحتويها في كُتب قيمة، بالإضافة طبعًا إلى العبقري نجيب محفوظ الذي خصَّه بأحاديث وذكريات وضعها الأستاذ إبراهيم في أكثر من كتاب، وكان العبقري يحبُّه ويثق به.

كما كان يحضر أحيانًا الشاعر وأستاذ الفلسفة بجامعة أسيوط الدكتور نصار عبد الله في سوفوتيل المعادي أو شبرد كلما جاء إلى القاهرة، فقد كانت إقامته الدائمة - على ما أذكر - في أسيوط، وكنت أشعر بتقدير وحب نجيب محفوظ له، لشخصيته المعتدلة الصريحة والواضحة، فكان ينطلق في شرح أفكاره وآرائه بطلاقة دون أي افتعال أو ادعاء أو غرور.

وأذكر أن الفنان الكبير الرسام صلاح طاهر حضر إلى ندوة شبرد، ومعه ابنه أيمن الذي كان سائرًا على خطى والده في الفن، لكي يستأذنا العبقري في كتابة مقدمة لكتاب مصور أصدراه، وكانت الضحكة الصافية والنفس الرائقة هما ما لفت نظري في الأب وإبنه. ورحب العبقري طبعًا، وكتب المقدمة.

وقد أخبرني أيمن أن والده صلاح طاهر كان زميل تختة للعبقري في المدرسة الثانوية بالعباسية، وأن أخو نجيب محفوظ كان مدرسًا لهما بالمدرسة.

كما حضر ندوة شبرد عدة مرات الموسيقار سليم سحاب قائد أوركسترا فرقة الموسيقى العربية في عِز تألقها.

كما حضر ندوة شبرد، عدة مرات أيضًا، كاتبة وأديبة فلسطينية غاية في الرقة والأدب، للأسف لا أتذكر اسمها الآن!

الماركسيون وأحوالهم

وهناك موقف طريف يدل على مدى تغير المزاج والأحوال السياسية في مصر، بدءًا من عهد عبد الناصر، ومرورًا بعهد السادات إلى عهد حسني مبارك، وندوة نجيب محفوظ كانت صورة مصغرة من الوطن على مَرِّ زمانها، فقد حضر الأستاذ الماركسي محمود أمين العالم وزوجته في ندوة الأحد بشبرد، أيام عهد حسني مبارك، وجلس الأستاذ أمين العالم بجانب نجيب محفوظ، وبدأت أنا أتكلم عن مكانة الأستاذ محمود أمين العالم كأحد أبرز النقاد الذين وضحوا لأمثالي من الشباب أيام الستينيات مواطن الجمال في روايات نجيب محفوظ، مع رجاء النقاش وغالي شكري وغيرهم. وكان الأستاذ أمين العالم يبتسم في حياء وهدوء، وأنا أتكلم عنه، ثم أردفت قائلًا: إن اختلاف التوجهات السياسية، لا يفسد للود قضية، فعقب الأستاذ العالم قائلًا بابتسامة هادئة كصوته: مفيش اختلاف ولا حاجة، كلنا إخوة. كان

الأستاذ أمين معتادًا حضور الندوة أيام قهوة ريش في عهد عبد الناصر، حيث كان كل الحضور إما ناصريين أو ماركسيين، فظنَّ أن الندوة ما زالت كذلك! ومن ثم كان يظنُّ أن الكل فيها آراؤهم متشابهة أو متطابقة كالعادة، وأن الاختلاف سيكون شكليًّا أو بسيطًا! ولكن ما إن بدأ الحديث عن عبقرية السادات في الحرب والسلام، والحرية النسبية في عهده، والدكتاتورية وهزيمة يونيو في عهد عبد الناصر، حتى فوجئنا بالأستاذ محمود أمين ينتفض كمن لدغته عقربًا، ويتغير لون وجهه إلى الأحمر، وذهبت فجأة الوداعة والرقة والهدوء، وارتفع صوته غاضبًا قائلًا: "الكلام ده خيانة"!، ثم هبَّ واقفًا مع زوجته، وانسحب فورًا بعد أن ودَّع نجيب محفوظ باقتضاب ملحوظ. ولم يهتم العبقري إطلاقًا بما حدث، وتركه يذهب دون أية تحية من جانبه. وأدركتُ ساعتها أن الماركسي، مهما يبدُ مهذبًا وهادئًا، فلا يمكن أن يغير جلده أو طبعه، لا يمكن أن يقبل الحوار الديمقراطي، فالماركسيون – مثلهم مثل المتطرفين الدينيين – مستعدون، من أجل دينهم لقتل أي خصوم. والظاهر أن العبقري أدرك هذا قبلنا بكثير.

وحضرت إلى ندوة شبرد ذات أحد، فوجدت الأستاذة صافيناز كاظم الصحفية الشهيرة، التي كانت قد تحوَّلت من كاتبة ماركسية متطرفة إلى كاتبة إسلامية متطرفة، بعد سقوط الماركسية طبعًا! ومعها ابنتها. وعند استئذان صافيناز كاظم، من العبقري للانصراف، وقفت أمامه ثم انحنت قليلًا عليه

حتى يمكنه سماعها قائلة: "أنا ماشية يا أستاذ نجيب"، ثم تضيف لدهشتنا ودهشة الأستاذ، قائلة "أنا مش بأسلم بالأيدي يا أستاذ" تقصد أنها لن تسلم عليه باليد. نظر إليها نجيب الذي يبلغ من العمر فوق التسعين عامًا، دون أن ينطق بكلمة واحدة، فأعادت عليه هذه الجملة العجيبة بإصرار: "أنا مابسلمش على إيد حد يا أستاذ نجيب"! كنا مندهشين، وإذا بالأستاذ نجيب أيضًا لا يرد. فتعيد عليه هذه الكلمات العجيبة مرة ثالثة: "أنا مش بأسلم باليد يا نجيب بك". شيء مذهل، فرفع العبقري رأسه ووجهه ممتقع من الغضب قائلًا لها: "أه" فقط. وانصرفت بعدها صافيناز كاظم. وقلت لنجيب محفوظ بعد ذهابها وأنا مندهش: "يا نجيب بك، الواحد شاف وسمع عن بنات كثير، بتكون فرحانة بدخولها في موجة التطرف السائدة وبتستعرض فرحتها بأن تقول لأقربائها من الشباب والرجال" أنا مش هاسلم باليد"، وهو تصرف مفهوم، ويمكن تبريره، لأن الشاب أو الرجل قد يشتهي الفتاة، وقد يحاول أن يغازلها مثلًا. أما أن تأتي سيدة في الستين عامًا من عمرها، لتقول لرجل في التسعين من عمره: "أنا مش هاسلم عليك باليد"، فهذا مالم نشاهده أو نسمع عنه من قبل! وعندما يكون الرجل هو الأستاذ نجيب محفوظ، وهو جالس وسط تلاميذه ومحبيه، وتكون هذه السيدة هي ناقدة أدبية كانت ماركسية حتى النخاع، عندئذ يكون المشهد كله مشهدًا عبثيًّا! وهز نجيب محفوظ رأسه متعجبًا، ووجهه ما زال مكفهرًا.

كما ذكرت للعبقري عدة مرات أن اقتناعي كامل بأن أغلبية المثقفين المصريين إما ناصريون مستبدون وإما ينتمون إلى تيار ديني مستبد أيضًا، ومعظمهم لا يدرك ذلك! وإنما تظهر هذه الصفات عندما تضعهم الظروف والأحداث تحت الاختبار. وتلوتُ على نجيب محفوظ مقالًا كانت جريدة الوفد قد نشرته لأستاذ مشهور من أساتذة علم النفس في مصر بخصوص الوفاة الغامضة للفنانة سعاد حسني في يونيو ٢٠٠١، وإذا بهذا الأستاذ الشهير يكتب في نهاية المقال "أن سعاد حسني كانت منحلة وعاهرة!" ولم يكن معروفًا عن هذا الأستاذ أنه إخواني أو متطرف، ولكن كما ذكرت، في أعماق معظمنا تكمن إما الدكتاتورية أو التطرف الديني، وكان هذا الرجل من معارف العبقري. وأستمع نجيب محفوظ إلى قراءتي للمقال دون تعليق طبعًا.

في إحدى ندوات شبرد، ذكر العبقري رأيًا للأديب يوسف القعيد كان قد قاله في الندوة التي تجمعهم مع الغيطاني والأبنودي، خاصًّا بقضايا الحرية وحقوق الإنسان. ووجدت هذا الرأي يتفق تمامًا مع رأي الأحرار أو الليبراليين، فقلت للأستاذ نجيب، على سبيل الدعابة، أن يعرض على يوسف، عندما يتقابل معه، أن يترك الناصرية وينضم إلى الأحرار! وفوجئت في الندوة التالية بالأستاذ نجيب يخبرني وهو يبتسم، فور جلوسي بجانبه، أنه نقل اقتراحي إلى يوسف القعيد، وأنه، أي يوسف، ابتسم ولم يعلق. والحقيقة أن الأستاذ يوسف القعيد من الشخصيات التي تتمتع بالتهذيب والهدوء، وكنت فعلًا أتمنى لو كان من الليبراليين، لكنه ناصري حتى النخاع!

(خيرًا تعمل شرًّا تلقى) !

وكأي ندوات يجتمع فيها رجال ونساء، لا بد أن تحدث عن مواقف وحكايات درامية مثيرة لا يعرف عنها العبقري شيئًا إلا قليلًا، أو لا يعرفها بتاتًا! وقد كنت طرفًا بعيدًا في إحدى هذه الحكايات التي حدثت، والتي تحمل طابعًا اجتماعيًّا وروائيًّا، أي تصلح أن تكون رواية سينمائية! وأصل الحكاية أنه بعد أن تعرض العبقري لمحاولة الاغتيال، وكما ذكرتُ أوصى الأمن المكلف بحراسته بألا تكون ندوته في مكان مكشوف مثل كازينو قصر النيل، وبدأ نجيب محفوظ يغير من مكان ندوته الثابت، وينتقل بنا من مكان إلى مكان مغلق يختلف باختلاف الأيام. بدأت وجوه جديدة تأتي إلى الندوة بدافع الفضول أحيانًا، والتسلية أحيانًا أخرى، وللتعرف إلى الرجل الذي حصل على جائزة نوبل، وأصبحت شهرته تجوب الآفاق، خصوصًا بعد محاولة الاغتيال. من ضمن هذه الوجوه سيدة محترمة على قدر كبير من

الجمال، ومن عائلة محترمة، وتشغل منصبًا محترمًا، وفي الوقت ذاته حضر إلى الندوة رجل بسيط الحال من عائلة متواضعة، وعلى قدر كبير من الدمامة، وكان ماركسيًّا بالمناسبة.

وتمرُّ الأيام والشهور، وفي ندوة من ندوات المعادي، وعندما استأذن الأستاذ نجيب في الذهاب إلى دورة المياه مستندًا إلى ذراع أحد الحضور كالمعتاد، وجلسنا جميعًا منتظرين عودته، وإذا بهذه السيدة المحترمة توجِّه الحديث إلينا جميعًا وبصوت مرتفع قائلة: "عيب جدًّا ومزعج جدًّا لها أن أحد الحاضرين من الرجال أرسل إليها نحو سبع رسائل متتالية على عنوان مكتبها يبثُّها هيامه وإعجابه وحبه!" ونظر كل منا إلى الآخر ونحن نتعجب: من هذا الرجل؟ وإذا به هو الرجل البسيط الماركسي، الذي احمر وجهه وأخذ يتمتم بصوت خفيض أنا آسف..أنا آسف. تكهرب الجو وحاولنا تهدئتها وطيبنا خاطرها ووعدناها أن هذا الامر لن يتكرر، وصمت الرجل بعدها تمامًا ووجهه احمَّر من شدة الإحراج. وجاء العبقري ولم يقل له أحد شيئًا!

وبعد أن انتهت الندوة، فوجئت بأن هذا الرجل يطلب مني بتوسل لم أعهده فيه من قبل، فهو كونه ماركسيًّا كان يبغضني أشد البغض، فوجئتُ بأنه يطلب مني الجلوس معه في أي مكان؛ لأنه يريد أن يفضفض ليخفف عن نفسه عناء الموقف! وحتى هذه اللحظة لا أدري لماذا اختارني أنا خاصة لكي (يُفضفض) معي عن مشاعره؟! ربما لأني كنت مقربًا جدًّا من نجيب

محفوظ، فأراد أن يحمي نفسه من غضبه في حال إذا وصلت الحكاية إلى مسامعه أو إذا اشتكت له هذه السيدة. المهم أنه ظل بعد كل ندوة ومدة ثلاث مراتٍ أو أربع متتالية يجلس معي في فندق وندسور لكي يفضض معي عن مشاعره وحبه لهذه السيدة الجميلة، ويسألني: لماذا تعامله هكذا؟ ولماذا لا تبادله المشاعر؟! وطبعًا كنت أواسيه، وأتعلل له بحجج واهية كيلا أصدم مشاعره أو أجرحه. فقد كان واضحًا تمامًا أن ظروف هذا المسكين بالمقارنة بظروف هذه السيدة تجعلها من كوكب آخر بالنسبة له! فقد كانت تملك المال والجمال والعائلة والمركز، وكان هو بلا مال ولا وسامة ولا عائلة ولا مركز! والظاهر أنه، وبعد مرور عدة أشهر على هذه الحادثة، هاله أنه قد أفضى بمكنون نفسه وكشف مشاعره وضعفه إلى ليبرالي مثلي كان يبادله العداء في الندوة، فازداد بُغضه لي إلى درجة أني فجأة – وبدون أي مقدمات – وجدت هذا التعس يتهجم عليَّ بكلمات مهينة أمام الجميع في ندوة شبرد! وسألت نفسي: هل أغفر له هذا التصرف وأعذره لظروفه التعسة؟ وقررت فعلًا أن أغفر له وأعذره، فلم أرد على إهاناته وقتها. وفي الندوة التالية بشبرد فوجئت أنه قد فهم صمتي على تصرفه السابق على أنه ضعف مني، وحاول أن يكرر إهانتي، ولكني لم أكن لأسمح له بهذا التهريج مرة أخرى، فعنَّفته أمام الجميع، وقلت له صراحة: إنني سأضربه بالحذاء إذا كرر وقاحته مرة أخرى، فغادر الندوة فورًا. وطبعًا لم يكن أحد يدري أن هذا التعس كان يجلس معي بعد الندوة لكي يفضفض عن مشاعره تجاه هذه السيدة، باستثناء الأستاذ

أحمد فهمي الذي كان حاضرًا في إحدى جلسات الفضفضة! وعندما نما إلى سمع العبقري، دون أن يدري شيئًا عن خلفيات الموضوع، أن هذا الماركسي لم يعد يأتي إلى الندوة بسبب ما حدث بيني وبينه من صدام، طلب مني أن أطلبه هاتفيًّا، أخبرته بعدها أن تليفونه لا يرد، وانتهى الموضوع بعدها تمامًا من ذهني وذهن نجيب محفوظ.

وكان للعبقري قفشاته الذكية اللاذعة عندما يشعر بالضجر أو الملل من ثرثرة محدثه، وشاهدنا واقعة طريفة له مع الرجل الماركسي الذي رويت حادثته مع السيدة الجميلة قبل قليل. فقد اعتاد هذا الرجل أن يشغل الأستاذ نجيب والندوة أحيانًا بتفاصيل تافهة عن حياته اليومية البسيطة، وفي ندوة من ندوات المعادي جلس هذا الرجل بجوار نجيب محفوظ، واستغرق في شرح تفاصيل مجادلته سائق التاكسي الذي أقله للندوة بخصوص الأجرة! فالسائق طلب مبلغًا نظير التوصيلة، لكن صاحبنا أصرَّ على مبلغ أقل، واستمرَّ صاحبنا في إضجار الأستاذ نجيب بثرثرته الفارغة عن حواره مع سائق التاكسي، والأستاذ صامت حتى انتهى صاحبنا من حديثه، وقال للأستاذ: "إسمح لي يا نجيب بك أن أحكي لك نكتة"، وإذا بالأستاذ بخفة دم وسرعة بديهة يردُّ عليه قائلًا: "أمال إللى إنت كنت بتحكيه ده إيه؟! وانفجر الجميع في الضحك.

لمحات من شخصيته وآرائه

اتَّقِ غضب الحليم

كان الأستاذ لا يتطفل على شؤون أحد، ولا يُطيق أن يجرح أي إنسان مهما يصغر شأنه، ومن ثم لا يتصور ولا يطيق أن يتطفل عليه أحد أو يجرحه. أتى إلى ندوة قصر النيل كاتب يساري هو الأستاذ محمد عطية، وكان قد أصدر كُتيبًا هاجم فيه معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، واتهم مؤيديها بأنهم عملاء للاستعمار، وغيرها من الاتهامات المعتادة التي يطلقها الشيوعيون والناصريون على كل من يخالفهم آراءهم، وكان الأستاذ من المؤيدين للسلام مع إسرائيل، وما إن فتح محمد عطية فمه ليناقش الأستاذ نجيب، إذا بالأستاذ نجيب ينتفض من فوق مقعده، وكان قد قرأ الكُتيب، وصرخ بصوتٍ كالرعد في وجه الأستاذ محمد عطية قائلًا له وهو يمد ذراعه أمامه: "مش قبل أن تشتمني تفهم أنا بأقول إيه!"، ووجم كل من في الندوة، وتمتم محمد عطية وهو (مخضوض) قائلًا: "العفو.. العفو يا أستاذ". وكانت هذه أول مرة أكتشف فيها هذا الجانب العنيف من شخصية نجيب محفوظ!

والمرة الثانية كانت على لسان الشاعر عبد الله الوكيل، فقد حكى لي في أثناء زيارته إلى القاهرة، وفي أثناء سيرنا بجوار مقر حزب الوفد بحي الدقي،

أنه ظنَّ لصداقته مع نجيب محفوظ ومرافقته له الدائمة بالإسكندرية، أنه يمكنه رفع الكُلفة ومفاجأته بزيارة ودية في القاهرة، فذهب إليه يومًا ما في الصباح الباكر إلى قهوة في ميدان التحرير، كان الأستاذ، في صحته، يذهب إليها يوميًّا ليقرأ جرائده، وفوجئ عبد الله بأن الأستاذ يخبره بصوت صارم وعال أن هذا الوقت مخصص لنفسه وليس لأصدقائه، وأنه إذا أراد مقابلته فليأخذ موعدًا مسبقًا، أما أن (يطب) عليه هكذا، فهذا مرفوض تمامًا، وانسحب عبد الله وهو في "نص هدومه".

والمرة الثالثة كانت معي شخصيًّا، فقد تصادف أن الأستاذ نجيب قد صرح في حديث له بمجلة آخر ساعة في ٣٠ ديسمبر ١٩٩٢، أنه لا يرى أي تناقض أو اختلاف بين أهداف حزب الوفد وبين أهداف الحزب الوطني الحاكم، وأنه أحرى بحزب الوفد أن يتحالف مع الحزب الوطني، وأن الوفد لم يعد لديه ما يطالب به اليومِ سوى الديمقراطية!!!.. طبعًا كلام فيه استخفاف واضح بالديمقراطية أولًا ثم بحزب الوفد ثانيًا!. ومِن مَن؟! من عاشق الوفد القديم نجيب محفوظ!. وكنت وقتها في قمة إيماني وتعصبي للديمقراطية كما كنت، أيضًا أشاور عقلي وقتها في الانضمام إلى حزب الوفد، فوجدتها فرصة أن أنشر أول مقال لي في جريدة الوفد أنتقد فيه كلام الأستاذ، وبالفعل نشرت جريدة الوفد مقالي بعنوان "لا يا أستاذ نجيب". وذهبت بعدها إلى الندوة، ولحظي العاثر تغيَّب يومها الأستاذ مصطفى أبو النصر، ووجدت نفسي جالسًا مكانه في مواجهة الأستاذ مباشرة، ولحظي العاثر أيضًا أن الدكتور فتحي هاشم كان قد أخبر الأستاذ نجيب بتفاصيل المقال في أثناء قيامه بتوصيله إلى الندوة بسيارته الخاصة، ولم أكن أعرف هذا

بالطبع. وعندما بدأتُ أذكر تفاصيل المقال للأستاذ، فوجئت بوجهه يكفهر، وبصوت كالرعد يصرخ قائلًا: "فين الأستاذ مصطفى؟! أين هو؟!" وطبعًا خرست بعدها ولم أنطق لحظات، ثم غيرت الموضوع. وكان درسًا قاسيًا لي في الندوة. قد يقول قائل: إن هذا التصرف من الأستاذ يدل على عدم تحمله النقدَ، وهي وجهة نظر تُحترم، ولكن من حقه أيضًا أن يرتاح نفسيًّا وذهنيًّا في ندوته الخاصة دون أن يعكر صفوه أي نقد له.

ومن الطريف أنه بمرور السنين، وبعد التحاقي بحزب الوفد، أدركتُ كم كان الأستاذ مُصيبًا في رأيه. فلم يكن هناك فرق يُذكر بين رجال الوفد ورجال الحزب الوطني، فقد اتضح لي أنه في مصرنا العزيزة، أحمد مثل الأستاذ أحمد مثل الحاج أحمد، كما يقول المثل! وأن الشعب المصري - لظروف تاريخية ساحقة - لا يعرف الحزبية بمعناها الغربي، وكنت عندما أُبلِغ احتجاجي فؤاد باشا سراج الدين - بعد التحاقي بالوفد- أن جريدة الوفد تنشر لفلان الشيوعي أو علان الإخوان أو ترتان الناصري، وهوما يتعارض مع مبادئ الوفد الليبرالية، كان فؤاد باشا يرد عليَّ بأن حزب الوفد جبهة تضم جميع الاتجاهات! والحقيقة التاريخية أن الوفد نشأ كجبهة ليواجه الإنجليز المحتلين، وليس ليمارس حياة حزبية بالمعنى الحقيقي للحزبية! وكانت أي شخصية، مهما تعلُ ومهما تكن وطنيتها، تنشق على قيادات الحزب وتريد أن تكون حزبًا آخر، كان يتم اتهامها على الفور بأنها عميلة للقصر والإنجليز! وتدور السنوات في معية نجيب محفوظ، لتؤكد لي، أنه في أغلب الحوارات والمجادلات معي ومع غيري كان رأي الأستاذ هو الأقرب إلى الصواب والحكمة.

الحذرواجب

كان نجيب محفوظ يعشق زعامة سعد زغلول ومصطفى النحاس، عشقه لثورة ١٩١٩ . كان عندما يتذكر أو يتحدث عن ثورة ١٩ وعن زعيمها سعد كانت الحماسة والحيوية تدبان في أوصاله، وكنا نشعر دائماً بأنه يعشق سعدًا والنحاس دون أية ضغوط أو مجاملات، أما إذا جاء ذكر ثورة ١٩٥٢ وجمال عبد الناصر، فلا تشعر أبدًا أنه يتحدث عنهما بالحرارة والتلقائية نفسهما، فهو ابن ثورة ١٩١٩، بلا جدال. وكنا نتيقن من مشاعره هذه عندما كان يشرح لنا كيف أنه بُهت وذهل عندما جاء في امتحان للطلبة في إحدى مراحل التعليم الثانوي أو الإعدادي، وبعد أن استتب الأمر لقادة ثورة ١٩٥٢، سؤال يقول: "اشرح أسباب فشل ثورة ١٩١٩ "فشل؟! يا نهار أسود"، هكذا نطق نجيب محفوظ، وهو يبتسم بسخرية. كان يعتبر سؤالًا كهذا دلالة على جهل مُطبِق. فكل تطور وتقدم حدث في حياة مصر الحديثة جاء نتيجة ثورة ١٩، هكذا يقول نجيب محفوظ دائماً. وقد كان شيئًا لافتًا تمامًا، حرص نجيب محفوظ

على أن يوضِّح لنا بالتفصيل أن جنازة سعد زغلول كانت عفوية وأكبر من جنازة عبد الناصر! فلم توجد وقت وفاة سعد وسائل المعرفة والاتصال مثل التليفزيون. ولكن محفوظًا كان يدرك تمامًا أنه محاط من كل جانب بالناصريين والماركسيين الذين لولا فنه العظيم وتواضُعه وحنكته لمزقوه إربًا، وكان كل نقاد الأدب، وكل رؤساء صفحات الأدب والفن، وكل رؤساء المجلات الأدبية والفنية إما ناصريين أو ماركسيين. فكان عليه أن يكون شديد الحذر، خصوصًا أنه يستفيد منهم لأقصى درجة في ترويج فنِّه العظيم ونشره، وهم أيضًا يستفيدون من الكتابة عنه في كتب ومجلات، بالإضافة إلى ذلك، لم يكن هناك أي تيار ليبرالي حقيقي في مصر يمكن أن يستند إليه الأستاذ أو يحتمي به، لو أراد أن يواجه هؤلاء أو يتحداهم. وأظنُّ أن هذه النقطة بالذات من العوامل المهمة التي جعلت العبقري يتمسك بصداقتي إلى أقصى حد، فقد كنتُ الليبرالي الوحيد تقريبًا الذي يستطيع العبقري أن يرتكن إليه، أمام هذه الجحافل الوحشية!

وعندما قررتُ أن ألتحق بحزب الوفد عام ١٩٩٣، سألتُ نجيب محفوظ عن رأيه، فأجابني متحمِّسا: "إن الحياة الحزبية حياة كاملة". وبعد أن التحقت بالحزب، كان مهتمًّا بعدها بأن يعرف تفاصيل الحياة الحزبية كما شاهدتُها، وكنت أحكي له، في جلستنا الخاصة، ما أجده يستحق الذكر من أحداث داخل الحزب. كان رأيه - وهذا طبيعي لأنه يعشق سعدًا والنحاس - أن الموجودين في الحزب أقل قيمة بكثير من الزعماء التاريخيين له. وبعد

أن توثقت علاقتي بإبراهيم باشا فرج القطب الوفد المعروف، بعد انضمامي إلى الحزب. أبلغني سؤالًا محددًا لأوجِّهه إلى الأستاذ نجيب في الندوة وهو: "لماذا ينتهي مصير الغالبية العظمى من النساء في رواياته نهاية سيئة"؟! ورد نجيب محفوظ على السؤال متعجبًا: "ألا يدرك إبراهيم باشا مدى الظلم والواقع المرير الذي تعيشه المرأة في بلادنا؟!" والجدير بالذكر أنني كنتُ أحكي للعبقري كل حادثة بشعة تنشرها جرائدنا وتروح ضحيتها امرأة أو فتاة مصرية على يد زوج أو أخ أو أب بسبب ما يُطلق عليها جرائم الشرف.

في معرض المناقشات عن القيود والقوانين واللوائح التي كانت تكبل إدارة الشركات والمصانع سواء التي يديرها القطاع العام أو التي يمتلكها القطاع الخاص في مصر، اقترحت أنا، في ندوة قصر النيل، أن تُلغى هذه القيود، وأن تُعطى إدارات هذه الشركات حرية مجازاة المهمل والمتكاسل، ومكافأة المجتهد، كما يحدث في دول الحضارة الحديثة (وهو تعبير نجيب محفوظ عن الدول المتقدمة)، وأن على أفراد الشعب العامل (كما كان يطلق عليهم في الأنظمة الشيوعية والاشتراكية ومن بينها مصر) أن يتعلموا أن أكل العيش أهمُّ شيء في حياتهم حتى لو تعارض مع كرامتهم التي أحيانًا يخلطون بينها وبين التعالي عن العمل، وعدم اتباع أوامر الرؤساء، ولكن الأستاذ نجيب رفض تمامًا أن يتخلى أي موظف أو عامل عن كرامته في معرض الحديث عن العمل، وقال: "إن كرامة الإنسان فوق أي اعتبار آخر"، وكان اعتراض العبقري أو موافقته على أي رأي يقال أمامه، كان يظهر فورًا

على ملامحه، بالرغم من النظارة السميكة التي كانت تغطي وجهه، وقبل أن يفتح فمه بكلمة واحدة!

وقد حكيت للأستاذ نجيب في ندوة قصر النيل واقعة ذات مغزى عن نهرو تلميذ المهاتما غاندي (غاندي يعد بحق أعظم وأحكم زعماء العصر الحديث) والذي تولى حكم الهند بعد اغتيال أستاذه. فقد سأله الشيوعيون الهنود لماذا لا يؤمم أملاك ومصانع أربعة مليون رأسمالي هندي، وقالوا له ما قيمة أربعة ملايين وسط شعب الهند الذي يبلغ (وقتها) ربعمائة مليون هندي؟ رد نهرو قائلًا: "الأربعة ملايين رأسمالي هم الأعمدة التي تحمل السقف فوق رؤوس الأربعمائة مليون هندي!!، فإذا حطمت هذه الأعمدة سينهار سقف الهند فوق رؤوس شعبها!. وظهر على وجه نجيب محفوظ الاهتمام. وقد حكيت للعبقري بعدها ما ذكره الأستاذ محمد حسنين هيكل عن عبدالناصر ونهرو ومعهما سوكارنو عندما كانوا جميعًا في مركب في أسوان أو يوغسلافيا، لا أتذكر بالضبط، وران نهرو ببصره إلى الأفق البعيد وقال لزميليه متسائلًا: ترى كيف سيحكم علينا التاريخ في المستقبل؟ فقال له عبدالناصر ساخرًا: بس خلينا في حالنا دلوقت وسيبك من التاريخ والكلام ده!!. طبعًا ذكر هيكل هذا الحوار وهو يدري أو لا يدري، الله أعلم، بأنه يجسد فارق الثقافة والحكمة بين الزعيمين الكبيرين. وابتسم نجيب محفوظ ابتسامته الساخرة وهو يستمع لهذا الحوار.

الممثل نجيب محفوظ!

وأتذكر عندما كان التلفزيون يعرض حلقات تسجيلية وثائقية رائعة عن الحرب العالمية الثانية بعنوان "العالم في حرب"، وقلت للأستاذ وللحاضرين، في ندوة قصر النيل، إن أدولف هتلر ديكتاتور ألمانيا النازية، وهو يزأر بصوت كالرعد أمام الميكروفون في الجماهير الألمانية المتحمسة، والتي كانت تعبده، قام بحركة عجيبة في تأثيرها، ووقفت لكي أشرح للجميع الحركة، وإذا بالأستاذ نجيب يُذهلني بأن حرَّك يديه ولفَّهما حول بعضهما البعض دون أن يضمهما، ورفعهما أمام وجهه، ثم رفع وجهه للسماء، بالضبط كما فعلها هتلر! كل هذا في ثوانٍ معدودة، وقال لي مبتسماً: "الحركة دي؟" فقلت له وأنا منبهر: "بالضبط يا نجيب بك"، وأدركتُ أنه كان يتابع هذه الحلقات، وأن هذه الحركة التمثيلية، لفتت نظره كما لفتت نظري. والظاهر أن بصره كان ما زال بخير نسبيًّا، بحيث كان يتابع ما يهمه على الشاشة. وعندما قلت لنجيب محفوظ وللحاضرين إنني

بالرغم من عدم معرفتي بأي كلمة ألمانية، فإنني شعرتُ بقُشعريرة في جسمي وأنا أستمع إلى صوت هتلر، فما بالك بالشعب الألماني؟ لا بد أن تأثيره كان كالسحر في شعبه. علق الأستاذ نجيب قائلًا: "إن الأستاذ عباس العقاد كان قد ذكر الرأي نفسه، مؤكدًا أن صوت هتلر عندما استمع اليه في جهاز الراديو، أحسَّ بأن تأثيره غير عادي".

والمطرب نجيب محفوظ!

قلما كان نجيب محفوظ يذكر أهل المغنى في ندوته سواء بالسلب أو الإيجاب إلا عندما يسأله أحد. ولكنه مرة واحدة وفي لحظة تجلٍّ، في ندوة قصر النيل، وعندما ذكرت أن الأغاني الغربية التي أسمعها هذه الأيام أصبحت تحتوي على ألفاظ خارجة عن الآداب العامة، وأنه لو غناها هنا في مصر أحد المطربين أو المطربات لقُبض عليه أو عليها فورًا، فوجئنا جميعًا بأن الأستاذ نجيب بدأ يذكر لنا كلمات أغانٍ قديمة كانت تُغنى أيام شبابه في الحفلات على يد مطربين ومطربات مصريات، وتحتوي على ألفاظ خارجة لأقصى درجة! والمذهل أنه أخذ يغني بعض المقاطع البذيئة بنفسه، وهو يهز رأسه مبتهجًا! وكان يوجد في الندوة سيدات! والحقيقة أن صوته كان نشازًا في الغناء، وكانت أول وآخر مرة أستمع فيها إلى العبقري وهو يغني.

دفاع عن الطبقية من الاشتراكي محفوظ !

وقد فاجأني يومًا الأستاذ نجيب، في ندوة قصر النيل، بموقفه - وهو الاشتراكي الأصيل - من الطبقية الواضحة التي كانت في فترة من الفترات تفصل بين أفراد الشعب البريطاني. والحكاية أن التلفزيون المصري كان يعرض على شاشته مسلسلًا بريطانيًّا شهيرًا، اسمه " إللي فوق وإللي تحت" ' [illegible]، ويحكي المسلسل الممتع حكايات أفراد عائلة من الطبقة الأرستقراطية في بريطانيا، في فترة بدايات وحتى ثلاثينيات القرن الماضي، تسكن في قصر، طبعًا في الدور العلوي، وتتقاطع معها حكايات أفراد من الطبقة العاملة من الخدم والحشم التي تخدم الطبقة الأرستقراطية وتعيش في الطابق السفلي (البدروم) من القصر. وعندما استغربت أمام العبقري كيف أن الطبقة العاملة من الخدم والحشم في هذه الفترة من التاريخ كانت مستسلمة تمامًا لمصيرها المحتوم، وهو أن تكون في عالم آخر، لا تجرؤ

أن تخترقه لتتعامل مع الطبقة الأرستقراطية معاملة الند للند، وأن الولايات المتحدة كانت قد تخطت هذه المرحلة من الرأسمالية، حيث لا يوجد فيها هذه الطبقية العنيفة، فلا يوجد بها لورد أو دوق أو غيرها من الألقاب التي تُفرق بين أفراد الشعب. فاجأني الأستاذ نجيب محفوظ بالاعتراض على كلامي، وبالدفاع المستميت عن الشعب البريطاني، وأنه لا يمارس هذه الطبقية بغرض الاستعلاء أو تحقير الطبقة العاملة، وإنما هي عادات وتقاليد اعتادها الشعب! وعندما حاولت مناقشته، أعاد كلامه بإصرار وحدة، فسكتُّ!

والحقيقة التي كنت أومن بها وأذكرها دائماً أمام نجيب محفوظ في أوقات أخرى، هو أن الأحزاب الشيوعية في فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي كانت شديدة القوة والتأثير في دول أوروبا الغربية، وعلى رأسها فرنسا وإيطاليا، بالإضافة إلى أن حزب العمال البريطاني كان اشتراكيًّا حتى النخاع. وأنه لولا الرأسمالية الجديدة في أمريكا والتي لا تعترف – كما ذكرت – بالألقاب الأوربية من ملك ودوق وكونت وماركيز ولورد وغيرها، والتي قضت إلى حد كبير على صراع الطبقات، ما تمكَّن العامل الأمريكي من أن يتحول إلى مليونير، وأن يصل إلى أعلى درجات المجتمع دون عوائق، والعكس صحيح، وأنه في كل الأحوال يحصل على الاحترام الكامل، وعلى الحرية السياسية الكاملة، ومن ثم أعطت قبلة الحياة للرأسمالية، وأظهرتها في صورة جديدة مبهرة وحديثة أمام شعوب العالم. لولا هذا لكانت الشيوعية قد انتصرت انتصارًا نهائيًّا في دول أوروبا الغربية كلها!

قسوة ومرض

عندما حدثت واقعة سقوط فنانة مغربية من شرفة شقة الملحن بليغ حمدي عام ١٩٨٤، وكانت برفقة أمير عربي، استيقظ بليغ حمدي ليكتشف أن الأمير العربي قد غادر مصر وتركه في هذه المصيبة وحده، استعان بليغ، الذي فوجئ بالحادثة، بمشورة جاره المستشار بالقضاء، وسافر بليغ حمدي إلى باريس خوفًا من المساءلة الجنائية عن الحادثة، كتب الأستاذ نجيب حينذاك في مقاله بالأهرام يندد فيها بالحادثة، ويهاجم جميع من كانوا بالشقة، ويصور الحادثة بطريقته الروائية، مصوِّرًا إياها رمزًا للفساد، ومؤامرة للتغطية على جريمة قتل، وعندما ناقشته في الندوة أن بليغ حمدي لا ناقة له ولا جمل فيما حدث، وأن الفنانين في كل أنحاء العالم يقيمون الحفلات في مقراتهم، شعرت ساعتها بالجانب القاسي في شخصية نجيب محفوظ، واصطفَّ جميع حضور الندوة، وأخذوا جانب الأستاذ نجيب في إدانة بليغ، ولكني في الحقيقة لم

أهتم مطلقًا، ووقفت أدافع بكل قوة عن بليغ حمدي وعبقريته التي لا يمكن لحادثة مثل هذه أن تطمرها أو تمحوها، فبليغ حمدي، وقتها كان يلحن أعذب الألحان للغالبية العظمى من مطربي مصر ومطرباتها! واستمع الأستاذ للرأي الآخر بكل أريحية وديمقراطية كعادته.

في ندوة من ندوات قصر النيل، وجدنا نجيب محفوظ صامتًا تمامًا على غير العادة. عرفنا جميعًا بعدها أنه كان متوجعًا إلى درجة كبيرة، واحتاج الأمر إلى إجراء عملية جراحية، فأرسلته جريدة الأهرام لإجرائها في لندن، عاد بعدها معافًى إلى مصر. وعندما سألته: ما الذي أعجبه في لندن؟ ضحك قائلًا: "من المطار للمستشفى ومن المستشفى للمطار"، أي لم يكن هناك وقت ليتمتع بأي زيارات سياحية، والظاهر أن العملية كانت ناجحة إلى أقصى درجة؛ لأنه قال لنا بطريقته الجميلة الساخرة، إنه صحا يومًا وسألهم: "متى العملية؟ فقالوا له: إتعملت خلاص!" وقد سمح له الأطباء بتدخين ثلاث سجائر يوميًّا، رفعها هو من نفسه إلى ستة!

ما قَلَّ ودلَّ

كره نجيب محفوظ من أعماق قلبه وعقله حالة اللاحرب واللاسلم؛ لذلك كان من المؤيدين لاتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية، وكلما جاء زائر للندوة سواء أكان صحفيًّا أم أكاديميًّا أم غيره، وسأله عن سبب تأييده للسلام مع إسرائيل، كان أول ردٍّ ينطق به العبقري، وفورًا وبدون تردد، هو أن الشعوب إما أن تحارب أو تسالم، وأن أسوأ ما يمكن أن يحدث لأمةٍ أو لشعب هي حالة اللاحرب واللاسلم، فهي تعوق التنمية والتقدم بل الحياة ذاتها لهذا الشعب ولهذه الأمة، وما دمنا قد حاربنا وعدة مرات فلا مفر من السلم، هكذا كان منطقه الذي دائما يردده وبحسمٍ.

في ندوة قصر النيل، وبعد اغتيال أنور السادات في أكتوبر ١٩٨١، بدأت كالعادة الأقلام الصحفية المصرية مرحلة "مات الملك عاش الملك" وتبدأ هذه

الأقلام في نقد الملك، أقصد الرئيس الراحل، وتمجيد الرئيس المتولي! وهي عادة مصرية بامتياز منذ عهود الفراعنة، فهم يبدؤوا في مسح أي إنجازات للرئيس الراحل، والعكس للرئيس الذي تولى. وبدأ رئيس مجلس إدارة الأخبار أو أخبار اليوم الأستاذ إبراهيم سعدة، وكان الصحفي المفضَّل لدى الرئيس السادات، والناطق بلسانه مع الأستاذ موسى صبري، بدأ إبراهيم سعدة في نقد الرئيس الراحل أنور السادات بشدة بعد اغتياله بقليل! قرأ الأستاذ مصطفى على نجيب محفوظ بعض ما يكتبه إبراهيم سعدة حاليًّا عن المرحوم السادات، وسأله عن رأيه، وإذا بنجيب محفوظ يرد ردًّا عبقريًّا لا يمكن أن يصدر إلا منه. أجاب العبقري، وعلى الفور بالعبارة الآتية: "كل إللي بتقوله يا أستاذ إبراهيم كويس، بس مش إنت إللى تقوله!". ردٌّ مهذبٌ إلى أقصى درجة، ولكنه موجع أيضًا إلى أقصى درجة، وفيه كل ما يقال في مثل هذا الموقف دون التلفظ بأي كلمة نابية أو سوقية، عبارة واحدة عبقرية فيها كل شيء. وأتذكر جيدًا كيف لمع وجه الأستاذ مصطفى، واتسعت حدقتا عينيه وابتسامته، ونحن معه منبهرون برد العبقري.

عندما امتعض العبقري في أثناء مدحه !

في أثناء احتفالنا جميعًا في الندوة بحصول الأستاذ على جائزة نوبل عام ١٩٨٨، كنت قد بدأت أذكره وأناديه وألقبه ب "العبقري" أحيانًا بدلًا من كلمتي "نجيب بك" في التخاطب معه أو مع الحاضرين في الندوة، وكنت أتكلم بالتفصيل في الندوات التي تلت نوبل، عن أجمل ما كتبه النقاد المصريون والأجانب على السواء في جدارة الأستاذ بالجائزة، بدأت أتكلم عما كتبه الشاعر عبد المعطي حجازي عن العبقري، كان من أجمل وأصدق ما كتب حجازي هو أن مصر في عيون القارئ بعد قراءته روايات نجيب محفوظ، تختلف تمامًا عن نظرته لها قبل قراءته رواياته. وأنا أجزم بأن هذا حقيقي إلى أقصى درجة، وكنتُ دائمًا أداعب الأستاذ بأن ألومه أن رواياته هي السبب الرئيسي الذي جعلني لا أتحمل الهجرة إلى أمريكا، فلو لم أكن

قد قرأتُ رواياته لما أحببتُ مصر إلى هذه الدرجة، ولاستطعتُ التغلب على أل "هوم سيك"! المهم أنني وأنا أستكمل شرح ما كتبه الشاعر عبد المعطي حجازي عن الأستاذ نجيب والجائزة، وعندما وصلت إلى ذكر أن حجازي يقول: "إن نجيب محفوظ هو أجدر أديب عربي حي بجائزة نوبل"، وجدتُ وجه العبقري وقد اكفهرَّ فجأة، وغابت ابتسامته، وأشاح بوجهه، وأدركتُ ساعتها أن العبقري يتشاءم ويتفاءل كمعظم المصريين، فقد كره كلمة "حي" التي ذكرها الأستاذ حجازي وتشاءم منها!

وقد أسعد الأستاذ نجيب ما ذكرته له من أن مجلة النيوزويك الأمريكية اختتمت مقالها عنه بجملة رائعة يفهمها الأمريكيون جيدًا وهي: "أن ما يكتبه نجيب محفوظ يمتلك القوة"[illegible]" فالأمريكان يعشقون القوة في كل شيء، وأن تكون كلماتك تمتلك القوة، فلا يوجد أعظم من هذا في نظرهم! وفي إحدى سفرياتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد حصوله على جائزة نوبل، ظهرت السعادة على وجه الأستاذ نجيب في ابتسامته التي تكسو وجهه، عندما أخبرته أنني في كل مكتبة أمريكية محترمة زُرتُها، كان يوجد ركن مخصص لكتبه باعتباره من العظماء الذين حصلوا على الجائزة.

ومن الكلمات شديدة الإيجاز والعمق والجمال، التعليق الذي قاله الشاعر الفلسطيني محمود درويش، عندما سئل عن رأيه في فوز محفوظ بالجائزة العالمية فقال: "نجيب محفوظ نقطة إجماع عربية"!

شجاعة أمام رئيس وصحيفة

تصدَّى العبقري، في رواياته، لكل أنواع القهر والطغيان السياسي والاجتماعي والديني، وأصبح المجتمع المصري واضحًا ككتابٍ مفتوح أمام قُرائه ومعجبيه! وتشهد رواياته "الكرنك"، و"ثرثرة فوقَ النيل" و"ميرامار" و"الحرافيش" و"أولاد حارتنا" وغيرها، على قوة معدن نجيب محفوظ وصلابته وشجاعته أمام عيوب مجتمعه وعيوب رموزه. وقد فاجأني شخصيًّا بحديثه الشجاع أمام الكاميرات، وأمام العالم، وأمام رئيس الدولة، وكبار رجالها بمناسبة تكريمه في الحفل الذي أقامه له خصيصًا الرئيس حسني مبارك، لحصوله على جائزة نوبل للآداب. فقد وقف نجيب محفوظ موجهًا حديثه إلى رئيس الدولة قائلًا على ما أذكر: "أشكرك سيادة الرئيس على تهنئتك لي بأنني حققتُ ما أصبو إليه من آمال، وأتمنى أن يأتي اليوم الذي أهنئك فيه بتحقيق آمال الشعب المصري.". وأتذكر جيدًا أنني فور وصولي

إلى ندوة قصر النيل، حييتُ نجيب محفوظ على كلمته الجريئة التي لم أتوقعها إطلاقًا في مناسبةٍ كهذه، حيث كان المفترض - ذوقيًا وبروتوكوليًا وإيثارًا للسلامة- ألّا يتفوَّه محفوظ بهذه الكلمات التي تقول لرئيس الجمهورية صراحة أنه لم يحقق حتى الآن آمال الشعب المصري! وقد ركزت الكاميرات ساعتها على وجه مبارك الذي كان واضحًا تمامًا أنه بُهت من كلمات نجيب محفوظ الصريحة الشجاعة، ولم يملك ساعتها إلا أن يُصفق له هو ورجاله. وقد سعد الأستاذ بأنني قد لاحظت هذه الجرأة في ردِّه، وبصراحة كنت الوحيد الذي هنَّأه عليها! وكما قلت يظهر نجيب محفوظ، رضاءه أو عدمه، من ابتسامته الجميلة أو اكفهرار وجهه الواضح!

وكان العبقري منظمًا إلى أقصى درجة ممكنة، وهذا معروف عنه للجميع، وهذا التنظيم الفولاذي للوقت هو الذي جعله - كما شرح هو من قبل - يقرأ ويكتب ويعمل ويقابل أصدقاءه دون اضطراب أو فوضى. وكان يحترم الجميع، ولا يهتم بالمظاهر، ولا يتهافت على وسائل الإعلام، ولو كانت عالمية.

وقد شاهدت هذا عمليًا، عندما جاءت صحفية من جريدة "النيويورك تايمز الأمريكية"، وما أدراك ما النييورك تايمز! هي أقوى جريدة يومية في

العالم. جاءت ندوة قصر النيل، لتجري منه حديثًا، وعرضنا عليه أن نتركه معها، ونجلس نحن على مائدة مجاورة، ولكنه رفض تمامًا وقال لها: "لقد أتيتِ دون موعد سابق، وهذا الوقت مخصص لأصدقائي"، وأتذكر أن الصحفية ضربت بقدمها اليمنى الأرض في غيظٍ واضح، وذهبت دون أن تحصل على كلمةٍ واحدة منه، وقد نصحها أحد الحاضرين بأن تتصل بالموظف الذي خصصته له جريدة الأهرام لتحجز موعدًا معه.

خفة دم وحساسية وذكاء اجتماعي بلا حدود

نجيب محفوظ، محافظ أخلاقيًّا، كما كان معظم أفراد جيله، وعندما أثرت في ندوة قصر النيل جرأة الأدباء الغربيين في وصف العلاقات الجنسية في كُتبهم، وسألت الأستاذ نجيب بخبث: لماذا لا يتناول موضوع الجنس بتفاصيل واضحة مثلهم؟ تعجب نجيب محفوظ قائلًا بخفة دمه المعهودة: "يعنى راجل وحبيبته دخلوا الغرفة وأغلقوا بابها، يعنى داخلين يعملوا إيه؟ يلعبوا طاولة؟". وضحكنا جميعًا، وعقبتُ أنا قائلًا: إن هذه ليست حجة قوية، لأن حضرتك وصفت بالتفصيل كيف كان يأكل السيد عبد الجواد وعائلته في رواية بين القصرين، فبالمنطق نفسه يمكن أن نقول: إننا لا نحتاج إلى وصف طريقة الأكل، لأن من يجلس حول الطبلية، هايعمل إيه؟ هايأكل طبعًا. المهم أنني أضفت قائلًا: إنه بالرغم من أن التقاليد والعادات الشرقية تمنع كاتبًا كنجيب محفوظ من أن يحصل على الفرصة المتاحة لنظيره الغربي في

وصف الجنس بالتفصيل، وهو نشاط رئيسي في حياة الإنسان، فإن عبقرية الأستاذ نجيب كانت واضحة وباهرة بدرجة أنها لم تحتج إلى وصف أي علاقات جنسية لإظهار هذه العبقرية!

وفي جلستنا الخاصة بهلتون رمسيس أبدا نجيب محفوظ اندهاشه عندما علم أن محافظة القاهرة قد أجرت مسابقة لاختيار أجمل زهور داخل الحديقة الدولية بمدينة نصر، بالترتيب، الأول ثم الثاني والثالث، وهلم جرا، إلى أن تصل إلى المركز الأخير. وكانت كل سفارة أجنبية في القاهرة قد تبرعت بزراعة مربع زهور خاص بها في الحديقة، سفارة اليابان، والسفارة الإنجليزية، وغيرهما من السفارات، كلهم تبرعوا بأموالهم لزراعة جزء من الحديقة الدولية إلى أن اكتملت. وكان تعليق نجيب محفوظ، "إنها قلة ذوق من المسؤولين، كيف أن السفارات دي إتبرعت إنها تجمل، على نفقتها، حديقة لمصر، وإحنا نعمل مسابقة علشان نكسف سفارة منهم بأن يكون مربع زهورها هو الأخير وأخرى قبل الأخير!" لمحة لا يمكن أن يلاحظها سوى نجيب محفوظ بحسه الإنساني العالي وذوقه وكياسته.

كان نجيب محفوظ حساسًّا إلى أقصى درجة فيما يخص علاقاته العابرة بالمحيط الاجتماعي حوله، فلا يطيق أن يتورط في أي مشكلة مع أي بشر مهما

كان مجنيًّا عليه فيها. في جلستنا الخاصة بهيلتون رمسيس، تصادف أن أوقفت سيارتي في مكان قريب من مدخل الفندق، حرصًا على راحة العبقري، وحتى لا يسير مسافة كبيرة. وفي أثناء جلستنا داخل الفندق، اقترب موظف من العاملين بالفندق، وبأدب جم استأذنَ أن أقوم بركن سيارتي في مكان آخر، فالمكان الذي ركنت فيه، كان الفندق قد خصَّصه لسيارة أمير سعودي يستأجر طابقًا كاملًا أو طابقين من الأدوار العليا للفندق سنوات متصلة. طبعًا مصدر دخل هائل للفندق لا يمكن تعويضه بثمن قهوة الأستاذ نجيب! واستأذنتُ العبقري دقائق حتى أُحرك سيارتي إلى مكان آخر. وأنا في طريقي مع الموظف سألته قائلًا: يعني صاحب جائزة نوبل لا يستحق مكانًا مخصصا له، مثل الأمير السعودي؟! وما إن حكيت للأستاذ نجيب ما قلته للموظف، حتى اكفهر وجهه وصاح في وجهي: "ما تحرجنيش مع الموظفين"، ولم يهدأ إلا بعد أن أكدت له أن الموظف ضحك لأنه أدرك أنني كنت أمزح معه. والحقيقة المرة أنني لم أكن أمزح!، ولكن كنت أتكلم بمنتهى الجدية مع الموظف، الذي كان مُحرَجًا ومقتنعًا كما يبدو بمنطقي، ولكنه كان ينفذ أوامر رؤسائه.

وأيضًا في جلستنا الخاصة أخبرني العبقري بأنه قد عرف أن الحكومة المصرية أهملت تمامًا زيارة الأميرة ديانا لمصر في أغسطس عام ١٩٩٢، بل عاملتها معاملة

سيئة، لأن الحكومة البريطانية لم تُحسن استقبال السيدة سوزان مبارك في زيارة سابقة لزيارة ديانا! وأبدى نجيب محفوظ استغرابه قائلًا وهو يبتسم،: "وهي ذنبها إيه؟! ما يصحش.".

وبعد وفاة الأميرة ديانا عام ١٩٩٧، في حادثة سيارة مع حبيبها المصري "دودي الفايد " ابن الملياردير محمد الفايد، سألت نجيب محفوظ في ندوة المعادي عن رأيه فيما يردده محمد الفايد من أن الأمير فيليب زوج ملكة إنجلترا هو الذي خطَّط مع المخابرات البريطانية حادثة السيارة التي أودت بحياة ابنه والأميرة ديانا، حتى لا يتزوجا فيصبح زوج أم ملك بريطانيا القادم مصريًّا مسلمًا. ابتسم نجيب محفوظ وهز رأسه بالنفي، وقال أحد الحاضرين: "أنه لا يوجد دلائل أن المخابرات هي التي دبرت الحادثة"، فرددتُ قائلًا: "لو أي مخابرات تركت دليلاً على فعلتها تكون مخابرات خايبة جدًّا!" وضحكنا جميعًا ومعنا العبقري.

ضحك نجيب محفوظ عندما أخبرته يومًا بندوة قصر النيل، بعنوان طريف لمقالة نقدية للناقد السينمائي سامي السلاموني، وكان السلاموني من ضمن مجموعة من نقاد السينما المحترمين في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وكانت المقالة بعنوان "مفاجأة.. فيلم جيد لحسن الإمام!" وكان الفيلم الذي

يقصده هو "السكرية" وهو الفيلم الثالث والأخير في ثلاثية نجيب محفوظ، فقبلها كان فيلم "بين القصرين"، ثم فيلم "قصر الشوق"، والثلاثة من إخراج حسن الإمام. والحقيقة أنه فعلًا وكما كتب بحق الناقد سامي السلاموني أن فيلم "السكرية" كان مفاجأة من المخرج حسن الإمام. فهو فيلم معبر عن واقع الرواية كما كتبه نجيب محفوظ، أما فيلم "بين القصرين" وفيلم "قصر الشوق"، فبالرغم من نجاحهما الساحق على المستوى الجماهيري، فإنهما في رأي عُشاق فن نجيب محفوظ، وأنا منهم، لم نشعر قط بأنهما في مستوى كتاباته نفسه. أما بالنسبة للعبقري صاحب الرواية، فطبعًا ليس من اللائق أن ينقد مخرجًا سينمائيًّا أوصل فن محفوظ على الشاشة لملايين المصريين والعرب الذين لا يقرؤون أصلًا لنجيب محفوظ أو غيره! هكذا عرفنا بعد أن نضجنا بما فيه الكفاية لنفهم العبقري نجيب محفوظ، ودهاءه في تسويق فنه العظيم. كما أنه، وإحقاقًا للحق، ظلت لقطات مظاهرات ثورة ١٩١٩ التي صورها حسن الإمام في فيلمه "بين القصرين"، هي اللقطات التي استعان بها كثير من زملائه المخرجين في تصوير أفلامهم عن الفترة نفسها.

إحساسه بعبقريته

قرأت مرة على حاضري الندوة في كازينو قصر النيل مقالة من مقالات العبقري بجريدة الأهرام، كنت قد أعجبتُ بها جدًّا؛ لأنها تُشخص بعبقرية كل عيوبنا كمصريين، وهي العيوب التي تحول بيننا وبين الوصول إلى ما وصلت إليه دول الحضارة الحديثة، وكانت بعنوان "الوعي المنشود" بتاريخ ٢٩/ ١٠ / ١٩٨٧ فكتب يقول:

"مشكلاتنا المتحدية من نوع يمكن أن نسميه بمشكلات الولادة. فالقوانين التي تثقل تقدمنا الديمقراطي. وعجزنا عن توفير الغذاء والمأوى للسكان، وما يهدد شبابنا من ضعف التعليم والتربية وإيجاد فرص العمل المبدع والأجر الكافي، وتلوث أجوائنا، وقذارة مدننا، وفساد الإدارة والذمم، وعدم سيادة القانون، ووهن الانتماء. كل أولئك وغيره أعراض لمرض ولادة غير سليمة، ولادتنا من العدم، أو ما يشبهه إلى الوجود. مجرد الوجود. أما

مشكلتنا الأساسية فهي مشكلة حضارية. هي التخلف عن العصر في جملة نواحيه؛ الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

هذا التخلف الذي يقضى علينا بأن نكون تابعين للأمم المتطورة في كل شيء من اللقمة وحتى الذوق رغم خصوصيته. دائماً يرعبنا القهر والجوع، ويرين علينا الهوان والاغتراب. ولعله يلزمنا أول ما يلزمنا أن نشعر شعورًا عميقًا بمأساتنا. شعورًا يجب أن يؤرق ضمائرنا، ويتعس وجداننا، وينفذ بآلامه إلى نخاع عظامنا.

وعلى ذلك الشعور أن ينتشر فلا يُعفى من آثاره كبير أو صغير، رجل أو امرأة، حتى نأمل في ثورة على الواقع والوثوب إلى تغييره بكل ما نملك من إدارة وعقل ورغبة في الحياة السامية. لا يهم الوقت الذي ينقضي لنبلغ ما نريد. ولا طول الطرق التي علينا نطويها. المهم أن نعايش النضال والعمل ساعة بعد أخرى، ويومًا بعد يوم. ومهما يكن من أمرٍ فالإنسان المناضل أفضل من المستسلم اليائس. والعامل خير من فاقد الوعي.

علينا أن نمتلئ بالوعي، وأن نتشرب طاقة العمل، وأن نتحرر من الأنظمة المُكبِّلة للعقول والأرواح. وأن نتحدى الزمن الذي سقطنا في قعره نتيجة للسهو أو الخمول. وليكن في علمنا أننا إذا لم ننطلق بقوة من داخلنا، فلن يمد لنا أحدٌ يده. وإذا لم ندفع الموت بهمَّتنا فلن يبكينا إنسان. ولن ننال في النهاية إلا ما نستحق. وما القدر – في أغلب أحواله – إلا المصير الذي نكتبه بأيدينا.".

يا للعبقرية حتى في كتابة مقال! تأمَّل العمق في وصف العيوب، ثم العمق في وصف الحلول، ثم الخاتمة العبقرية التي كثيرًا ما رددتها في حضوره: "وفي النهاية لن ننال إلا ما نستحقـ وما القدر - في أغلب أحواله - إلا المصير الذي نخطه بأيدينا".

كان العبقري يمتلئ بالانفعالات، وتشعر باضطرابه، إذا ما قرأ أحد في الندوة مقالًا له أو قصة قصيرة نشرها، وأنا أتذكر عندما أتى إلى لندوة في قصر النيل، الأديب سعيد الكفراوي، وهو لا يمت لي بأي صلة قرابة، وقرأ علينا وعلى نجيب محفوظ، من الذاكرة، قصة قصيرة جدًّا نشرها العبقري، كانت على ما أتذكر، عن إنسان دخل غرفة، وعندما خرج منها من باب آخر كان الزمن قد مَرَّ على حياته كلها وخرج عجوزًا! وأتذكر أن نجيب محفوظ، وهو يستمع إلى قصته بصوت سعيد الكفراوي، كان الاضطراب واضحًا عليه، وأشعل سيجارته وهو في غاية الانفعال. وتساءلت وقتها، بيني وبين نفسي، يا ترى، ما الأفكار والانفعالات التي تمرُّ بخاطر عبقري مثله عندما يستمع إلى عمل من أعماله؟ والحقيقة أنني لم أسأله قط عن شعوره هذا، ولا أظن أنه كان يمكنه إعطائي إجابة واضحة عن سؤالٍ كهذا.

وفي الندوة الخاصة بهيلتون رمسيس، اشتكى العبقري بمرارة من الأستاذ فاروق شوشة، وأصل الحكاية أن الشاعر الرقيق فاروق شوشة كان له برنامج مشهور جدًّا في التلفزيون المصري اسمه " لغتنا الجميلة"، وكان البرنامج يتناول القضايا الثقافية المعاصرة، ويستضيف كبار الأدباء والنقاد لمناقشتها، وكان صوت فاروق شوشة مقدم البرنامج هادئًا وأسئلته لضيوفه عميقة ومحترمة. باختصار كان برنامجًا رائعًا. وزاد من روعة البرنامج المقدمة التي تظهر فيها صور كبار العمالقة، طه حسين والعقاد وزكي نجيب محمود ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي، ويُصاحب عرض الصور موسيقى خلابة. وفجأة اختفت صور هؤلاء الكبار من مقدمة البرنامج! وعندما سألتُ نجيب محفوظ، إن كان على علم بهذا وما السبب؟ وجدتُه يستشيط غضبًا شارحًا لي أن واحدًا من هؤلاء العمالقة، (قد يكون عبد الرحمن الشرقاوي) وكان ما يزال على قيد الحياة، ظهر في برنامج إذاعي، وعندما سئل عن الشعراء الذين يحب أعمالهم، ذكر عدة أسماء ليس من بينها فاروق شوشة. فغضب فاروق عليه، وطبعًا لم يكن يستطع أن يزيح صورة هذا العملاق فقط، فأزاح صورهم جميعًا! وقال نجيب محفوظ بغضب شديد: "هو فاكر نفسه إيه ابن ال..؟!!" ولم يكمل.

تربُّع العبقري على القمة طويلًا، قمة الفن، وقمة الرواية، وقمة الشهرة، وانشغال وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون بالحديث معه وعنه، لا بد أن جعله يشعر، مهما يكن تواضُعه، بمشاعر الزهو والتفرد، وقد أحسستُ بذلك يومًا في جلستنا الخاصة بهيلتون رمسيس، فعندما تساءلت عن سر اهتمام وسائل الإعلام بمسلسل أو فيلم تلفزيوني اسمه "حكايات الغريب"، وكان على ما أتذكر رواية أو قصة قصيرة للأديب جمال الغيطاني، اكتسى وجه العبقري بملامح الضيق الشديد، وردَّ قائلًا: "طبعًا ماهمه شلة واحدة يا سيدى"! ولم أسأله: يقصد من؟! ولكني كنت أعرف طبعًا. ولستُ أدري لماذا أحسست وقتها أن ضيق نجيب محفوظ كان لأن الاهتمام الإعلامي قد انتقل فجأة – ولو أيامًا معدودة – إلى عمل فني لا يخصُّه! والحقيقة أيضًا أن الأستاذ نجيب قد تأكد له، بعد حصوله على نوبل، أن مستواه فعلًا عالمي، ولا يوجد أدنى مقارنة بين فنه وبين فن أي مبدع مصري أو عربي آخر في أي مجال من مجالات الفنون المختلفة. وقد كان كل صحفي أجنبي، أمريكي أو ألماني أو بريطاني أو ياباني يأتي إلى مقابلته يؤكد له – في أثناء طرح أسئلته ثم بعد نشره لأحاديثه – هذا الشعور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وكان العبقري يشرق وجهه بالسعادة الغامرة عندما يحكي لنا عن تعامل جاكلين كيندي معه، وهي الأميرة غير المتوجة للشعب الأمريكي حينذاك، وزوجة الرئيس الأمريكي في الستينيات جون كيندي، وخطاباتها له باعتبارها الناشر لأعماله في أمريكا. كنت تشعر بسعادته البالغة بوصول فنه إلى المكانة التي يستحقها.

أصدقاء بحقٍّ

بعد حادثة الاعتداء عليه في شهر أكتوبر عام ١٩٩٤، والفترة الطويلة التي قضاها العبقري في المستشفى، ثم فترة النقاهة في منزله، نصحه الأطباء بأن يعاود الخروج من المنزل مع الأصدقاء حتى يسترد صحته الجسدية والنفسية. وفي ذات مرة وفي أثناء سؤالي عن صحة الأستاذ هاتفيًّا، التقط الأستاذ جمال الغيطاني سماعة الهاتف، وكان يزور العبقري وقتها، وحثني على الخروج مرة أخرى مع الأستاذ، لأنه كما ذكرت، لا بد أن يسترد نشاطه بقدر الإمكان. والحقيقة أنني أكبرتُ في جمال الغيطاني هذه المكالمة لأن علاقتي به كانت سيئة بعد أن اشتبكنا كلاميًّا، عندما حضر مرة ندوة قصر النيل، وكنت أشنُّ هجومًا مريرًا على الناصرية في ذكرى هزيمة ٥ يونيو، وطبعًا تألم الأستاذ جمال لأنه ناصري متعصب، وغادر الندوة غاضبًا وأنا أتابعه بصوتٍ عالٍ قائلًا له: "كل سنة وأنت طيب يا أستاذ جمال"!

وشدَّد الأمن على العبقري أن يترك كازينو قصر النيل نهائيًّا؛ لأنه صعب مراقبة مداخله ومخارجه، وخصَّص له حارسًا دائمًا، أمين شرطة مهذبًا ومحترمًا اسمه محمد، وعربة حراسة مرافقة لسيارة الدكتور فتحي هاشم التي تقل الأستاذ نجيب. وأصبح العبقري، بعد إصابته الشديدة ثم تعافيه، يخرج يوميًّا برفقة أصدقائه الذين توزعوا على مدار أيام الأسبوع.

في أثناء وجود العبقري في المستشفى، اعتقدت جريدة الشعب لسان حال حزب العمل، وكان التيار الديني قد سيطر عليها تمامًا، بعد تحالف إبراهيم شكري رئيس الحزب مع هذا التيار، ورأس تحريرها الأستاذ مجدي حسين. اعتقدت الجريدة أنها تستطيع أن تجهز على الأستاذ نجيب أدبيًّا ومعنويًّا، فجعلت أحد محرريها المتطرفين يُعرِّض بالعبقري ويتهمه في دينه، ويشرح لقراء الجريدة كيف أن رواية "أولاد حارتنا" هي رواية تكفر بالله وبالأنبياء! ونجيب راقد في المستشفى لا يملك دفعًا ولا ردًّا لهذا الاتهام الخطير. ولكني أعددتُ ردًّا قويًّا على هذا الاتهام، مُفنِّدًا كل حُجج الكاتب المتطرف. وإذا بكاتبٍ متطرف آخر يهاجمني ويدعي أنني ونجيب بك من المنافقين، وأن الجميعَ يدرك أن "أولاد حارتنا" تعبر عن الكفر بالله والرسل! واعتقدت الجريدة أنها بهذا المقال الثاني قد أفحمتني، وبدأت تعلن عن أن بعض أساتذة الشريعة الإسلامية بالأزهر سوف يكتبون، كل منهم على حده، مقالاً عن إحدى شخصيات الرواية، رواية "أولاد حارتنا"؛ ليظهروا أنها تتكلم عن الأنبياء بالسوء. ولكن الله ألهمني فكتبت ردًّا ثانيًا أقوى من الأول تحت عنوان

"أولاد حارتنا تعبر عن الكفاح ضد الاستبداد"، فنَّدتُ فيها كل نقطة أثارها الصحفي المتطرف كلمة كلمة وعبارة عبارة، وأنهيتُ المقال بالآتي: "نجيب محفوظ شرَّفنا فعلًا مسلمين وعربًا ومصريين، فليحفظه الله لنا من الإرهاب والإرهابيين، اللهم آمين". وبعدها مباشرة انقطعت تمامًا كل المقالات التي كانت جريدة الشعب تنوي نشرها بأقلام أساتذة الأزهر! وللحق، فإن الأستاذ محمد القدوسي المشرف على صفحة الأدب بجريدة الشعب، سمح بنشر الردَّين اللذين كتبتهما بدون أي حذفٍ، وبموافقة الأستاذ مجدي حسين رئيس التحرير حينذاك.

عاد العبقري بالتدريج إلى نشاطه، ولكن سمعه وبصره لم يعودا إلى سابق عهدهما، وكما ذكرت، توزع أصدقاؤه على مدار الأسبوع في ندوات يومية، وكان اختياري يومي الأحد والأربعاء، يوم الأحد في فندق شبرد بجاردن سيتي، ويوم الأربعاء في فندق سوفتيل بالمعادي. وعندما بدأت ندوة يوم الأحد في فندق شبرد، كنا نجتمع حول مائدة في التراس المطل على الكافيه الأرضي، وبعد فترة نقلتنا إدارة الفندق إلى قاعة داخلية خاصة بالبار! أما في فندق سوفتيل المعادي فقد كانت الندوة دائمًا في قاعة مغلقة علينا. وبدأت مهمتي الأخرى التي أخذتُها على عاتقي وهي أن أجلس بجوار أذنه اليسرى التي كان ما يزال يستطيع أن يسمع بها جيدًا، لكي أخبره بأهم الأحداث السياسية والاجتماعية والفنية التي تحدث في مصر والعالم، ثم أنقل إليه آراء الحضور، وعندما بدأ بعض زملاء الندوة في قراءة إنتاجهم الأدبي للأستاذ نجيب، تعمدت أن أحضر متأخرًا ساعة حتى ينتهوا من قراءة ما يريدون.

أديب عبقري وسياسي بريء

عندما هاجت الجماعات الإسلامية على نجيب محفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل للآداب؛ لأنها عرفت أن من حيثيات الجائزة رواية "أولاد حارتنا" بجانب روايات أخرى، حكى لنا العبقري أن ضابط بوليس، لا أتذكر رتبته، من مباحث أمن الدولة، جاء لزيارته في المنزل، وشرح له خطورة هذا الهياج، وأن هناك تهديدات وخطرًا على حياته، ثم طلب منه أن يقبل بوضع حماية بوليسية له في تحركاته، فرد الأستاذ نجيب بخفة دمه المعهودة قائلًا للضابط، بعد أن شكره على اهتمامه: "إنه يتحرك كثيرًا للدرجة التي قد تجعل أفراد الحماية ذاتهم، من تعبهم في ملاحقته، يغتالونه بأيديهمّ" وضحك العبقري وهو يحكي لنا هذه الواقعة وضحكنا معه. وإذا بمحاولة الاغتيال تحدث فعلًا! فبعد هذا الحوار بمدة، وفي يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٩٤، وبعد أن استقلَّ العبقري سيارة الدكتور فتحي هاشم استعدادًا

للقدوم إلى الندوة، حاول إرهابي طعنه بسكين من النافذة، ولولا أن نجيب محفوظ انحنى للأمام ثواني قبل أن يطعنه المجرم، ولولا سرعة فتحي هاشم وحسن تصرفه، ورجوعه بسيارته إلى الخلف بسرعةٍ إلى مستشفى الشرطة المجاورة لمنزل نجيب محفوظ، لكانت محاولة الاغتيال الدنيئة قد نجحت.

كنتُ أيامها قد أصبحت عضوًا نشطًا في حزب الوفد، وأكتب مقالات في جريدة الوفد عن الديمقراطية والسياسة عمومًا، وكنت دائمًا أشاغب الأستاذ نجيب، والكاتب المسرحي علي سالم، عندما تحتد المناقشات السياسية معهما، فأقول لهما إنهما أديبان وكاتبان كبيران في الفن، ولكن السياسة شيء آخر. كنت أقول لهما هذا على سبيل الدعابة، ولكن بعد محاولة الاغتيال التي حدثت نتيجة رفض الأستاذ نجيب محفوظ نصيحة ضابط في مباحث أمن الدولة، أصبحت أقولها بالفم المليان، وهي أن ضابطًا مجهولًا في مباحث أمن الدولة يفهم في السياسة أكثر من أي أديبٍ مهما يعلُ شأنه! وكنت أردد لنجيب محفوظ كلمات للكاتب الأمريكي ويليام فوكنر "إن البراءة لا تكشف عن نفسها إلا في وجود قوى الشر التي سرعان ما تلتهمها التهامًا"! وقد كانت قوى الشر على وشك أن تلتهم الأستاذ نجيب البريء سياسيًّا. هذا الحوار الذي دار بين ضابط مباحث أمن الدولة والأستاذ نجيب محفوظ، وكيف تغلبت حنكة الضابط السياسية على عبقرية المدني نجيب محفوظ الذي لم تنفعه عبقريته المدنية في حماية نفسه، فما بالك بوطن؟!

كان هذا الحوار، بالإضافة إلى المعايشة اليومية مع أعضاء حزب الوفد، وأيضًا القراءة المكثفة لتاريخ الشعب المصري، من أهم الأسباب التي حولتني تدريجيًّا من الثقة العمياء بالديمقراطية - التي كنت مؤمنًا تمامًا بأنها تصلح لكل الشعوب ولكل الأزمان- إلى الواقعية السياسية، والإدراك بأن القوات المسلحة وقوات الأمن لا يمكن إغفال دورها في قيادة شعبٍ له تاريخ طويل ومؤلم كالشعب المصري! وكنت أردد باستمرار أن فن ممارسة القوة، الذي تتقنه القوات المسلحة وحدها هو فن ضروري، ولا غنى عنه لحماية الوطن. طبعًا بالنسبة إلى شعوب أخرى فإن الأمر يختلف، فرونالد ريجان الممثل السينمائي وصل إلى سُدة حكم أمريكا، وفاتسلاف هافيل الكاتب المسرحي وصل إلى سُدة حكم تشيكوسلوفاكيا، أما بخصوص الشعب المصري فشيء آخر تمامًا.

عندما حدث الهجوم الإرهابي على برجي التجارة العالميين في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، قال لنا العبقري في ندوة شبرد "إنه فور أن سمع بالحادثة اعتقد أن اليابانيين هم المسؤولون عن هذا الهجوم انتقامًا منهم وردًّا على إلقاء أمريكا القنبلتين الذريتين على جزيرتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين في نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥".

وقد كتب نجيب محفوظ بعد أن علم بالحقيقة في صندوقه الأسبوعي بجريدة الأهرام قائلًا: "إن هذا الهجوم تستحقه أمريكا ردًّا على ظلمها

المتواصل للعرب". وقد عارضته أنا ورضا هلال وتكلمنا ضد هذا الهجوم، وعن جدواه، واستمع إلينا العبقري جيدًا كعادته، ولكنه صمت، ولم يعلق أو يهز رأسه، وهذه طريقته أحيانًا عندما لا يقتنع بالرأي المثار أمامه، ولكن لحساسية الموضوع لا يريد أن يحدث ضجة أو (شوشرة). والحقيقة أن ظلم أمريكا العربَ واضحٌ لا شك فيه، ولكن أسلوب الرد لا يكون بهذه الطريقة. هذا رأيي.

آمن العبقري بالديمقراطية إلى أقصى درجة، وكان لا يمانع في إعطاء التيار الديني الفرصة الكاملة لممارسة السياسة ودخول الانتخابات، وكنت أردُّ قائلًا له وللحضور: إن العبقري، ربنا يديله الصحة، ضعف نظره فلم يعد يتمتع بمشاهدة الأفلام، وضعف سمعه فلم يعد يتمتع بسماع الموسيقى، لذلك هو يردد مع عبد الحليم حافظ كلمات أغنيته الشهيرة جبار فيقول "زي غيرنا ماباع، نبيع عهد الهوى وعهده، زي قلبي ما ضاع، تضيع كل القلوب بعده!" فهو، أي العبقري، لا مانع عنده أن يحرمنا من رؤية الأفلام، ولا يمانع من حرماننا من سماع الموسيقى، ما دام هو لم يعد يتمتع بهما! كنت أقصد طبعًا أن التيار الديني إذا ما تولى الحكم فسوف يتم حرماننا، إما عاجلًا أو بعد حين، من سماع الموسيقى ومشاهدة الأفلام، وكان العبقري يستمع لرأيي مبتسمًا، وأعتقد أنه كان يدرك أنه مسموح في الحوارات السياسية ببعض الخشونة في الحوار.

كان نجيب محفوظ عندما يندمج في شرح أحوال الشعب المصري قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ والصدام بين سياسيين يعتبرهم ديكتاتوريين أو معادين للوفد أومن مؤيدي القصر، كان يقول: " فلان كان يستحق أن يُقتل، أو فلان لم يكن يستحق أن يُغتال". وهكذا، مما جعلني أُدرك أن كل جيل له قيمه وعاداته سواء اجتماعية أم سياسية. فأيام شباب العبقري كانت الاغتيالات السياسية تؤخذ ببساطة، لذلك أيضًا كان تعذيب العهد الناصري لخصومه السياسيين من سمات هذا العصر. فقلت له مرة "يا نجيب بك إنت مزاجك دموي شوية"، فابتسم وهو محرج، ولم يعلق.

وطني حتى النخاع

كان العبقري مثل معظم المصريين يعشق يوم ٦ أكتوبر من كل عام، وأتذكر في سنة من السنوات، احتفل حسني مبارك بكل قيادات حرب أكتوبر في احتفالية كبرى بقاعة من القاعات، وخطب الرئيس مبارك خطبة قوية، وفي أثناء الخطبة كان يتوقف بعد كل فتره ليشيد بقيادة من القيادات، بطريقة غاية في القوة والشموخ، ويمنحها وسامًا، وكانت القاعة تصفق كالرعد كلما ذكر اسم قيادة، وماذا فعلت في حرب أكتوبر المجيدة، قائد المشاة، وقائد المدفعية، وقائد المدرعات، وقائد قوات الصاعقة، وقيادات البحرية، وغيرهم. ودخلت الغرفة المخصصة لندوة الأستاذ نجيب في فندق سوفتيل بالمعادي، وأنا في غاية الانفعال، وجلست بجانبه وأخذتُ أشرح له بالتفصيل أجواء الاحتفالية وأحداثها، وإذا بنجيب محفوظ ينفعل مع شرحي، وتبلغ الحماسة به إلى أنه كان بعد كل فقرة تكريم أرويها له يخبط

على فخذه بحماسة منقطعة النظير، وهو يعلي صوته قائلًا بسعادة بالغة: "يا سلام". شاهدت ليلتها نجيب محفوظ وهو في قمة سعادته بذكريات حرب أكتوبر، شاهدت نجيب محفوظ الوطني حتى النخاع كما لم أشاهده من قبل!

وأتذكر يوم ٢٥ يناير في سنة من السنوات، وكنا في ندوة شبرد، وتحدث الأستاذ علي سالم عن عيد الشرطة، وكيف أن العشرات من رجال الشرطة قد استُشهدوا في معركتهم غير المتكافئة مع القوات الإنجليزية في الإسماعيلية، نتيجة أمر من فؤاد سراج الدين باشا، والذي كان وزيرًا للداخلية حينذاك، بأن يرفضوا الأوامر التي صدرت لهم من القائد الإنجليزي بتسليم أسلحتهم، والخروج من القسم، واعتبر الأستاذ علي سالم أن هذا الأمر من فؤاد سراج الدين للبوليس المصري برفض الاستسلام ومحاربة الإنجليز، إنما هو أنانية وانتهازية من الوزير، لأنه كان يدرك وهو يصدر الأمر أنه في مأمن من أي سوء، وأن هؤلاء الضباط والجنود تم التضحية بهم من أجل مجده هو. ولما نقلتُ إلى أذن العبقري وجهة نظر الأستاذ علي سالم، ردَّ نجيب محفوظ بحسم: "إنه مهما يحدث، ومهما يختلف الرأي في هذا، فقد سُجل هذا اليوم في التاريخ كيوم مجدٍ وفخار للبوليس المصري، ولن يستطيع أحد أن يمحو أثره".

قاهري بامتياز

كان العبقري قاهريًّا حتى النخاع، لم يتكلم في خلال الخمسة والعشرين عامًا تقريبًا التي تشرفت بالجلوس بجواره، مرة واحدة عن الريف أو الفلاحين أو الصعيد أو الصعايدة بكلمة أو بوصف أو بحكاية! كان اهتمامه الأول والأخير بالقاهرة وأحيائها الشعبية التي عاش فيها ولها. وقلت له يومًا في ندوة قصر النيل إن القدر قد أنقذه وأنقذ فنه عندما وُلد وعاش في أحياء القاهرة، ولم يعش في الريف، وذكرت له عبارة بليغة للأديب الروسي "أنطون تشيكوف" في رائعته المسرحية "الخال فانيا" يصف فيها أثر الحياة في الأرياف على المثقف قائلًا: "في الغربة، كانا الوحيدان المثقفان (الطبيب والخال فانيا)، لكن الحياة الضيقة طوتهما بجهلها، وأفسدت دماءهما بهوائها، وأصبحا صغيرين حقيرين". ولم يفتني سؤال خبيث سألته للأستاذ نجيب، عما إذا كان يستمتع بأشعار

صديقه الصعيدي الأشهر الأستاذ عبدالرحمن الأبنودي؟ فقطَّب محرجًا وقال: "لا!" ولا يعنى ذلك، التقليل من قيمة أشعار الأستاذ عبد الرحمن الأبنودي بأي حال من الأحوال، وإنما هو نجيب محفوظ صادقًا مع نفسه لأقصى درجة، فهو بالمعنى الحرفي للكلمة لا صلة له من قريب أو بعيد بالريف أو الصعيد، فكل عصارة جهده وعقله وقلبه وفنه مُركَّزة تركيزًا هائلًا في قلب القاهرة بأحيائها الشعبية، بموظفيها وفتواتها وصعاليكها، ومن ثم لا يوجد مساحة ولو قليلة لأي أماكن أخرى في عقله ووجدانه. فشعوره طبيعي ألَّا يتأثر بالفنون التي تعبر عن الريف أو الصعيد مهما ترتقِ أو تتفوق.

انقلاب مفاجئ!

كما ذكرتُ، العبقري عندما يغضب أو يفرح، كان يتصرف بالطريقة المحفوظية. وفي ندوة شبرد، فوجئتُ يومًا، وأنا جالس بجانبه كالمعتاد، بالأستاذ نجيب يقول بصوت عالٍ: "تعال يا أستاذ رضا هلال اجلس بجانبي"، ثم قال للحاضرين: "أهو جبتلكم راجل كويس". أدركت فورًا أن العبقري غاضب إلى أقصى درجة مني. ولكن بطريقته لم يقل لي السبب، ولم أجرؤ أن أسأله، فقط امتثلتُ لرغبته، وتركت مقعدي بجانبه للأستاذ رضا رحمه الله، وفي طريقه إلى الجلوس بجانبه، سألني رضا: "إنت عملت ايه؟ الظاهر واحد إداك ذُنبه بضم الذال"! جلست بعيدًا عن العبقري، واستمرَّ الحوار بيني وبين الحضور كالمعتاد، وسلمت عليه في نهاية الندوة دون أن أعاتبه بكلمة واحدة. وفي الأسبوع التالي حضرت الندوة كالمعتاد، وسلمتُ على العبقري أيضًا كالمعتاد، ولكني جلست بعيدًا. واستمر الحوار

بين أعضاء الندوة وأنا اتحدث معهم، إلى أن قال نجيب محفوظ بصوت عالٍ: "هو الكفراوي بيقول إيه؟"، فأدركت وأدرك الجميع أنه قد هدأ وعفا عني. ورجعتُ إلى مكاني المعتاد بجانبه. وإلى هذه اللحظة، لم أعرف سِرَّ غضب الأستاذ نجيب مني! ولم أسأله قط. قد يكون فعلًا واحد ابن حلال إداني ذنبه (بضم الذال)، ولكن يجب أن أعترف أيضًا، أنني كثيرًا ما كنتُ قاسيًا في كلماتي في الندوة، لسبب ذكرته من قبل، وهو أن الناصريين والماركسيين كانوا أغلبية كاسحة في مصر عمومًا وفي الندوات خصوصًا. وكانوا معتادين عدم وجود أي ليبرالي حولهم أو بينهم؛ ذلك كانت أية آراء ليبرالية أو ضد الناصرية، تقابل بمقاومة عنيفة، فكان الرد لا بد أن يكون بالعنف نفسه. وإحقاقًا للحق لا بد أن أذكر أيضًا أن هناك واقعة بيني وبين العبقري قد تكون سببًا في تصرفه العنيف معي، فبعد أن بدأ العبقري يتماثل للشفاء ببطء من جراح محاولة الاغتيال الخسيسة، بدأ يخرج مع بعض زملاء الندوة الذين لديهم القدرة الغريزية والطبيعية على العناية به في أثناء تعافيه البطيء. وقد علمت أنه كان ينام وهو جالس بينهم، فيلتزمون الهدوء الكامل حتى يستيقظ، وكلها تصرفات لا طاقة لي بها. وعندما بدأت أحضر ندوة شبرد، وكان الأستاذ قد بدأ يسترد عافيته بدرجة كبيرة، ظل عندي هاجس من أنه قد ينهار أو يتعب فجأة بيننا، إلى أن جاء يوم أحد وفوجئت بالعبقري، وبطريقته المحفوظية الجميلة، يطلب مني أن أصطحب الشاعر والأديب نعيم صبري ونأتي معًا للخروج معه في ندوة خاصة بجانب يوم الأحد. أي يريد

أن نستأنف جلستنا الخاصة. طبعًا شرف ما بعده شرف لي ولنعيم صبري. ولكني ارتعبتُ من مجرد الفكرة التي شرحتُها من قبل، وهي الهاجس بأن يتعب الأستاذ فجأة ولا أستطيع إنقاذه! والحقيقة أنني اعتذرت للعبقري بطريقة فجة، عن تلبية رغبته في الخروج. ويبدو أنه فوجئ برفضي هذا، وأسرَّها في نفسه. ولكن الحمد لله، في نهاية الأمر، عاد الأستاذ إلى طبيعته معي؛ لأنه أدرك قطعًا أنني لا أفعل شيئًا بنية سيئة، وأن حبي واحترامي له ولفنِّه ليس موضع شكٍّ أو تساؤل.

الموت في حياة وروايات محفوظ

كان الأستاذ نجيب يعشق فن السينما، وكنتُ قد اعتدتُ كلما شاهدتً فيلمًا سينمائيًّا ذا قيمة، أحكيه له فيعلق عليه بأسلوبه. وفي ندوة شبرد أتذكر أني حكيت له فيلمًا أمريكيًّا اسمه "المصارع" من إنتاج عام ٢٠٠٠، عن قائد لأحد الجيوش في عهد الإمبراطورية الرومانية، وكيف ساقه حظه العاثر أن يعتبره ولي عهد القيصر المتوفَّى، خطرًا عليه فيتهمه بتهمة زائفة ويحكم عليه بالموت، فيهرب ويتحول إلى أسير في يد منظم لمباريات القتال الوحشية في حلبات المصارعة في روما عاصمة الإمبراطورية. المهم أنه بعد مدة أصبح أسطورة لدى زملائه من المصارعين، وأصبحوا يثقون به ثقة عمياء لرجولته وبراعته في القتال، وأصبحوا يعتبرونه قائدًا فعليًّا لهم، يطيعونه في قتالهم حتى الموت مع المجموعات الأخرى من المصارعين. وبعد أن تعددت انتصاراتهم، وتغلبهم على منافسيهم، أراد المشاهدون من عِلية الرومان أن

يطلقوا عليهم حيوانات جائعة، حتى يستمتعوا أكثر! وفي وسط الحلبة وقف بطل الفيلم المقاتل وحوله بقية المقاتلين منتظرين البوابات التي ستُفتح. وبدأنا نحن مشاهدي الفيلم نستمع إلى زمجرة الحيوانات الجائعة (التي اتضح فيما بعد أنها نمور مفترسة) خلف البوابات، وبدأ المصارعون تهتز ركبهم، ويرتعدون خوفًا مما سيطلق عليهم عندما تُفتح بوابات الجحيم، وهنا خطب فيهم المقاتل قائلًا عبارة تجسد عظمة الإنسان وشجاعته أمام الخطوب: "ما دمنا جميعًا يدًا واحدة وأنتم تقفون جنودًا متراصة خلفي، وتنفذون تعليماتي بالحرف، فمهما يكن خلف هذه البوابات، وأيًّا كانت قوته، فسوف نهزمه، وسنخرج ظافرين منتصرين" وقد كان! وتحمستُ وأنا أقول للأستاذ: "هذا هو موقف الإنسان ذي المعدن القوي عندما يريد أن يقهر أي صعاب وأي كارثة". بعد أن استمع إلى الرواية صامتًا كعادته، وبعد أن انتهيت، نظر إليَّ الأستاذ، نظرة حزينة وهو يبتسم في أسى قائلًا: "طيب والموت يا كفراوي، مين يهزمه؟!" وضحكتُ وأنا أنظر إلى لأستاذ نجيب، وأدعو له في سري بطول العمر، ولكني تساءلت بيني وبين نفسي: هل كان العبقري يشعر باقتراب العمر من نهايته؟

وقد ذكر نجيب محفوظ رأيه في الموت في أحد أحاديثه الصحفية، وطبعته مجلة الهلال في آخر صفحة لها في العدد الأول الذي أصدرته المجلة في أول فبراير ١٩٧٠ تكريمًا للعبقري، نقلًا عن صحيفة لم تذكر اسمها. قال نجيب محفوظ: "الموت على المستوى العام ما هو إلا جزء من الحياة مثل بندول

الساعة، لكنه على المستوى الفردي أبشع مأساة يتصورها الخيال.. إنه يجعل الحياة مهزلة لا أكثر ولا أقل! لذلك أُعوِّد نفسي على أن أنظر إلى الموت وأفكر فيه على مستواه العام لا على مستواه الفردي.. هذه هي وسيلة الانتصار عليه!".

وأنا أجزم عندما سألني العبقري عن الموت وكيفية هزيمته، بعد أن انتهيت من رواية الفيلم، أنه أي نجيب محفوظ، لم يعد يفكر فيه على المستوى العام كما في شبابه، وإنما أصبح، مثل أي إنسان مُدرك في نهايات العمر، يعتبر الموت أبشع مأساة يتصورها الخيال، ولولا إيمانه بالله - سبحانه وتعالى - وحكمته، وأن الموت علينا حق، لفزع الإنسان، وشلَّه الرعب عن ممارسة الحياة ذاتها!

ولا بد هنا أن أذكر أن العبقري يعتبر من أعظم الروائيين، إن لم يكن أعظمهم، الذين كتبوا عن حقيقة الموت وما يفعله بالإنسان. ولا يوجد أقسى ولا أبشع من أن يأتي الموت عن طريق القتل. تأمل وصف العبقري للمقتول على لسان القاتل جعفر الراوي في رواية "قلب الليل" فقال: "صورة وجهه لا يمكن أن تُنسى، أعني بعد أن غرست النصل الحاد في عنقه، وجهه وهو ينطفئ هابطًا إلى قرارة الظلمة، وهو يتخلى عن المعركة ويستسلم للمجهول، وهو يتخلى عن الجدل والذكاء والمجد وكل شيء". يا لعبقرية الوصف! كلمات معدودة، لكنها تشرح حياة بأكملها اختطفها الموت.

وفي رواية الحرافيش يشرح العبقري الموت الطبيعي قائلًا: "لن تنفعه القلعة والنبوت، سيذوي بهاء هذا الجمال المتألق، وستتقوض أعمدة هذه القوة الشامخة، وسيرث المال قوم آخرون، وهم يغمزون ويسخرون، وستعقب الانتصارات الباهرة هزيمة أبدية"! يا للعبقرية! فلنتأمل الجملة الأخيرة: "وستعقب الانتصارات الباهرة هزيمة أبدية"، كلمات بسيطة تلخص حياة الإنسان ونهايتها الحتمية على مَرِّ العصور. كلمات لا يقولها إلا عبقري روائي من الطراز النادر العظيم.

وفي الحرافيش أيضًا يصف مشاعر "جلال عبد ربه" الذي يُجسد حلم الإنسان المستحيل في الخلود وخوفه الفطري من الموت فيقول: "رنا إلى الجثة المسجاة طويلًا. طوى الغطاء عن الوجه. إنه ذكرى لا حقيقة. موجود وغير موجود. ساكن بعيد منفصل عنه.. غائص في المجهول، ثم ينفجر قائلًا: نحن خالدون ولا نموت إلا بالضعف والخيانة. وعندما تقول له عشيقته: السعداء حقًّا من ينعمون بشيخوخة هادئة، يرد بتحدٍّ: السعداء حقًّا من لا يعرفون الشيخوخة".

وفي رواية خان الخليلي عندما اندفع الشاب رشدي عاكف لينهل من ملذات الحياة غير عابئ بأية محاذير، إلى أن أصيب بداء السُّل، وأصبح الموت قريبًا منه وهو في عز الشباب، تأمل كلمات العبقري وهو يصف الحال: "إن الحياة تقطر حقيقتها في أفواه المتأنين، وتسكبها في أفواه المتعجلين". تعبيرات

عبقرية موجزة. وأنا أكتب كثيرًا من هذه العبارات من الذاكرة بعد أن قرأتها منذ عشرات السنين! لأنها كلمات لا تُنسى بحق.

والحقيقة المحزنة أن التركيز في متابعة العلم وقراءة الفلسفة مع التأمل العميق للحياة، يجعل أي مثقف يدرك مدى المعاناة التي يخوضها البشر في هذه الحياة، وتصبح العبارة الموجزة والمركزة للعبقري في رواية الحرافيش: "وتمضي الحياة بخير لا يذكر، وشَرٍّ لا يُحصى" هي خلاصة حياة البشر حتى اللحظة. "لقد خلقنا الإنسان في كبد"، صدق الله العظيم.

عندما يعجز العبقري عن التعبير

وعندما كان العبقري يُعجب بقصة فيلم إلى أقصى درجة، ولا يكون هناك أي تعليق يخطر على باله، يضرب على فخذه بيده مكررًا العبارة التي أعجبته في الفيلم. ففي فيلم سينمائي آخر، حصل أيضًا على جوائز للأوسكار وهي أعلى جائزة سينمائية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان اسمه "نهر المستيك" إنتاج عام ٢٠٠٣، استمع الأستاذ نجيب باهتمام إلى قصة الفيلم، وهي عبارة عن ثلاثة فتيان في سن صغيرة جمعتهم الجيرة، وأصبحوا أعز الأصدقاء، ثم فجأة تم اختطاف أحدهم من قبل رجال اغتصبوه، ثم أعادوه إلى أهله! وكبر الأصدقاء الثلاثة، أحدهم أصبح رجلًا قويًّا ذا نفوذ وصلات ونشاطات شبه إجراميه في المنطقة، وثانيهم أصبح رجلًا بوليسيًّا مسؤولًا عن الأمن في المنطقة ذاتها، أما ثالثهم فقد تزوج، ولكنه ظل تعيسًا من جراء الاعتداء عليه جنسيا في الصغر. واعتاد الثالث أن يخرج أحيانًا ليلًا، ليهيم

على وجهه عندما تزداد نفسيته سوءًا، ويتذكر حادثة الاعتداء عليه. وفي ذات ليلةٍ خرج الثالث هائمًا ليجد رجلًا يحاول الاعتداء على طفل جنسيًّا، فانقضَّ عليه، بكل ما في نفسه من غضب وكراهية متذكرًا ما حدث له في الماضي، وظل يضرب الرجل المعتدي، كأنه هو الذي اغتصبه حتى قتله وأنقذ الصبي. ورجع عائدًا إلى بيته وزوجته وعلى يديه وملابسه آثار دماء حاول أن يخفيها عن زوجته، ولكنها عثرت عليها، في التوقيت نفسه قتلت ابنة الصديق ذي النفوذ الإجرامي، فجُن جنونه، وأطلق رجاله، رجال العصابات، للبحث عن قاتل ابنته. ولكن الصديق الذي أصبح ضابط مباحث أيضًا أصبح مكلفًا بالتحقيق في مقتل ابنة صديقه رجل العصابات. توصل رجال العصابات إلى زوجة الصديق المعتدى عليه جنسيًّا، والتي أخبرتهم أن زوجها عاد في الليلة نفسها، وعلى قميصه آثار دماء! اقتاد رجال العصابات الصديق القاتل إلى زعيمهم، الذي أخذ يضغط على صديقه أن يخبره بالحقيقة، وأن يعترف أنه قتل ابنته، وإذا بالصديق المسكين الذي لم يقتل الفتاة، ولكنه قتل رجلًا معتديًا جنسيًّا، إذا به يشعر بأنه لن يستطيع التخلص من عقدته التي حدثت له في الصغر، وأنه أصبح تعيسًا لدرجة أنه لم يعد يرغب في الحياة، فإذا به يعترف، زورًا، بأنه هو الذي قتل ابنة صديقه! وبدون تردد قتل رجل العصابات صديقه القديم انتقامًا منه لاعتقاده أنه قاتل ابنته. وبعدها مباشرة فوجئ بصديقه ضابط المباحث قادمًا إليه ليبشره بالقبض على قاتل ابنته، وليسأله في الوقت نفسه عن سر اختفاء صديقهما الثالث. ورد

رجل العصابات بهدوء منهيًا الفيلم قائلًا: "أشكرك على مجهودك في القبض على قاتل ابنتي، لكن ليتك جئت بدري شويه!". وإذا بالأستاذ نجيب يخبط على فخذه بحماسة شديدة وهو يردد قائلًا: "كنت جيت بدرى شويه" دلالة على انبهاره بحبكة الفيلم الكئيب الذي حصل على جوائز الأوسكار لأفضل تمثيل وأفضل إخراج وأفضل فيلم.

الحب في حياة العبقري

ومن الأحداث الطريفة التي حدثت في ندوة فندق سوفتيل بالمعادي، أن صديقي وهو عضو غير دائم بالندوة لهجرته، المهندس سامي البحيري كان قد اكتشف مصادفة أن زوجته تنتمي إلى عائلة الشخصية الحقيقية لعايدة بطلة رواية الثلاثية، والتي أحبها نجيب محفوظ بالفعل في شبابه، وكتب عنها مصورًا شخصيتها ومشاعره نحوها على صفحات الرواية! وأحضر سامي عائلة زوجته للندوة في الفندق للتعرف بالعبقري، وأخبرني سامى بعدها، لأنني كنت غائبًا يومها لظرف ما، بأن العبقري كان سعيدًا بالعائلة، وأخذوا صورًا تذكارية معه. وفاتني أن أسأل نجيب محفوظ بعدها عن حقيقة مشاعره لدى رؤيته لأسرة محبوبته القديمة، مشاعره الحقيقية، وليس تلك التي أظهرها لهم في الندوة! وأذكر أنه في مرة من المرات كان العبقري يجلس بجانبي في سيارتي استعدادًا للعودة إلى منزله بعد انتهاء جلستنا الخاصة،

وجاء ذكر الحب وعذابه، فوجدت الأستاذ وقد بان على وجهه فجأة ملامح اكتئاب، وكأنه تذكر مشاعر انتابته في الماضي، ووجدته يقول بجدية شديدة: "هذا هو الثمن الذي يدفعه الإنسان عندما يحب وتعانده الظروف".
والحقيقة أنه ما أكثر الأشياء التي كنت أودُّ أن أسألها للعبقري، خاصة عن حياته الشخصية في مراحله العمرية المختلفة، ولكن لعن الله السياسة التي كانت تطغى بشراسة وبتلقائية على ندواته العامة وندوتنا الخاصة. ولا أعفي نفسي طبعًا من المسؤولية عن ذلك، فقد كنت في ذروة اهتمامي بالسياسة، وكنت عضوًا نشطًا إلى أقصى درجة بحزب الوفد، وكنت أكتب في جريدته مقالات سياسية بصورة شبه منتظمة. والآن بعد أن غاب عنا نجيب محفوظ، وأصبحت أفتقده من أعماق قلبي وعقلي، أندم الآن ندمًا فظيعًا على أنني لم أستغل الفرصة لكي أتعرف أكثر وأكثر على مشاعره الشخصية والحميمية تجاه كثير جدًا من الأشياء والأحداث والأشخاص.

ومن الأحداث المفاجئة في ندوة المعادي، أن رجلًا عجوزًا جاء إلى الندوة، وسلم على العبقري، وإذا به من المعارف القدامى له، لأنه تكلم معه عن أحداث مشتركة بينهما من الماضي البعيد، ولاحظت أن نجيب محفوظ لم يكن متحمسًا للتحدث معه، وكان واضحًا أن الرجل ليست لديه اهتمامات أدبية أو فنية أو سياسية، وإنما هو من معارفه أو من جيرانه. وفجأة وجدنا

الرجل يسأل نجيب محفوظ: لماذا لم يقبل بابنه عريسًا لإحدى بناته؟! وذهلنا من جلافة الرجل أن يسأل هذا السؤال أمام الحضور! ولكن الأستاذ نجيب رد عليه ببساطة وهدوء قائلًا:" أنا ربيت بناتي على الاستقلالية، ولا أفرض عليهم أحدًا وهن أحرار"، ثم أردف بحسم: "والموضوع ده محبش أتكلم فيه تاني"، وسكت الرجل تمامًا، وغادر الندوة بعدها بدقائق.

وسوف أذكر هنا كلمات أصف بها جزءًا أصيلًا من شخصية نجيب محفوظ، قد يراها القارئ تقليدية وإنشائية من كثرة ما تكررت في معظم السير والحكايات التي تُروى عن الشخصيات المصرية المهمة والمشهورة في معرض الإشادة بهم، ولكن ما حدث بيني وبين الأستاذ نجيب في حوار جانبي قصير جدًّا أكد لي أنه فعلًا عاشق للشعب المصري بكل كيانه. فقد كنت كما ذكرت أقرأ جرائد ومجلات يومية كثيرة من أجل أن أنقل للعبقري سواء في ندوته العامة أو الخاصة أحدث أخبار مصر والعالم، وخاصة بعد حادثة الاعتداء اللعينة التي أفقدته جزءًا كبيرًا من طاقته على القراءة والمشاهدة. وكنا جميعًا في الندوة، وكما هي العادة في الجلسات الجماعية تكون الأحاديث أكثريتها مركزة على نقد سلبيات المجتمع المتخلف. والظاهر أنني ركزتُ - وبطريقة جيدة للغاية - على المقالات والأحداث التي توضح مدى تخلف الشعب الغلبان، وفجأة، والجميع مشغولون بأحاديث جانبية، وأنا أقرأ للأستاذ

نجيب حادثة توضح مدى الانحدار الذي حدث في المجتمع، إذا به ينظر إليَّ بإمعان وفي صوته نبرة رجاء لم أسمعها منه قط قائلًا: "من فضلك يا كفراوي بلاش الأخبار دي". وذهلت من النبرة ومن الكلمات! وتوقفت على الفور، وجاء الخاطر الصحيح فورًا إلى ذهني، هذا العملاق لا يمكن أن يكتب بهذه الروعة ويغوص في أعماق المجتمع والمناطق الشعبية ليخرج منها لآلئ وكنوزًا أدبية إلا إذا كان عاشقًا بحق ودون أي افتعال لهذا الشعب الذي يكتب عنه، ولا يطيق أن يستمع إلى حقائق قد تهز الصورة والعشق الذي يحمله له في وجدانه! ولا أنسى ابدًا، وفي ندوة المعادي عندما سأله المهندس سامي البحيري، وقد كان مهاجرًا إلى الولايات المتحدة، إذا ما كان يومًا ما قد فكر في الهجرة هو وعائلته، وردَّ العبقري على الفور: أهاجر؟!! أهاجر ليه؟! كان مذهولًا أن يطرح عليه أحد هذا السؤال!

نفور طبيعي من الإسفاف

سألت نجيب محفوظ، في ندوة المعادي، كيف أصبح على ما هو عليه الآن من أخلاق رفيعة وجميلة؟ رد الدكتور زكي سالم قائلًا إنه سأل الأستاذ نجيب السؤال نفسه من قبل. ابتسم الأستاذ بخجل دون أن يرد، وقلت في نفسي: إنه بالقراءة، وقراءة كتب الفلسفة خاصة، فكثير من الفلاسفة الكبار وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني "إيمانويل كنت" آمنوا إيمانًا عميقًا أن الأخلاق هي أساس الإنسان السوي، وأن على الإنسان أن يكون ذا خُلق في كل خطوة يخطوها بصرف النظر عن أي مردود دنيوي أو ديني. وقطعًا تطوير النفس المستمر، كما أن التربية في الصغر عليها معول كبير، وأنه لا بد أن عائلته قد أحسنت تربيته!

كان العبقري يكره من أعماق قلبه الإسفاف والشتيمة في الحوار أو الكتابة. وأتذكر يوم أتى الأستاذ مكرم محمد أحمد، ندوة الأحد بشبرد لكي

يرجو نجيب محفوظ أن يسعى لدى صديقه الأديب ثروت أباظة ليعفو عن الصحفي جمال فهمي. والحكاية أن الأستاذ جمال فهمي ناصري متعصب، وكان الأستاذ ثروت أباظة لا يخفي في كتاباته وآرائه المنشورة كراهيته لكل ما تمثله الفترة الناصرية. فكتب جمال فهمي في جريدة العربي الناصري – على ما أتذكر – مقالًا كله تهجم على الأستاذ ثروت، ناعتًا إياه بـ"الملظلظ الذي يودُّ أن يجلسه على حجره"!، وباقي المقال على هذا المنوال. رفع الأستاذ ثروت قضية قذف وسب وكسبها، وتم الحكم بالسجن ستة أشهر على جمال فهمي. وجاء كما قلت الأستاذ مكرم، وكان نقيبًا للصحفيين وقتها، لكي يوسط نجيب محفوظ عند صديقه ثروت أباظة لكي يعفو عن جمال فهمي ويتصالح معه. طلب الأستاذ أن يستمع إلى المقال المذكور، وما إن استمع إلى كلمة " الملظلظ"، حتى ظهر على وجهه الاشمئزاز وصاح قائلًا: "بس.. بس"، ورفض تمامًا التوسط في هذا الأمر.

مثال آخر على أن العبقري يكره كل أشكال الإسفاف. كانت قد حدثت واقعة الاعتداء الجسدي على الأستاذ عبد الحليم قنديل، الكاتب الناصري المعروف، والظاهر أن أعضاء إحدى الندوات الأخرى، كانوا قد حكوا لنجيب محفوظ هذه الواقعة، وفسروها له بأن الأستاذ قنديل تم الاعتداء عليه بأمر من حسني مبارك، بسبب هجوم عبد الحليم قنديل المستمر والعنيف على رئاسة

مبارك وشخصيته. تعاطَفَ العبقري في بادئ الأمر مع عبد الحليم قنديل. أوضحت للأستاذ نجيب أنه بالرغم من هجوم قنديل المستمر على مبارك، فإن مبارك بريء من ضربه. وشرحتُ له حقيقة ما أظن أنه حدث. فالأستاذ قنديل كتب في جريدة معارضة، لا أتذكر إن كانت جريدة العربي الناصري أو الشعب، كتب يقول إن وزير الداخلية حبيب العادلي تزوج طليقة رجل الأعمال الملياردير السعد حتى يحصل على أموالها، ومن ثم يكون قد امتلك الأموال بجانب السلطة والنفوذ! وقلت للعبقري: إن وزير الداخلية رد على الإهانة، بالطريقة الوحيدة المتاحة له، وأن حرية الكلمة ليس معناها أن أستعمل قوة قلمي في إهانة البشر، وإلا عندئذ يكون لهم كل الحق في إهانتي بالطريقة التي يعرفونها. وأننا لنا كل الحق في نقد المسؤولين، ولكن دون إقحام الزوجات أو الخوض في الأعراض. ورد نجيب محفوظ بصوت كالرعد، وقد آثار اشمئزازه وغضبه ما سمعه: "الموضوع كده إتغير خالص"، ثم كررها بصوت عالٍ مرة أخرى، لكي يسمعها الجميع وهو ذاهب إلى دورة المياه مستندًا إلى الدكتور فتحي هاشم: "الموضوع كده إتغير خالص". والظاهر كما ذكرت أن العبقري عندما استمع إلى هذه الواقعة سابقًا استنكر التعدي على عبد الحليم قنديل، لذلك حرص بصوت عالٍ أن يخبر الجميع، أنه الآن، بعد أن استمع الى الوقائع الصحيحة، تفهم ما حدث ووضعه في إطاره الصحيح، فقد اعتبر أن المساس بالعلاقات الزوجية على صفحات جريدة أكثر بشاعة من أي اعتداء جسدي، أو هو يستحق أن يعاقب مرتكبه بالاعتداء الجسدي!

وأذكر هنا مرة أخرى، أن الأستاذ نجيب كان محافظًا تمامًا فيما يتعلق بتفاصيل الجنس في الروايات ولا يأتي ذكر الجنس أبدًا على لسان بطلاته، كما تعود أحيانًا الأدباء الغربيون، وإنما لا مانع عنده من ذكر التعليقات أو القفشات الجنسية على ألسنة أبطال رواياته من الرجال! وأتذكر، في ندوة شبرد، أن الأديب الشاب أحمد سعيد أعطاني قصة قصيرة من تأليفه عبارة عن صفحة واحدة، لقراءتها على العبقري، يصف فيها على لسان شابة مصرية، مشاعرها الأنثوية عندما تأتيها الدورة الشهرية، بطريقة صريحة إلى أقصى درجة، كما اعتاد أدباء الغرب. ضحكت امرأتان شابتان في الندوة عند قراءتي لأول عبارة، ولكن العبقري انتفض قائلًا: "لا.. مش سامع.. مش سامع" بطريقة رفض واضحة. فتوقفتُ عن القراءة، وابتسمنا جميعا من رد فعل نجيب محفوظ، بما فينا أحمد سعيد نفسه، الذي تفهم الموقف، فهو من جيل ونجيب محفوظ من جيل آخر، من عمر والده أو جده!

آراء في الفن والحياة والاغتيالات

سألت نجيب محفوظ، في ندوة الأربعاء بفندق سوفتيل عن أعظم موسيقى مصري في رأيه، فرد قائلًا، بعد تفكير: سيد درويش. وعن أعظم فنان كوميدي، أجاب بسرعة: نجيب الريحاني. وقد سألته: كيف تُوفي؟ فرد قائلًا: "إن نجيب الريحاني كان قد مرض بالتيفويد، وكان علاج المرض قد اكتشف حديثًا، ووصلت عبوة من الدواء للفنان الريحاني، وكان خوفه من المرض قد وصل أقصاه، فابتلع حبوب العبوة كلها مرة واحده فعجَّلت بوفاته".

كنت من المعجبين بالنقد السينمائي للدكتور رفيق الصبان، وعندما أبديت للأستاذ نجيب محفوظ هذا الرأي في ندوتنا الخاصة بهيلتون رمسيس، رد ببساطة: "إن هناك ناقدًا سينمائيًّا أفضل". سألته: من؟ رد قائلًا: "سمير

فريد". وكما ذكرت من قبل كان العبقري يقول رأيه ببساطة وصدق في الأدباء والنقاد وغيرهم من المشتغلين بالفن. وعندما أبديت دهشتي مرة من تفاهة ردود نجم سينمائي وتعليقاته لا أتذكر اسمه الآن في صحيفة أو مجلة ما، رد نجيب على قائلًا: "الفنان الممثل أو الممثلة ممكن أن يكون عظيمًا في تمثيله، ولكن في الحياة الحقيقية قد تجد مخه أد كده"، ووضع طرفي إصبعيه على بعضهما البعض يقصد مخًّا صغيرًا. طبعًا هو تعامل مع عشرات الفنانين والفنانات من خلال السيناريوهات والروايات ورئاسة الرقابة الفنية ومؤسسة السينما.

في إحدى ندوات سوفتيل بالمعادي، قال لنا العبقري: "إن أمين الشرطة محمد، المخصص لحراسته داخل الندوة، لديه بعض الخواطر الأدبية والاجتماعية التي يريد أن يقولها لنا"، ثم بلهجة قوية، أعطاه الأستاذ أمرًا: "تعال يا محمد"، وأفسحت مكاني للأمين المهذب لكي يأخذ مكانه بجانب أذن الأستاذ اليسرى. وتكلم الأمين محمد عن مشاعره كإنسان له أفكار وأحاسيس، خارج نطاق خدمته.

وقد حضر ندوة المعادي مرة أو مرات معدودة – على ما أتذكر – الكاتب خيري شلبي، والكاتب إبراهيم عيسى، والكاتبة ليلى الراعي، ابنة الناقد

الكبير على الراعي، والكاتبة نعمات البحيري، والممثلة ندى بسيوني. هذا بجانب أعضاء الندوة الدائمين؛ نعيم صبري، وزكي سالم، وعلي سالم، وعزيزة الياسرجي، وحسين عبد الجواد، وطبيب الأطفال الدكتور محمود الشنواني، وطبيب التخدير الدكتور حسن حسني، وطبيبة علم النفس الدكتورة سعاد موسى، وكاتب هذه السطور.

سأل أحد الموجودين في ندوة قصر النيل العبقري، بعد حصوله على الجائزة، عما إذا كانت المقالات التنويرية الرائعة التي كان يكتبها الدكتور زكي نجيب محمود تعدُّ نوعًا من الفلسفة، نفى الأستاذ نجيب هذا الأمر وبطريقته المحفوظية المعتادة، فالدكتور زكي نجيب محمود أستاذ يدرس الفلسفة، وهو مفكر محترم وتنويري عظيم، ولكنه لا يعد فليسوفًا بأي حال من الأحوال. وطبعًا كان نجيب محفوظ يتكلم من منطق من يعرف عن ماذا يتحدث، فقد كان أوائل دفعته في قسم الفلسفة بكلية الآداب. وقد ذكر الدكتور زكي نجيب نفسه أنه ليس فيلسوفًا، وأن العالم العربي كله ليس به فيلسوف واحد، وأن الفلاسفة قليلون جدًّا في العالم وعبر التاريخ، وهذا حقيقي، فالفلاسفة مثل سقراط وأرسطو وافلاطون وديكارت وكانت وهيجل وغيرهم معدودون عبر التاريخ الإنساني كله. مثلهم مثل مؤلفي الموسيقى السيمفونية كبيتهوفن وموتزارت وشوبان وغيرهم، فهم نادرون،

وكذلك عباقرة الروائيين كنجيب محفوظ وتولستوي وديستوفسكي وتشيكوف عبقري القصة القصيرة، وويليام فوكنر، وهيمنجواي، وطاغور، وغيرهم، معدودون جدًّا.

وقد كان العبقري يضحك أو يبتسم عندما يهاجم الأستاذ مصطفى أبو النصر، سياسات عبد الناصر، وهي علامة على موافقته، ولكنه، عندما أراد الأستاذ مصطفى، بندوة قصر النيل، أن يصل بنقده إلى درجة نفي الزعامة عنه، ردَّ نجيب محفوظ بإجابة حاسمة وهو يعنيها: "لا.. لا.. كان زعيمًا حقيقيًّا". وهذه الموضوعية، هذه النظرة النقدية التي يمتاز بها العبقري كانت لا شك من أسباب عمق رواياته وجمالها، وهي ما لفتت أنظار دول الحضارة الحديثة إليه وإلى فنه، فمن الفروق الواضحة بيننا نحن الشرق المتخلف، والغرب المتقدم، هو أننا لا توجد لدينا الموضوعية ولا النظرة النقدية، فنظرتنا لأى شيء وأي موضوع وأي إنسان هي إما أبيض أو أسود، ولا وسطية، فعندما نبغض إنسانًا نجرده من أي صفة حميدة، وعندما نحبه نعبده!!

أبديتُ اندهاشي إلى نجيب محفوظ في شبرد من أن جريدة مصرية، تعطي الصحفية سناء البيسي صفحة كاملة لتملأها، وأن القارئ يستصعب متابعة ما تكتبه هي أو غيرها، إذا ما وجد أنه مضطر لقراءة صفحة كاملة، فرد قائلًا وبسرعة: "كتاباتها كويسة"، وهكذا كان العبقري حاسمًا عندما يعترض على

رأي لا يعجبه أو يكون مؤمنا بغيره. لذلك كنت أتحاور معه وأنا منطلق دون تحفظ في ذكر ما أومن به، وما أعترض عليه، لأني مُدرِك تمامًا أنه سيوقفني أو سيعترض على رأيي ولو حتى بصمت مكفهر إذا كان لا يوافق عليه أو لا يعجبه.

عند اغتيال بوضياف رئيس جمهورية الجزائر عام ١٩٩٢، وكانت الطبقة الحاكمة هناك قد استدعته من مقر إقامته في فرنسا والمغرب، للعودة للجزائر كي يكون رئيسًا لها بعد غياب سنوات وسنوات، علق العبقري على اغتياله قائلًا: "الراجل بتاعنا (يقصد مبارك) عاقل، مش زي بوضياف إللي عاد من المنفى للجزائر ليرفع شعار محاربة الفساد وبلده بيعوم على بحيرة من الفساد، فتم التخلص منه سريعًا!".

وكان العبقري قد علق، في سياق حديثه عن جاكلين كينيدي التي كانت تملك حقوق توزيع كتبه في أنحاء أمريكا، على اغتيال زوجها جون كينيدي رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٣ وأول رجل من الأقلية الكاثوليكية يتبوأ هذا المنصب الرفيع، فقال العبقري: هم (يقصد الأغلبية البروتستنتية) الذين انتخبوه، وهم الذين قتلوه!"، في تلميح قوي بأنه، أي نجيب، لا يصدق أنه كان اغتيالًا فرديًا، وإنما مؤامرة.

تذكر أنك بشر

كان العبقري مُحبًّا لتنظيم وقته حتى النهاية، بما فيه الوقت المخصص لأصدقائه. وفي عيد ميلاده الأخير في الحادي عشر من ديسمبر، الذي صادف يوم أحد، يوم ندوة شبرد ، قررت أن أذهب متأخرًا عن موعدي المعتاد، وذلك لأنني توقعتُ أنه لا بد أن كثيرين من أصدقائه ومحبيه سوف يأتون دون ميعاد سابق، لتهنئته بعيد ميلاده، كما أنني توقعت أن مندوبي الصحافة والتليفزيون سوف يحضرون بالكاميرات، وهذا ما حدث بالفعل. دخلت قاعة الندوة، ووجدت الأعداد الكبيرة، وكاميرات تلفزيونية موزعة في أركان القاعة. كان موجودًا الدكتور مصطفى الفقي، والأستاذ إبراهيم المعلم، وكان الكاتب الصحفي محمد سلماوي يجلس بجانب نجيب محفوظ. ولكن ما أن اتجهت إلى العبقري لأحييه، حتى تعالت بعض الأصوات قائلة: "إنت فين يا كفراوي؟! الأستاذ بيسأل عنك". وقال لي الأستاذ إبراهيم المعلم: "هو أنت المهندس الكفراوي؟ ده الأستاذ بيسأل

عنك". وما إن سلَّمتُ على العبقري حتى بادرني قائلًا بضيق ظاهر: "إنت فين؟!"، وشعرتُ بفخر وامتنان، وانتظرت فترة نحوا عشر دقائق، ثم استأذنت الأستاذ سلماوي، وجلست في مكاني المعتاد بجانب أذن الأستاذ نجيب اليسرى. وأتذكر أنني قلت له في أثناء انشغال رواد الندوة بأحاديث جانبية، قلت له: "يا نجيب بك، مع كل هذا الاهتمام من البشر، والصحافة المحلية والعالمية، ومع كل هذه الكاميرات الموزعة في أنحاء القاعة، لا بد أن نعاملك كما كان الرومان يعاملون عظماءهم من القواد العسكريين بعد عودتهم المظفرة من المعارك. فقد قرأنا أنه عندما كان يدخل أحد هؤلاء القواد روما عاصمة الإمبراطورية، راكبًا العربة الحربية ذات العجلات التي تجرها سلسلة طويلة من الجياد. كانوا يضعون بجانبه في العربة، رجلًا مهمته أن يهمس في أذن القائد العظيم، وهو يلوح للجماهير الهادرة التي تحييه على جانبي الطريق، قائلًا: "تذكر أنك لست إلهًا، تذكر أنك بشر!". وذلك حتى لا يغتر هذا العظيم بهذه الجماهير التي تهتف باسمه، ويظل متواضعًا ودودًا. وما إن انتهيتُ من هذه الحكاية، حتى التفت إليَّ نجيب محفوظ، وعلى وجهه ابتسامته الجميلة الساحرة، قائلًا: "ما أنت بتقوم بالمهمة دي يا كفراوي". وشعرت بسعادة غامرة، وشرف ما بعده شرف.

في الندوة نفسها، تكلم البعض عن انتشار التيار الديني بشدة في صفوف الشعب، في الجامعات والأحياء... إلخ بسبب محاصرة الدولة لحركة

الأحزاب السياسية في الشارع، أو بسبب ضعف الأحزاب نفسها، أو لعدم اقتناع الشعب بالحياة الحزبية أساسًا! المهم أنني اقترحتُ أنه ما دام الوضع إذا استمر بهذا الشكل سيجعل المتطرفين هم فقط الذين يذهبون لصناديق الاقتراع، فيجب أن يُسمح لأفراد القوات المسلحة بحق التصويت في الانتخابات. وابتسم الأستاذ وقال لي بصوت خافت: "إنت بكده هاتفتح أبواب الجحيم!". وصاح الدكتور هاشم أستاذ علم الجمال بجامعة حلوان من آخر الصالة قائلًا: "أنت فاشي". وعندما استأذن العبقري بعدها ليذهب إلى دورة المياه مستندًا إلى ذراع الدكتور فتحي هاشم، تكلم الأستاذ محمد سلماوي قائلًا للحضور: "هذا الرأي، يقصد رأيي، لا يعبر عن رأي الأستاذ نجيب"، وابتسمتُ لأن الأستاذ سلماوي، شعر أن من واجبه أن يحمي الأستاذ نجيب من أن يظن البعض أن هذا رأيه، وهذا ما أكبرته في الأستاذ سلماوي، وابتسمتُ في وجهه، دون أن أعلق، وعذرته؛ لأنه لم يدرك من الأساس أن ندوة الأحد خاصة هي ندوة الليبراليين، بمعنى أن كل إنسان فيها يعبر عن رأيه هو، وليس عن رأي نجيب محفوظ، وهو ما يدركه تمامًا أعضاء الندوة الدائمون.

حوارات معه حول مؤلَّفاته وغيرها

خان الخليلي- زقاق المدق- بداية ونهاية- الثلاثية
الروايات الأربع الكبرى وما تُمثِّله

عندما تشرفت بمعرفة نجيب محفوظ معرفة شخصية، كنت قد عرفته قبلها من خلال رواياته العظمى التي ربطت اسمه بمصر مباشرة، ووضعته في مكانة تولستوي وديكنز وبلزاك وفيكتور هوجو وهيمنجواي وغيرهم من عظماء روائيي العالم بالنسبة لبلادهم. هذه الروايات هي التي تجذب القارئ فورًا كدوامة لا قبل له بمقاومتها إلى بحر نجيب محفوظ المصري بامتياز. وهي تضع مصر في مكانها الصحيح في عقل القارئ ووجدانه، كما تضع القارئ في خضم الأفكار والنظريات العلمية والفلسفية والسياسية التي تجعله مواكبًا لعصره. ومن ثم وأنا أتكلم مع نجيب محفوظ وأناقشه كأني أتكلم وأتناقش مع روايات "خان الخليلي" "وزقاق المدق" "وبداية ونهاية"

و"الثلاثية بين القصرين وقصر الشوق والسكرية" وأبطالها، هذه الروايات الأربع الكبرى بشخوصها قد انصهرت جميعًا في شخص نجيب محفوظ، فجعلته كأنه متحدثًا باسم مصر، والإنسان في العالم كله. هذه الروايات تحلل تاريخ مصر وأماكن عميقة فيها وتصفه وتشرحه في فترة عاصرناها، وأخرى عاصرها آباؤنا وأمهاتنا وأجدادنا، كما تشرح تطور الفلسفة والعلم والسياسة في العالم وتحللها في الوقت ذاته من خلال الأحداث والأفكار والشخصيات التي تذخر بها وبالتفاصيل الدقيقة، وبفن عبقري لا افتعال فيه، بحوارات سلسة معبرة وعميقة، يضفي عليها المؤلف سحرًا وروعة بتعليقاته التي تعكس قوة ثقافته الشاملة، وحس السخرية والفكاهة الذي يتميز به. فلا يكون هناك فيها مجال لأي غموض أو سؤال أو استفسار. وقد تناولها، أي هذه الروايات، كما قلتُ كبار نقاد الأدب وقت صدورها، أمثال رجاء النقاش ومحمود أمين العالم وغالي شكري، وقبلهم الدكتور طه حسين بالنقد والتحليل، وقرأناه جميعًا، بالإضافة إلى مرور زمن كبير بين كتابتها وبين توقيت معرفتنا الشخصية بالأستاذ، ومن ثم كان الأمر محسومًا، ولم يعد هناك مجال واسع للنقاش مع العبقري بشأن هذه الروايات الخالدة، وإنما هي قابعة في العقل الباطن للقارئ ولنجيب محفوظ ذاته، وهي الأساس الذي بنى عليه العبقري كل رواياته الهائلة والرائعة بعدها مثل؛ السمان والخريف والطريق وثرثرة فوق النيل وميرامار وأولاد حارتنا والمرايا والحرافيش وغيرها. كل الحوارات التي دارت مع العبقري، سواء كانت خاصة برواياته

ومجموعاته القصصية، أو كانت خاصة بأحوال الوطن والعالم والكون، إنما هي بطريقة خفية أو ظاهرة خرجت من رحم هذه الروايات الأربع الكبرى. ومن ثم سيجد قارئ هذا الكتاب أن معظم الحوارات مع العبقري تتناول كتبه الأخرى.

بيت سيِّء السمعة

ضحك العبقري من أعماقه عندما جلست بجانبه وأنا في شدة الغيظ من برنامج إذاعي استمعتُ إليه في السيارة في أثناء قدومي إلى الندوة، وكان البرنامج عن الولادة القيصرية للحوامل، وبدأت المذيعة تأخذ أقوال كبار أطباء النساء والولادة في مصر ورأيهم في الولادة القيصرية. أجمع كل الأطباء في البرنامج عن رفضهم تمامًا للولادة القيصرية، حتى أن أحدهم قال للمذيعة إنه ما إن تطلب منه السيدة الحامل أن يولدها بعملية قيصرية حتى يطردها فورًا من عيادته! ولذهولي، انتهى البرنامج، ولم تسأل المذيعة الذكية أيا من الأطباء الذين استضافتهم: لماذا يرفضون القيصرية؟!! والأعجب أنه لم يخطر على بال أيٍّ من هؤلاء الأطباء الكبار أن يذكر للمستمع لماذا يرفض إجراء القيصرية؟!! وذكرت للأستاذ نجيب العبارة الرائعة للمفكر الإنجليزي صمويل جونسون: "الجحيم هو انعدام المنطق".. وكما ذكرتُ

ضحك الأستاذ من أعماقه، وهي ضحكة يدرك عندها قائل الواقعة أنها قد مست العبقري بقوة.

وقد رجعتُ إلى مجموعته " بيت سيء السمعة "التي أصدرها عام ١٩٦٥ ففي قصة بعنوان "الصمت"، كان الجانب الفكاهي منها أن الطبيب الذي كان يولد زوجة فنان ممثل، أخذ يسأل الممثل عن أدواره وكيف يختارها... إلخ، في أثناء توليده الزوجة وهي تصرخ من الألم، وزوجها الممثل يتألم لألمها، والطبيب مستمر في أسئلته للزوج المضطرب عن معنى السيناريو؟! وهكذا استمرت الحوارات المثيرة للضحك بين الجراح المهتم بالفنان ومهنته والفنان المهتم بزوجته ومحنتها!

وقد أخبرت العبقري مرة بخصوص مجموعته وقصته التي تحمل اسم المجموعة "بيت سيء السمعة" أنه كان واضحًا ليبراليته الاجتماعية فيها، حيث كتب ينتقد بيوت شارع الملواني قائلًا: "كل بيت ينطوي على نفسه كالسر، النساء عورة والحب حرام، والزواج إجراء من اختصاص الرجال، والعروس آخر من يعلم...". وابتسم العبقري قائلًا: الأحوال كانت كده. فرددتُ عليه قائلًا: وما زالت كده يا نجيب بك في أنحاء كثيرة في مصر!

صباح الورد

دخلتُ على العبقري صائحًا بعد قراءتي مجموعةَ "صباح الورد": مش ممكن يا نجيب بك هذا الكم الهائل من الشخصيات التي تنبض بالحياة! هو مخك كومبيوتر؟ وضحك الأستاذ في سعادة قائلًا: "عجبتك؟" جميلة يا نجيب بك. شخصيات كثيرة جدًّا وكلها تنبض بالشجن والآمال والمعاناة ومحاولة اقتناص السعادة التي قليلًا ما تتحقق، وللحظات ثم تختفي ليعود الكفاح الذي لا ينتهي إلا بالموت. والزمن، ذلك الغول الذي يبتلع الجميع في جوفه، وكما نعرف جميعًا أن الزمن هو البطل الذي يتكرر في كل روايات نجيب محفوظ. ففي قصة "صباح الورد" التي هي في الوقت ذاته عنوان للمجموعة التي تحتوي على قصتين أخريين، كتب العبقري عن "آل إسماعيل" و"آل مراد" و"آل القربي" و"آل الجمحي" و"آل مكي" و"آل قيسون" و"آل حسب الله وفرج" و"آل شكري بهجت" و"آل السناوي" و"آل الفنجري"

و"آل الكاشف" و"آل ضرغام" و"آل العلوي" و"آل كناشة" و"آل عديلة الحرة"!! ويضمهم جميعًا شارع الرضوان. شيء مذهل، كل هذه العائلات بأبنائهم، بأقاربهم، بمعارفهم، تدب الحياة فيها، كأنهم يعيشون معنا وبيننا، ومع تدخل تعليقات العبقري المليئة بالفلسفة والعلم والتاريخ والفكاهة يشعر القارئ أنه يُشكِّل معهم ومع الوطن والكرة الأرضية والكون كله وحدة واحدة لا تنفصم. (والحقيقة أن هذا التعليق ينطبق على معظم روايات العبقري، وهو سر عبقريته وعالميته). ويبدأ حكاياته عنهم بعبارة شديدة الفكاهة والعمق تلخص حقيقة ما يقرؤه ويسمعه الإنسان في أحيان كثيرة، خاصة وسط الشعوب المتخلفة فيقول: "والعبرة في النهاية بما يقال لا بما حدث، ورب كذبة أصدق من حقيقة، فاستمع إلى شارع الرضوان ولا تكن من المتشككين.". ثم تأتي النهاية فيتحدث العبقري عن بطلة قصته الأولى "أم أحمد" تلك المرأة التي أصبحت همزة الوصل الباقية بين العباسية الشرقية والعباسية الغربية فيقول: "خطر لي ذات يوم أن أزور أم أحمد بعد انقطاع طويل، وجدتها في بيتها مع ابنتها المحالة إلى المعاش، كان بصرها قد كفَّ، وقدرتها على الحركة قد ولَّت، ولما عرفتني فتحت لي ذراعيها بحرارةٍ وشوق، ثم جلست على كرسي بجانب فراشها. لعل لسانها هو العضو الوحيد الذي بقي محافظًا على حيويته. ورحنا نتذكر ونتذكر ونقلب صفحات الماضي البعيد والقريب. جُلنا معًا في جنبات عالم حافل بالأموات، ألا ما أكثر الراحلين، كأن الوجوه لم تشرق بالسناء والسَّنى في ظلمات الوجود، وكأن الثغور لم

ترقص بالضحك، ها هي راوية الحكايات وطبيبة الحب والجنس والسعادة ملقاة على الفراش القديم تشكل عبئًا يوميًّا على أقرب الناس إلى قلبها. وما قيمة الحكايات يا أم أحمد وهي تتكرر بصورة أو بأخرى قبل أن تلقى نفس المصير، وقد عبرت الحارة من أولها لآخرها وانغمست في العطر القديم. رأيت قلعة آل سعادة مغلقة مهجورة كالبيت المسكون، أما السرايات الأخرى فقد صارت إحداها مدرسة والثانية مستشفى.. وتنبثق من الماضي أصوات وألوان ونبضات قلب، فأقول لها لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ثم فرَّقت بيننا الأيام، فإلى اللقاء في المقر الأخير". ما هذا الشجن يا عبقري؟

ليالي ألف ليلة والجريمة والفأر النرويجي

اعتدت، بين الحين والحين، أن أُردِّد وبصوت عالٍ وأمام الجميع، بعض عبارات عبقرية من روايات نجيب محفوظ تنطبق على أحداث تجري في الحياة أو تلخص ما يحدث في المجتمع، وكان العبقري يضحك ضحكته المحفوظية الرائعة المليئة بالسعادة، وأتذكر مثالًا عما أقول، في رواية" ليالي الف ليلة"، كانت هناك امرأة صارخة الجمال واسمها "أنيس الجليس " تذهب بعقل أي رجل مهما يكن. ودخلت إلى مكتب كاتم سر الحاكم ورجله القوي لتشكو له أنهم حرموها الصدقة والزكاة التي تستحقها، وانهار الرجل أمام جمالها الصارخ، وأراد نجيب محفوظ، أن يوضح مدى روعة جمالها وتأثيره في الرجل، وما سيخلفه من كارثة على مستقبله، كل هذا بعبارة واحدة، فكتب يقول إنها عندما دخلت وجلست أمام الرجل المهيب، قال لها الرجل "وهو يلقي بتاريخه من النافذة": هاشوفك إمتى؟! تأمل العبارة العبقرية: "وهو

يلقي بتاريخه من النافذة". ماضي الرجل وحاضره ومستقبله، لخَّصه نجيب محفوظ للقارئ في جملة واحدة! يا للعبقرية!

ومثال آخر في قصة قصيرة بعنوان الجريمة وهي من ضمن مجموعة قصصية رائعة كتبها العبقري وعنوانها أيضًا "الجريمة" عام ١٩٧٣ كان بطلها رجلًا من المباحث ومتخفيًا ليكشف عن جريمة حدثت في حي من الأحياء، ويفاجأ بأن جميع السكان متواطئون بصورة أو بأخرى في الجريمة؛ لأنهم لا يشعرون بالعدالة تتحقق بما فيهم رجال الأمن! وعندما ناقش البطل زميله المسؤول عن الحي عن سبب عدم تحقيقه للعدالة بين الناس، ردَّ عليه قائلًا: "إن واجبه هو المحافظة على الأمن فقط، فسأله وهل يُحفظ الأمن بإهدار العدالة؟ فرد المسؤول: وربما بإهدار جميع القيم! فأنهي البطل المناقشة والقصة قائلًا بعبقرية: "إذًا سأكتب في تقريري أن جميع القيم مهدرة، ولكن الأمن مستتب"! وكان نجيب محفوظ يضحك من أعماقه، وأنا أذكر هذه العبارة العبقرية الأخيرة.

ولا أنسى أبدًا كيف كانت سعادة نجيب محفوظ وضحكه وأنا أخبره أمام الجميع أنني لم أتوقف عن الضحك وأنا أقرأ القصة القصيرة "العريس" في المجموعة القصصية نفسها "الجريمة"، وهي عبارة عن رجل يطلب من صديقه أن يبحث له عن عروس، وبعد أن عثر عليها بدأت عائلتها ووالدها واسمه "عابد ميري" عملية السٍّؤال عنه وعن أحواله المالية والاجتماعية،

وعن تاريخه البعيد والقريب بطريقة هي قمة الفكاهة والعمق في الوقت ذاته!، حيث كشفوا له عن كل عيوبه أو ما يفترض أنها عيوبه، فبدؤوا بالسؤال عن صحته والرصاصة التي أصابته في الماضي، وعندما سُئل كيف أصيب بها أجاب: "في مظاهرة وطنية، قال له صديقه أنه من حسن حظه أن عائلة العروسة تعتقد أنه أصيب بها في ملهى للغناء والرقص!

فيقول لصديقه: أتعد ذلك من حسن الحظ؟!

فيرد صديقه: نسبيًّا، يمكن الدفاع عن عبث الشباب وطيشه أما التورط في شئون السياسة فيعرض الإنسان إلى أخطار مجهولة، وبالتالى تتعرض لها أسرته، على أنني دافعت عنك في هذا الشأن.

يرد: ماذا قلت؟

صديقه: قلت إنك لم تنتم لحزب، ولا تنتمي لرأي، وأنك مخلص للدولة".

وتستمر التحريات التي كانت غاية في الظرف والفكاهة، فيسأل صديقه: "طبعًا ما زالت التحريات جارية؟

فقال صديقه وهو يضحك: الحديث كان عن السلوك الشخصي.. كلام قيل عن القمار

يرد: كلا، لست بطبعي مقامرًا، لعبت مرات معدودات ثم لم أعد إليه.

صديقه: والخمر؟

يرد: دائماً كنت وما زلت معتدلًا، لم أفقد الوعي إلا مرة واحدة.

صديقه: آل ميري لا يخافون الشراب بقدر ما يخافون عواقبه.

يرد: لم تكن ثمة عواقب وخيمة.

صديقه: قيل إنك طولت لسانك على الاستبداد وأنت فاقد الوعي!

يرد: قلت لك إنني لم أفقد الوعي إلا مرة واحدة.

صديقه: ربما وقع ذلك في تلك المرة، وعابد ميري يخاف أن يتكرر ذلك بعد أن تكون قد صرت زوجًا وأبًا.

فيرد بحدة: لا أساس لخوفه، صدقني، ثم لماذا تذكر تلك الزلة، وتنسى مجاملاتي الطويلة للاستبداد وأنا في تمام الوعي؟!"

وتستمر الحوارات الساخرة العميقة على هذا المنوال السهل الممتنع إلى أن يصل الأمر بالتحريات الكوميدية إلى حد أن يعتقد عابد ميري أبو العروسة بأن العريس المنتظر هو المسؤول عن هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧! وعندما يفقد العريس رغبته نهائيًّا في الزواج، ويلعن اليوم الذي فكَّر فيه، ويستعد بكلام فظٍّ ليرد به على صديقه القادم من بعيد، تظهر عبقرية محفوظ الدرامية، ونفاجأ بأن صديق العريس يبادره قائلًا: "عابد ميري يحييك، ويرجو أن تحدد موعدًا لإعلان الخطوبة في أقرب وقت ممكن!" يا لعبقرية محفوظ! في رأيي المتواضع "العريس" من أجمل القصص القصيرة وأذكاها وأفكهها على الإطلاق.

وأيضًا في إحدى الشهور اشتكى المصريون من وجود فئران غريبة تأكل المحاصيل وتتلف الزرع، وأطلق الخبراء على هذه النوعية من الفئران اسم الفأر النرويجي، وانشغلت الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون بهذه المشكلة! وطبعًا لم يفت العبقري هذا الأمر، وخرج علينا بقصة قصيرة تحت عنوان "الفأر النرويجي"! وكانت على ما أتذكر عن عائلة عانت تمامًا في حياتها ومصالحها من مصائب هذا الفأر فاضطرت أن تستأجر خبيرًا في مكافحة هذه النوعية من الفئران النرويجية! المهم جاء الخبير وهو متدثر ببالطو وقبعة ونضارة سميكة، وبعد أن أدلى بخبرته وأصدر تعليماته لأفراد العائلة، وهم يستمعون إليه بتبجيل واحترام شديد، وفي أثناء جلوسه معهم على مائدة الطعام، تظهر شواربه في لحظة ثم تختفي، ثم يكتشفون ذيلًا له يخرج من تحت البالطو، وإذا به هو نفسه فأر نرويجي!

قصة قصيرة نسجها العبقري بجمل وحوار غاية في الفكاهة، وشديدة العمق أيضًا، فكما نعرف في الدول المتخلفة عمومًا يكون المسؤول في أغلب الأحوال هو حاميها وحراميها في الوقت ذاته كما يقول المثل! ولا أنسى ضحكة محفوظ وسعادته وأنا أحكيها للندوة واقفًا وبإلقاء شبه تمثيلي! وبعد نشرها في مجلة أدبية، لا أتذكر اسمها الآن، نشرها العبقري ضمن مجموعة قصصية اسمها "التنظيم السري" عام ١٩٨٤. ومن الغريب أن باقي قصص المجموعة غاية في الغموض، ولا تمتُّ بصلة لقصة الفأر النرويجي من حيث الظرف أو الوضوح أو الجمال!

قلب الليل وحديث الصباح والمساء

وفي رواية "قلب الليل" لفت نظري كلمات بطل الرواية "جعفر الراوي" بعد أن قتل "سعد كبير" وأدرك المصير المظلم الذي ينتظره فقال بأسى: "يا عقلي المقدس، لماذا تخليت عني؟" وقد سألت العبقري إذا كان قد كتب هذه العبارة تمثلًا بعبارة المسيح عليه السلام عند صلبه كما قيل: "يا إلهي، لماذا تخليتَ عني؟" وقد ابتسم نجيب ابتسامة غامضة ولم يرد! ربما لأني سألته أمام الحضور. ومن الجدير بالذكر أن القاتل والمقتول كانا ينتميان إلى الحزب الشيوعي. ولكن كان من عادة العبقري ألَّا يسترسل في شرح معاني عباراته وكلماته، وهو تصرف مفهوم، حتى يترك للقارئ حرية التفسير كما يريد.

وفي رواية "حديث الصباح والمساء" وكانت مكونة من ستة وستين شخصية تقريبًا مرتبة حسب الترتيب الأبجدي من الألف للياء، وكلها شخصيات من عائلات تتقابل وتتزاوج وتتوالد، ويتفرق أفرادها في الحياة

الواسعة، مُكوِّنة بانوراما تاريخية هائلة. ولا بد أنها كانت مهمة شاقة جدًّا على العبقري ليكتبها بهذا الشكل. وقد اضطررتُ لعمل جدول لأنساب العائلات وتزاوج بعضها ببعض حتى أستطيع متابعة الرواية! وذهبتُ إلى الندوة وأنا أحمل هذا الجدول وأنا سعيد بالنتيجة، ولأني اكتشفتُ من الجدول أن هناك خطأ في نسب من الأنساب لا أتذكره الآن. وأخبرتُ نجيب محفوظ بهذا، وحاولت أن أستطرد، ولكنه رد بسرعة بأن شكرني، ثم فهمتُ أنه لا يريد، أن أُحدِّثه عن هذا الخطأ.

المرايا وابن فطومة

وفي "المرايا" وفي تشريح للمجتمع المصري يقول زهير كامل أحد الشخصيات ضمن بانوراما هائلة من الشخصيات التي حفلت بها الرواية الرائعة: "أعتقد أن الناس أوغاد لا أخلاق لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد والسفلة؟!". (ملحوظة: هي نظرة الفيلسوف الإنجليزي الأشهر توماس هوبز نفسها، ونجيب محفوظ تقبع الفلسفة في عقله الباطن!). وكنت أختصر هذه الجملة إلى "كيف نقيم العدل والقانون في مجتمع من الأوغاد والسفلة؟! ويضحك العبقري من أعماقه. وتقول إحدى الشخصيات في الرواية نفس وهو كامل رمزي: "لقد عبدنا مصطفى النحاس يومًا لا لشيء إلا لنزاهته وصلابته في الحق، وهما صفتان

جديرتان بكل مواطن عادي، ولكن لندرتهما جعلنا منهما دعامتين أساسيتين لزعامة شعبية!". تأمل النظرة التشريحية الواقعية والمليئة أيضًا بالسخرية والضحك، خليط لا يبتكره إلا عبقري! الرواية الرائعة مليئة، بما لا يعد ولا يحصى، بهذه التعليقات والتحليلات الرائعة العميقة التي أبدع العبقري في كتابتها، وتحتاج وحدها إلى كتاب منفرد.

والحقيقة أن الأستاذ كان قد بدأ يميل بالتدريج البطيء إلى الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الليبرالية، وخاصة بعد هزيمة يونيو ٦٧، وبعد أن بدأ التصدع في الأنظمة الشيوعية في العالم وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي. وقد أظهر العبقري حيرته وبحثه عن الأنظمة الأكثر ملاءمة للإنسان، من خلال روايته "رحلة ابن فطومة" التي صدرت عام ١٩٨٣. فقد خرج الرَّحالة ابن فطومة ليبحث عن دار الجبل التي هي كما تصورها "دار الكمال". وفي أثناء بحثه ودورانه في أنحاء العالم صادف أشهر الأنظمة التي ينضوي البشر تحتها على اختلاف جنسياتهم وعايشها. فعاش في دار الحلبة (التي تمثل الدولة الرأسمالية.) فكما يدل اسمها، فأهلها يعيشون كأنهم في حلبة للتنافس والتطور والتقدم. هي دار الحرية، تمثل فيها جميع الديانات، فيها مسلمون ويهود ومسيحيون وبوذيون وملحدون ووثنيون، وأن الدولة لا شأن لها بالأديان وتعامل الجميع على قدم المساواة... فيقول ابن فطومة عنها: حرية لم أسمع عنها من قبل.. ثم ذهب لدار الأمان (التي تمثل الدولة الشيوعية)، في التأمين الشامل والمساواة التامة بين البشر، ولكن دون الحرية.

وعندما يتساءل ابن فطومة عن الحرية، يخبره دليله بحدة: "انظر إلى الطبيعة، أساسها القانون والنظام لا الحرية. فيرد ابن فطومة: ولكن الإنسان من دون الكائنات يتطلع دائماً إلى الحرية!، فيرد الدليل: إنه صوت الشهوة والوهم، لقد وجدنا أن الإنسان لا يطمئن قلبه إلا بالعدل فجعلنا من العدل أساس النظام، ووضعنا الحرية تحت المراقبة.. فيقول ابن فطومة أو نجيب محفوظ - لا فرق - لنفسه:" إنها دار عجيبة. أثارت إعجابي لأقصى حد، كما أثارت اشمئزازي لأقصى حد.". وعندما يحاول الذهاب إلى دار الجبل التي تمثل الكمال أي النظام المثالي الكامل، يجدها بعيدة جدًّا وطريقها وعر وصعب، ولكنه يصمم على بلوغها فيختفي بعدها تمامًا ولا يجده أحد، في دلالة على أن الكمال لا يوجد في الحياة الإنسانية، وأن الكمال لله وحده! والحقيقة إنني وجدتُ الرواية غير ممتعة، فلم أناقشه فيها قط.

ثرثرة فوق النيل وحكايات حارتنا

كما ذكرت كان العبقري يرفع وجهه باهتمام ملحوظ عندما تذكر أمامه معنى عميقًا مخفيًّا في ثنايا رواية من رواياته، أو قد يضحك من أعماقه ضحكته المجلجلة، عندما تذكر له عبارة من عباراته أو جملة من جُمله التي وردت على لسان أحد أبطال رواياته، تكون فكاهية وتكون قد مسَّت في الوقت ذاته هدفًا عميقًا من أهداف الرواية. ففي ندوة قصر النيل لن أنسى ضحكته المجلجلة عندما ذكرتُ أمامه موقف أنيس بطل رواية "ثرثرة فوق النيل" وهو يقف أمام مديره الذي يهدده بخصم يومين من مرتبه، "سارحا بفكره: "أنه عندما يتوهج في السماء نور، معلنًا أن نجماً قد انفجر وانفجرت بالتالي مجموعته الكوكبية وانتثر الكل غبارًا، وذات مرة تساقط الغبار على سطح الأرض فنشأت الحياة "..، وتقول لي بعد ذلك سأخصم من مرتبك يومين؟!" طبعًا المفارقة هنا واضحة ومثيرة للضحك بين تفكير أنيس في نشأة

الحياة في الكون وبين تفاهة الشأن الذي يحدثه به رئيسه في العمل، لذلك ضحك العبقري بسعادة، ومن أعماق قلبه، لأن المعنى قد وصل لقارئه.

وهنا لا بد ان أكرر وأركز على أن نجيب محفوظ، كان لا ينسى أبدًا، وهو يكتب عن أدق التفاصيل اليومية في حياة أبطاله، ويصف الأماكن التي يتحركون أو يقيمون فيها بدقة متناهية، كان لا ينسى أبدًا، أن يُذكِّر قارئه بالكون الهائل الذي يتمدد بلا نهاية، وأن كُرتنا الأرضية التي نعيش عليها ما هي إلا نقطة في محيط من النجوم والكواكب التي تدور بلا انقطاع.. فلا ننسى العلم والقضايا الكبرى التي تهم الإنسان عمومًا بصرف النظر عن دينه أو جنسيته أو لونه... إلخ، بجانب القضايا التي تهم الوطن.

تأمل بطل الحكاية رقم ٧٧ في رواية "حكايات حارتنا" وهو يقول ضاحكا: "تذكرت أنني طالب بين طلبة متنافسين، في مدرسة تجمع بين طلبة الأزقة المتخاصمة، في حارة وسط حارات متعادية، وأني كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة في كرة أرضية تهيم وسط مجموعة شمسية لا سلطان لي عليها، والمجموعة ضائعة في سديم هائل، والسديم تائه في كون لا نهائي، وأن الحياة التي أنتمى إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة شجرة فارعة، وأن عليَّ أن أُسلِّم بذلك كله، ثم أعيش لأهتم بالأحزان والأفراح، لذلك لا أتمالك نفسي من الضحك.". هكذا كان نجيب محفوظ، وهكذا أدركت لجنة نوبل أنها أمام روائي وطني إنساني كوني فذ، فأعطته جائزتها وهي مطمئنة.

عصر الحب

ومن الروايات التي تُظلل على أجوائها الكآبة من أولها إلى آخرها رواية "عصر الحب". مثلها مثل رواية السراب، لكن بطلها "عزت" عاجز من نوع آخر! هو عاجز عن فعل الخير مهما يحاول، وكأن الأقدار قد كتبت عليه اللعنة. وقد قسا فيها العبقري على الحارة، كأنه يلومها على أنها تضم أمثال هذا الرجل. فكتب يقول: "وفي حارتنا لا يُغض البصر عن نقيصة، ولا تُعفى نقيصة من القيل والقال، والحفظ والتسجيل، لذلك فليس أبقى في الذاكرة من سير الفتوات والقوادين والعاهرات، ونغالي فنؤرِّخ بهم الأحداث فتقرن الذكرى بحياة الضبش أو الدنف أو علية كفتة"!! وقد تجلت عبقرية نجيب محفوظ وهو يشرح المشاعر التي انتابت عزت عندما اكتشف حقيقة وضعه وذاته فقال: "عرف الوحدة وهو منغمس في خضم الناس.. أدرك أن جاهه زائف، وأنه يستمد نوره من أمه. إنه في الواقع حقير فقير عاجز.. إنه أسير

الحديقة والوسائد الناعمة، وتلك القوة الغامضة المجهولة. ولشدة ارتباطه بالحياة فَقَدَ الحياة الباهرة. إنه وفيٌّ للأسر ليشدو أغاني العذاب، وستجلو بدرية عن مجال أمله بعد أن أرست فيه طابعًا لا يبيد. وكتب عليه أن ينتظر أملًا لا يعود، وأن يبحث عن كائن ليس له وجود، واللعنة على الكبرياء التي يلقنها غر في مهد عبودية!".

ما هذه الروعة يا نجيب بك؟ هكذا قلت له بعد قراءتي أمامه هذه الجملَ البديعةَ والتحليلات العميقة والموسيقى التي تنطق بها الكلمات. وابتسم العبقري ابتسامته الرائعة التي تحمل معاني السعادة والامتنان.

السِّمان والخريف وميرامار

كما ذكرتُ من قبل أن حوارات العبقري معنا في ندواته كلها كانت تنطق بعشقه سعدَ زغلول وثورة ١٩ . وقد حاول نجيب محفوظ، عندما قامت ثورة ١٩٥٢ أن يتأقلم مع الأوضاع الجديدة، وبالرغم من أن رجال ثورة يوليو ٥٢ حاولوا تشويه ثورة ١٩ ونتائجها وزعمائها، فإن العبقري، كونه مصريًّا أصيلًا ومخلصًا، وكأي إنسان سوي، كان لا بد له أن يتفاءل ويفترض حسن النية حتى في أحلك اللحظات. حاول العبقري أن يعطي رجال ثورة يوليو ٥٢ الفرصة للنجاح والانتصار، كما ذكر لي في جلستنا الخاصة. ولم يكن منافقًا أو خائفًا عندما فعل ذلك وكتبه، كما ادَّعى بعضُ اليساريين والناصريين. ففي روايته الجميلة "السمان والخريف" التي صدرت عام ١٩٦٢، حاول قدر طاقته أن يُنصف ثورة يوليو بذكر بعض نقاط الضعف التي كانت قد اعترت رجال حزب الوفد، ويمثلهم بطل الرواية عيسى الدباغ. ثم في نهاية الرواية

يواجه عيسى الدباغ شابًّا من شباب ثورة يوليو، وفي حوار جميل وسلس ومتدرج، يقول عيسى للشاب الثوري المتحمس:

"لم يعد يهمني شيء.

فيرد الشاب قائلًا:

أما أنا، فكل شيء يهمني وأفكر في كل شيء.

يرد عيسى:

فلتطب لك الدنيا كما تشاء.

فيقول الشاب الثوري:

أليس هذا بخير من الجلوس في الظلام تحت تمثال سعد زغلول؟!

يرد عيسى:

هكذا هي تطيب لي فلا تشغل بالك بأمري.

يقول الشاب: أنت لم تقرر بعد أن تفتح قلبك لي.

عيسى: ولِمَ ذلك؟ ألا ترى أن الدنيا كلها مملة؟

الشاب: ليس عندي وقت للملل!

عيسى: ماذا تفعل إذًا؟

الشاب: أعابث المتاعب التي ألفتها وأنظر للأمام بوجه مبتسم، بوجه مبتسم رغم كل شيء، حتى ظُن بي البله.

عيسى: وما الذي يدعوك للابتسام؟

فقال الشاب بلهجة أكثر جدية:

أحلام عجيبة، ما رأيك في أن نختار مكانًا أنسب للحديث؟

فقال عيسى بسرعة:

آسف، الحق أني شربت كأسين وأرغب في الراحة.

فقال الشاب بأسف:

أنت تودُّ أن تجلس في الظلام تحت تمثال سعد زغلول.

فلم يجب عيسى بكلمة، فقام الشاب وهو يقول:

أنت لا ترغب في حديثي، فلا يجوز أن أزعجك أكثر من ذلك.. وتحوَّل عنه ماضيًا نحو المدينة.

وتابعه عيسى بعينيه وهو يبتعد. يا له من شاب غريب! ترى ماذا يفعل اليوم؟ وهل رحمته المتاعب، ولماذا ينظر إلى الأمام بوجه مبتسم؟

وظَلَّ يتابعه بعينيه حتى بلغ آخر الميدان، لم يكن سيِّئ النية كما توهم، ولم يقصده بسوء، فلم لم يشجعه على الحديث؟ ألم يكن من الممكن أن يستعين به على مغالبة الملل في هذه الساعة من الليل؟ أو لم يكن من المحتمل أن يجرهما الحديث إلى شيء مشترك تطيب به السهرة؟ ورآه وهو يختفي متجهًا نحو شارع صفية زغلول. وقال لنفسه: أستطيع أن ألحق به على شرط ألَّا أضيع

ثانية في التردد. وانتفض قائمًا في نشوة حماس مفاجئة، ومضى في طريق الشاب بخطى واسعة، تاركًا وراء ظهره مجلسه الغارق في الوحدة والظلام".

وتمت الرواية الرائعة التي يعلن فيها العبقري النظر إلى الأمام بتفاؤل وافتراض حسن النية وإعطاء الفرصة لشباب الثورة الجديدة ثورة يوليو ٥٢ لكي يُشكلوا المستقبل. وكما ذكرت، هذه المشاعر هي من شيمة أي مصري مخلص يريد لوطنه أن يتقدم للأمام، حتى لو على يد خصوم حزبه القديم العريق وثورته المفضلة! وظل الأستاذ نجيب على منهجه هذا، ولم يفقد الأمل في الإصلاح حتى بعد أن بدأت الأمور تتغير تغيُّرًا جذريًّا، وفُتحت المعتقلات من أوسع أبوابها، وتأله الحكام الجدد، وانتشرت رائحة الفساد في رجال الاتحاد الاشتراكي الحزب الأوحد، فكتب العبقري رائعته "ميرامار" التي تظهر فساد رجال الاتحاد الاشتراكي وانتهازيتهم ممثلةً في الشخصية الشهيرة "سرحان البحيري ". حتى عندها لم يفقد نجيب محفوظ الأمل في ثورة يوليو، فقد انتهت الرواية بالشخصية الوفدية القديمة "عامر وجدي" وهي تجتمع ب "زهرة" التي تمثل رمزًا للشعب المصري البسيط، لتعزيتها في صدمتها العنيفة في رجل الاتحاد الاشتراكي الذي وعدها بالسعادة والاستقرار ثم خدعها. قال لها الوفدي الأصيل:" ثقي من أن وقتك لم يضع سُدى، فإن من يعرف من لا يصلحون له فقد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود." ومن سخرية القدر أن هذه الرواية كتبها العبقري مباشرة قبل وقوع كارثة يونيو ٦٧!

قشتمر

ثم حدثت الطامة الكبرى بكارثة يونيو ٦٧. كان لا يمكن لحسن النية أن يستمر، ولا للتفاؤل أن يُعمي البصر، وإلا أصبح الإنسان معتوهًا أو ساذجًا أو ضعيف التفكير! وبدأت روايات نجيب محفوظ وقصصه القصيرة تتوالى وتنتقد وتتصاعد في انتقادها بصورة مباشرة مثل "الكرنك"، وبصورة غير مباشرة مثل قصصه القصيرة "تحت المظلة" وغيرها. إلى أن كتب روايته الرائعة "قشتمر" التي صور فيها تاريخ (شلة) من الرجال تشبه شلته الحقيقية من أيام العباسية القديمة من عام ١٩١٥. وكانت قشتمر هي القهوة التي يجتمع فيها (شلة) أبطال الرواية وعمرهم من عمر الأستاذ. وعاصر أفراد هذه (الشلة) تاريخ مصر مدة سبعين عامًا متواصلة حيث عاصروا ثورة ١٩١٩ وهم أطفال ثم ثورة يوليو ٥٢ ثم كارثة يونيو٦٧ فعبور أكتوبر ١٩٧٣ وما بعده. وفي هذه الرواية كانت تعليقات أبطالها كلها تشي بمشاعر نجيب محفوظ

الحقيقية التي استقرت في وجدانه بعد طول السنين، والنتائج التي توصل إليها عقله ووجدانه في نهاية المطاف. اكتشف العبقري واكتشفنا معه أن حبه الأول والأخير كان لثورة ١٩١٩، وأن الزعيم الذي لا زعيم غيره، في رأيه، هو سعد زغلول "فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض" صدق الله العظيم. وقد ابتسم العبقري في سعادة واضحة، وأنا أعلق على مواقفه النهائية بهذه الآية الكريمة. ونعود إلى الرواية لنقرأ فقرات منها توضح موقف العبقري. فقد كتب يصف العباسية القديمة ممثلة لمصر عام ١٩١٧ فيقول: "العباسية في شبابها المنطوي. واحة في قلب صحراء مترامية. في شرقيها تقوم السرايات كالقلاع وفي غربيها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية. تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكي. يشملها هدوء عذب، وسكينة سابغة، لولا أزيز الترام الأبيض بين الحين والحين في مسيرته الدائبة ما بين مصر الجديدة والعتبة الخضراء. ويهبُّ عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطيابها مثيرًا في الصدور حبها المكنون. ولكن عند الأصيل يطوف بشوارعها عزف الرباب المتسول بجلباب على اللحم، حافيا جاحظ العينين، يشدو بصوت أجش لا يخلو من تأثير نافذ: أمنت لك يا دهر.. ورجعت خنتنى".

تأمل الوصف الشاعري العميق والرائع للعباسية القديمة بقلم العبقري.

ثم يصف العباسية بعد مرور خمسين عامًا فيكتب: "أجل ذهبت في

أدراج التاريخ عباسية الزمان الأول، بالهدوء والخضرة والسرايات والترام الأبيض، واتشرت العمائر، وقامت الدكاكين على الجانبين، وفاض الحي بسكانه، واكتظت الشوارع بالصبية والسيارات الخاصة والعامة، إنه الزحام والضوضاء والأنفاس المتلاطمة، ولكن لم يجرِ هجرها لأحدنا في خاطر، ولا تصورنا أنه يمكن السمر في غير قشتمر... ازداد شعورنا الحميم بالمودة، ووجدنا في صداقتنا سلوى الوجود وحلاوته، وغلب علينا الاستسلام للواقع، وتخلصنا من كثير من رواسب الماضي، واجتاحنا ما يشبه النعاس الهنيء والحلم العذب حتى انتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان في يوم من الأيام عجيب اسمه ٥ يونيو ٦٧. دهشة وتساؤل وتعجب، حيرة وعدم تصديق، ثم دهشة وتساؤل وتعجب، تجرع لواقع لا مفر منه، كيف؟! لا ندرى، لماذا؟ لا ندري، ثم سيل ينهمر من الأحاديث، وفيضان من النكت، ومضطرب بلا حدود لعواطف متناقضة، من أقصى الحزن لأقصى الفرح، ولكن جرثومة الكآبة استقرت في أعماق كل نفس".

بعبقرية يرسم نجيب محفوظ صورة للعباسية القديمة وحبها المكنون في الصدور مقارنة بالعباسية ما قبل ٥ يونيو مباشرة، حيث كان هو وأصدقاؤه قد رضوا بالهم، ولكن الهم لم يرضَ بهم، فضربهم بكارثة ٥ يونيو! وسوف أبدأ بالعكس أي سوف أذكر بعضًا من مشاعر أبطال الرواية عن هزيمة يونيو٦٧ وأنتهي بذكر مشاعرهم في أثناء ثورة ١٩١٩ لكي أوضِّح كيف انجلت مشاعر نجيب محفوظ الحقيقية بعد كارثة يونيو ٦٧ تجاه رجال يوليو

٥٢، وكيف ظهر حبه الثابت القوي، ومشاعره الفياضة التي كان يعتقد هو شخصيًّا أنه قد تجاوزها لمصلحة المستقبل وتحت وطأة الأمر الواقع! وسوف أذكر التعليقات متوالية دون ذكر أسماء الأبطال للإيجاز، مع ملاحظة أن نجيب محفوظ هو الراوي في الرواية. يقول الراوي: "ولا شك أن سحابة من الأسى نشرت جناحيها فوقه لما حل بأخيه وزوج أخته الذي كان من كبار الملاك الزراعيين، ولما جرى على حزب الوفد، حزب أبيه، والبطولات التي أطلت على الدهر في شموخ، والتي تتحول من خلال أبواق الدعاية إلى تلال من الخرائب! إنها ثورة ذات أهداف جليلة، ولكن القدر عهد بها إلى (شلة) من قُطاع الطرق. أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامة. ألم يقل إنه علمنا العزة والكرامة؟ اشبعوا عزة وكرامة! اعرف لرجلك قبل الخطر موضعها.. ما أجدر أن نوجه هذه الحكمة لبطل ٥ يونيو. ها هو يطهر الثورة من سلبياتها ويعيد بناء الجيش من جديد.. سيزيف يصعد الجبل من جديد".

ثم يكتب نجيب محفوظ "ولما رحل الرجل عن دنيانا" لم يقل رحل الزعيم أو رحل قائد الثورة وإنما قال رحل الرجل! ولنقرأ تعليق (الشلة) على رحيل" الرجل" "لم يُخفِ صادق صفوان فرحه فقال: هذا خبر أمتع من شهر العسل، وقال حمادة ساخرًا: موته يعتبر من أمجد أعماله. أما إسماعيل قدري فقال: هرب في الوقت المناسب تاركًا الطوفان لمن يخلفه. واندمج صادق صفوان في حياته بطمأنينة جديدة قائلًا: أنا متفائل بالرئيس الجديد".

ويكتب نجيب محفوظ: "أما طاهر عبيد (الناصري) فقد وجد نفسه تحت حكم الزعيم الثاني (السادات) في عالم غريب كريه لا يحتمل، وأساء به الظن من أول ساعة وعده عميلًا لجميع القوى الرجعية في الداخل والخارج.. وامتنع عن الكتابة فلم يهتم به أحد.. ولما حدث النصر العظيم في أكتوبر ٧٣ تلقاه بفتور غريب، وراح يُرجع جذوره إلى البطل الراحل. إنه الوحيد في (شلتنا) الذي عَبَدَ الراحل في حياته وقدَّس ذِكراه بعد مماته، ولولا صداقتنا العجيبة لربما ضاق بنا وانصرف عنا".

ولندخل الآن إلى تعليقات الراوي نجيب محفوظ وحكاياته في رواية قشتمر عن ثورة ١٩١٩، وكان هو وزملاؤه أطفالًا، فيقول: "سمعت بابا يتحدث عن ثلاثة رجال ذهبوا إلى الإنجليز يطالبون باستقلال مصر! تساءلنا عن معنى ذلك، فقال حمادة: أي أن يخرج الإنجليز من مصر. وذهبنا إلى المدرسة. وهدر الفناء بالخطب الحماسية، ثم تدفق التلاميذ إلى الخارج في مظاهرة عاصفة. أول درس عملي نتلقاه في الوطنية. سرى في قلوبنا الحماس.. في بيوتنا سمعنا أصداء ما يحدث في الخارج تتردد بحرارة، لأول مرة يلتقي الآباء والأبناء في عاطفة متأججة واحدة. حتى الأمهات يصغين وينفعلن. أنباء المظاهرات يحملها إلى بيوتنا هواء ديسمبر البارد، ولكننا نتلقاها دافئة بل ساخنة. ومصارع الشهداء تُروى كالأساطير. دوريات الإنجليز تخترق شارعنا محمولة في اللوريات مدججة بالسلاح. الهتافات تترامى إلينا من الحسينية جنوبًا ومن الوايلية شمالًا. سعد.. يحيا سعد، الاستقلال التام أو

الموت الزؤام. وتذاع الأخبار في منازلنا: قُطعت المواصلات. المظاهرات في كل مكان.. الفلاحون يحاربون. زلزلت الأرض بغتة ولا تريد أن تسكت. تدفقت العواطف إلى قلوبنا لتخلقنا خلقًا جديدًا." "وغطى الحماس والقتال والضحايا على مسيرة الحياة اليومية. .وفي الفصل تطوع كل مدرس لتلقيننا درسًا في التربية الوطنية مستهينًا بأمنه وسلامته ومستقبله. وبفضل أولئك المدرسين العظام عرفنا ما أُخفي عنا من تاريخنا منذ الثورة العرابية، وعرفنا سعد كمثال للقوة والنضال والذكاء والنزاهة منذ شبابه الأول. وثملنا بما سمعنا، وانبثت فينا روح الوطنية التي لم تنتزع من قلوبنا حتى اليوم. وذاق البلد أول طعم للنصر بالإفراج عن الزعماء المنفيين، ثم شهد أعجب يوم في تاريخه يوم عودة سعد".

وبعدها يستمر الراوي نجيب محفوظ في وصف الأحداث مرددًا اسم "سعد" في معظم الجمل، كأنه يتمتع بترديد اسمه على الورق! بعكس قائد ثورة يوليو الذي لم يذكر اسمه مرة واحدة في الرواية! "قال إسماعيل قدري بحزم: نحن على أي حال مع سعد بسبب وبغير سبب وضد الملك بسبب وبغير سبب.. واتفقت قلوبنا على ذلك. في ذلك الزمان صهرنا الوفد في أتون وطنيته فبعثنا على يديه خلقًا جديدًا، ويومًا قال إسماعيل قدري: في مصر أربعة أديان، الإسلام والمسيحية واليهودية والوفد! فقال طاهر عبيد ساخرًا: والدين الأخير أعظمها انتشارًا"!

ثم يستمر الراوي نجيب محفوظ قائلًا "علَّمنا الوفد ماذا نحب وماذا نكره، وبأي قوة نحب وبأي قوة نكره واجتاحتنا القضية الوطنية وملكت قلوبنا، غطت على الأسرة والمستقبل والأمل الشخصي. واندفعنا مع طوفان الحزبية بنفس القوة والعنف ونبضت كل خلية من خلايانا بالحياة والإصرار." "وإلى جانب السياسة هبت علينا رياح الثقافة المنعشة البيضاء، التهمنا المجلات الأسبوعية والشهرية والكتب المؤلفة والمترجمة، وتنورت رؤوسنا بمصابيح مشعة مثل المنفلوطي والعقاد وطه حسين والمازني وهيكل وسلامة موسى، ودار الحوار حول الفكر كما يدور حول السياسة، وشملت اليقظة العقل والقلب والإرادة.".

وأنا أظنُّ أنه لم تكن هناك رواية للعبقري مثل "قشتمر" تتضح فيها عواطفه الحقيقية وعشقه الحقيقي لثورة ١٩ وزعيمها، وازدراؤه الواضح بل كراهيته لأي إنسان أو أي ثورة أخرى تحاول حتى أن تقارن نفسها بها، فضلًا عن ادعائها بفشلها! وقلت للعبقري ونحن في هيلتون رمسيس: يا نجيب بك، لقد نسيت أحيانًا في قشتمر أنك تكتب رواية، وتحولتَ إلى خطيب أو قائد مفوه يحدث جماهيره عن مزايا ثورة ١٩.. فرد العبقري مبتسمًا وسألني متعجبًا: كده؟! فسارعت بالقول: ولكن هذا لم يؤثر في جمالها. وهذا حقيقي. والحقيقة أن الثورة ضد المحتل الأجنبي تختلف تمامًا عن الثورة ضد حفنة من أبناء الوطن. فثورة ١٩١٩ كانت ضد الاحتلال الأجنبي، ومن ثم شعر جميع أفراد الشعب بالفخر والحماسة واسترداد الكرامة وهم يحاربون الإنجليز. أما

ثورة يوليو ٥٢ فقد كانت ضد نظام الحكم الملكي أساسًا، ثم ضد المتحالفين معه، ثم ضد الرأسماليين والرجعيين... إلخ، وغيرهم من أفراد الشعب المصري نفسه، وقد تم نعتهم بهذه الصفات من أجل التخلص منهم، ومن ثم تكون الثورة في هذه الحالة أشبه بحرب أهلية مصغرة، نتائجها غالبًا ما تكون وبالًا، ولا ينتج منها خير أبدًا؛ لذلك كانت كارثة ٥ يونيو نتاجًا طبيعيًّا ليوليو ٥٢. وكان تعليق العبقري مختصرًا مفيدًا: "عندك حق"!

يوم قُتل الزعيم

كما ذكرتُ من قبل حكى لنا نجيب محفوظ في ندوة قصر النيل كيف أن السيدة جيهان السادات تكلمت معه تليفونيًّا لتطمئن إذا كانت رواية "يوم قتل الزعيم" بها تعريض بزوجها الراحل أنور السادات، فأخبرها الأستاذ بالنفي. ولم يخبرها طبعًا بما قالته إحدى شخصيات الرواية الكارهة للسادات تعليقًا على الزي الألماني الذي ارتداه أنور السادات في احتفال من الاحتفالات: "الزي زي هتلر والفعل لشارلي شابلن"! والحقيقة أنني اختلفت مع الأستاذ نجيب في جزئية عصر الانفتاح الذي هاجمه بضراوة في الرواية، هو، وغيره من الكتاب والصحفيين الاشتراكيين وعلى رأسهم الصحفي أحمد بهاء الدين. فقد اتهموه - أي عصر الانفتاح - بأنه السبب في فقر كثير من المصريين، وشيوع الفساد والرشوة... إلخ، حتى أن الرواية، رواية يوم قتل الزعيم، كل أبطالها فقراء يقعون في براثن أوغاد فاسدين نتيجة عهد الانفتاح أيام السادات!

وقد اعترضت واختلفت تمامًا مع الأستاذ في تقييمه هذا، وأخبرته أمام الجميع أن عصر الانفتاح هو المسئوول عن خروج آلاف بل ملايين المصريين، وأنا من بينهم، إلى السعودية ودول الخليج، حيث عملنا وكسبنا أموالًا حلالًا، بعد أن كنا فقراء في عهد الانغلاق! وأن أي بلد في العالم يتحول من الانغلاق والحكم الاشتراكي إلى الانفتاح والاقتصاد الحر، لا بد أن يتعرَّض لمثل ما تعرَّضت له مصر، ولا بد أن يظهر في بداية التحول النصابون والمرتشون... إلخ، ولكن الأغلبية ستكسب وستنطلق، وقد حدث فعلًا أن خرج الملايين من المهندسين والمحاسبين والأطباء والنجارين والحدادين والسباكين والعمال وغيرهم، وكلهم رُزقوا حلالًا، وأنعشوا الاقتصاد المصري، وأن آخر من يحق لهم الحكم على عهد رأسمالي هم اليساريون والاشتراكيون والماركسيون!! وقد استمع إلى الأستاذ بكل ديمقراطية وود. والحقيقة أنني قبل أن أعرض رأيي هذا، وحتى أخفف من وقع اعتراضي، قرأت مقاطع من الرواية تعبر عما في صدر الأستاذ تجاه رجال ثورة يوليو ٥٢ من خلال شخصية الوفدي القديم محتشمي زايد الذي قال: "ما ذنب حفيدي يا حثالة الأرض؟، ورثتم أبناءكم المال والأمان وأورثتمونا الضياع والفقر والديون، وكأن الثورة ما قامت إلا من أجل سعادتكم وتعاستنا. أه يا ربي حتى متى أحنُّ إلى كرامات لا تتيسر؟ متى أطير في الهواء أو أمشي فوق الماء؟ متى أشير إلى الظالم فأصعقه وأريح الدنيا من شره؟ الحق أنها تجربة فاشلة، وأن الإنسان أعجز من أن يتعامل معها كنعمة كبرى فنجسها بالغدر

والأنانية والخيانة". ثم قال أيضًا: "فإلى جنة الخلد يا زمردة ويا لهلوبة ويا أم طاقية، ويا جميع المنحرفين والمنحرفات ممن لم نقر بفضلهم حتى ورد الزمان علينا بأبطال النحس والفاقة والهزائم".

كلام عنيف يُظهر مشاعر نجيب محفوظ، وانتقامه ممن حاولوا تلويث ثورة ١٩١٩ وزعيمها سعد! وعندما تطالب إحدى شخصيات الرواية بثورة، ويرد عليه آخر قائلًا: "هل تعني الثورة إلا مزيدًا من الخراب؟ يقول الوفدي القديم لنفسه: "يتحدثون عن الثورة (ثورة ١٩١٩) بلا معرفة. لم يسمعوا عنها، حكى لهم الراوي المأجور حكاية زائفة كاذبة. يبدأ المدرس المغلوب على أمره درسه بالسؤال الخائن: "لماذا فشلت ثورة ١٩١٩؟! يا أبناء الأبالسة، ألا توجد قطرة حياء؟! يا زبانية المعتقلات وعباد نيرون."

لا شك أن نجيب محفوظ كان يلعن من أعماق قلبه من حاول تشويه ثورة ١٩! كان يجاملهم فقط ليتقي هجومهم، وموقفه مفهوم وحوله هذه الأعداد الهائلة من الناصريين المنتشرين في كل مكان، يحاصرونه في أي مكان يجلس فيه، ويراقبون كل كلمة يكتبها في الجرائد والمجلات، بحكم سيطرتهم الكاملة عليها وعلى صفحات الأدب فيها. ويتذكر إحدى شخصيات رواية "يوم قتل الزعيم" وهو حفيد محتشمي زايد أن هناك من قال له: "الرئيس الراحل في هزيمته (يقصد عبد الناصر) أعظم من هذا في نصره (يقصد السادات). ويتذكر الحفيد رأي جده بهذا الخصوص الذي

قال: "نحن قوم نرتاح للهزيمة أكثر من النصر، فمن طول الهزائم وكثرتها ترسبت نغمة الأسى في أعماقنا، فأحببنا الغناء الشجي، والمسرحية المفجعة، والبطل الشهيد، جميع زعمائنا شهدا؛: مصطفى كامل شهيد الجهاد والمرض، محمد فريد شهيد المنفى، سعد زغلول شهيد النفي أيضًا، مصطفى النحاس شهيد الاضطهاد، جمال عبد الناصر شهيد ٥ يونيه، أما هذا المنتصر المعجباني (السادات) فقد شذَّ عن القاعدة، تحدانا بنصره، ألقى في قلوبنا أحاسيس وعواطف جديدة لم نتهيأ لها، وطالبنا بتغيير النغمة التي ألفناها جيلًا بعد جيل، فاستحق منا اللعنة والحِقد، ثم غالى بالنصر لنفسه تاركًا لنا بانفتاحه الفقر والفساد، هذه هي العقدة.".

هكذا ردَّ نجيب محفوظ للسادات اعتباره مقارنة بغيره. وطبعًا كالمعتاد كان العبقري يسعد بقراءتي فقراتٍ من رواياته على رواد الندوة. وللموضوعية أقول هنا، وقد قلت هذا للأستاذ في ندواته وكررتها كثيرًا، إنه كان قد وصلت للسادات أخبار مقلقة، أن بيجين رئيس وزراء إسرائيل الذي وقَّع مع السادات وثيقة كامب ديفيد، كان قد بدأ يفكر في التراجع عن انسحاب إسرائيل من سيناء حسب بنود الاتفاقية! وذلك بعد أن قرأ التقارير التي عرضتها عليه مخابراته التي أخبرته أن كل السياسيين المدنيين المصريين، وفديين وناصريين وشيوعيين وإخوان، كلهم يهاجمون الاتفاقية ويرفضونها. وبدأ الإسرائيليون يتساءلون: إذا كان كل هؤلاء السياسيين

كارهين للاتفاقية، فلماذا إذًا سننسحب؟! وشعر السادات بخطورة الموقف، وفي ساعات وفي يوم ٥ سبتمبر أصدر أوامره باعتقال كل هؤلاء؛ لكي يظهر حجمهم الحقيقي أمام بيجين، وليثبت له أن القوات المسلحة التي حاربت وضحت بآلاف الشهداء هي التي تضمن الاتفاقية، وليس هؤلاء المدنيين الضعفاء. واقتنع بيجين، وصدر أمره للإسرائيليين بالانسحاب، وفاز الوطن ورجعت سيناء الحبيبة إلى حضن مصر بفضل قرار من أروع قرارات السادات، وهي اعتقال هؤلاء الجهلة الذين كانوا، بحماقتهم وجهلهم السياسي، سيضيعون سيناء إلى الأبد! وكان السادات ينوي الإفراج عنهم بعد الانسحاب الإسرائيلي من سيناء. وقلت أمام العبقري إن هؤلاء الذين رفضوا كامب ديفيد والسلام مع إسرائيل، ينطبق عليهم تمامًا العبارات البليغة الموجزة التي قالها الجنرال وليام شيرمن أحد أعظم قيادات جيش الشمال المنتصر في الحرب الأهلية الأمريكية، عندما أتت إليه مجموعة من المدنيين الشماليين يحثونه على رفض السلام مع الجنوب، واستمرار القتال، فقال لهم عباراته الخالدة في التاريخ الأمريكي: "إن أولئك الذين لم يطلقوا في حياتهم طلقة واحدة، ولم يسمعوا أنَّات الجرحى في المعارك، هم وحدهم الذين يهللون للحرب. أيها السادة، الحرب هي الجحيم!" وكان تعليق نجيب محفوظ: "مظبوط كده".

وقد كنت دائمًا أُذكِّر العبقري برأيي أن فن "ممارسة القوة " هو فن غائب تمامًا عن المجتمع المدني المصري عبر تاريخه كله، لذلك اعتزل الزعيم المدني

مصطفى النحاس السياسة فور تمكُّن الجيش من مقاليد الأمور في ثورة ١٩٥٢، وقال قولته المشهورة: "إن الجيش مثل وابور الزلط يهرس أي شيء أمامه!" كما أن عباس العقاد الذي وقف في البرلمان في عهد الملك فؤاد وهو يقول بصوت عال: "إن البرلمان مستعد لسحق أكبر رأس في البلاد إذا حاول أن يعتدي على الدستور"، وكان يقصد الملك ذاته، اعتزل السياسة تمامًا بعد ثورة ٥٢، وعرف جيلي العقاد من خلال مقالاته في الصفحة الأخيرة بجريدة الأخبار عن النباتات وغيرها من الموضوعات البعيدة تمامًا عن السياسة! فمعدن المدني المصري مرن، ويتأقلم مع أي ظروف، أما علم أو فن "ممارسة القوة" فهو علم وفن يدرسه طلبة كليات القوات المسلحة والشرطة، لذلك يكتسبون معدنًا قويًّا يساعدهم فيما بعد على حكم المدنيين!

الحب فوق هضبة الهرم

الحقيقة يا نجيب بك أنت أنصفتَ السادات تمامًا في قصة "السماء السابعة" هكذا قلت للعبقري، فابتسم كعادته عندما يكون مبسوطًا بما يقال. و"السماء السابعة" هي من ضمن مجموعة "الحب فوق هضبة الهرم"، وهي قصة خيالية معقدة لا تمتُّ للواقع بصلة، يتخيل فيها العبقري أن كل زعيم لمصر، عند موته يصعد إلى السماء الأولى، فإذا كان مَرْضيًّا عنه تمامًا يصعد إلى السماء الثانية، أما إذا كان الرضا عنه غير كافٍ، فعليه أن يكون مرشدًا لشخصية ما على الأرض. فإذا كان الإرشاد مخلصًا لصالح الوطن والشعب ونفذته الشخصية بإخلاص، عندها يرتفع الزعيم المرشد إلى السماء الثانية. ويدور الحوار التالي بين بطل الرواية وبين كاهن طيبة. يقول البطل: "أود أن أعرف مصائر زعماء وطني؟ يرد الكاهن: اسأل ما بدا لك.

فيسأل: ماذا عن السيد عمر مكرم؟

فيرد الكاهن: إنه مرشد أنيس منصور.

وأحمد عرابي؟

إنه مرشد لويس عوض.

ومصطفى كامل؟

إنه مرشد فتحي رضوان.

ومحمد فريد؟

إنه مرشد عثمان أحمد عثمان.

وسعد زغلول؟

يرد الكاهن: هو وحده الذي صعد للسماء الثانية دون أن يحتاج إلى إرشاد أحد!

ويسأل البطل: ومصطفى النحاس؟

فيرد الكاهن: كان مرشد أنور السادات، وعقب ٦ أكتوبر وعودة الحرية صعد إلى السماء الثانية.

ويسأل البطل: وجمال عبد الناصر؟

فيرد الكاهن: إنه اليوم مرشد القذافي!".

قلت للعبقري: هذا الحوار هو أدق وأصرح وأوضح رأي قلته عن زعماء مصر يا نجيب بك! والحقيقة أنني كثيرًا ما كنت أعود إلى قراءة روايات العبقري التي كتبها قبل أن أتشرف بمعرفته شخصيًّا، حتى أقارن ما قاله فيها بما يقوله في رواياته التي كتبها بعد تاريخ معرفتي به، وحتى أتلو عليه ما أحببته فيها. وقد كتب العبقري مجموعته هذه قبل رواية "يوم قتل الزعيم" بسنوات، ولكن رأيه في السادات لم يتغير كثيرًا.

والحقيقة أن نجيب محفوظ كان قد بدأ يترك الكتابات الغامضة واللامعقولة بعد عبور أكتوبر ١٩٧٣، فبقية قصص المجموعة:" أهل القمة " و"الحب فوق هضبة الهرم " و"سمارة الأمير" كلها قصص تتناول الحياة الواقعية المصرية في هذه الفترة، فترة السبعينيات. وقلت للعبقري إن قصة "الحب فوق هضبة الهرم " تُجسِّد مأساة العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمعاتنا العربية المحافظة إلى درجة التعاسة. وهذه المجتمعات تصل في خنق الحريات إلى درجة لا تُقاس بأي شعبٍ من شعوب العالم غربه وشرقه، مما يؤدي إلى الحرمان الجنسي الهائل الذي عاناه بطل القصة، والذي يمثل ٩٩ في المائة من شباب الوطن! وكانت نتيجته انتشار هائل للزواج العرفي بين شباب الثانوي وشباب الجامعات، في الثمانينيات والتسعينيات. وهَزَّ العبقري رأسه موافقًا.

عبور أكتوبر العظيم

الباقي من الزمن ساعة

كما ذكرتُ أن العبقري قد عاد إلى طبيعته وهدوئه، مثل معظم المصريين، بعد عبور أكتوبر ٧٣. وبدأت معظم كتاباته تبتعد عن الغموض واللامعقول، بل إنه كتب رواية مماثلة للثلاثية (بين القصرين وقصر الشوق والسكرية)، ولكن يمتد تاريخ أحداثها إلى ما بعد عبور أكتوبر واتفاقية كامب ديفيد، أي إلى قرب نهاية السبعينيات من القرن الماضي، وفي صفحات تصل إلى أقل بكثير من صفحات رواية واحدة من الثلاثية! هذه الرواية هي "الباقي من الزمن ساعة"، وفي قلبها تعيش الشخصيات الكثيرة والمتناقضة التي يبرع العبقري في رسمها ووصف مشاعرها كالمعتاد، حتى يشعر القارئ أنها تنبض بالحياة كأنها أفراد من عائلته.

تناول العبقري فيها حياة المصريين بالتفصيل في العهد الناصري، وارتفاعه بتأميم قناة السويس، وسقوطه بهزيمة يونيو٦٧. وبينهما يصف جنازة الزعيم الوفدي مصطفى النحاس فيكتب يقول: "ولكن الجنازة كانت انفجارًا بركانيًّا غير مسبوق". وتساءل: "كيف حصلت هذه الأسطورة؟! أي طوفان من جموع بلا نهاية؟ أي هتافات تتطاير بشواظ القلوب؟ أي دموع تترقرق في الأعين؟ أي حزن يغشي الشيوخ والشباب؟ من أين جاء هؤلاء الشبان؟ كيف فرضت هذه الزعامة نفسها على القلوب ساعة الوداع بعد أن توارت عن السمع والبصر وغطتها أيدي الرقباء برداء النسيان؟ أما زال للوفد مريدون بهذا العدد؟ هل انضمَّ إليهم كل محب للحرية ومحروم منها؟! اضطربت الجموع في أسًى حميم عميق شامل، وكأنما تنعى الدنيا والأمل الوحيد".

وكتب في الرواية عن عبور أكتوبر يقول: "ارتفع صوت راسخ النبرات في الراديو يزف إلى الشعب نبأ عبور قواته المسلحة للقناة. أهي الحرب من جديد؟ تضاربت الأخبار بادئ الأمر، ثم تأكد النبأ المذهل. تجلى النصر في هالة سحرية كمعجزة باهرة تُحلق فوق الخيال والتاريخ. اندثرت شخصية صفراء مهزولة، وحلت محلها شخصية تضطرم بالعافية والثقة، تلاشت روح فاسدة مُكفَّنة في الهزيمة، وخُلقت روح جديدة تختال بالحبور والإلهام، تبخر يأس الهزيمة، وذُل القهر، وانكسار القلب، وهزجت الأنفس بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون. انتشل الرجل (السادات) مصر من الفناء،

وانتشل العرب...". ولأول مرة يصرح نجيب محفوظ بأن الماركسيين قد أزعجهم نصر أكتوبر على يد السادات، عدوهم الذي اعتبروه ممثلًا للرجعية والرأسمالية! فيكتب في الرواية عن مشاعر سهام (ماركسية) قائلًا: "سهام منيت بالهزيمة وحدها. قتل عزيز صفوت (ماركسي) من جديد، وانتصر العدو، ووُئد الأمل، وابتسم المستقبل للرجعية المصرية التي تحرر سيناء!"

أمام العرش

كنت وما زلت حتى اللحظة أومن بأن على الدولة أن تدرس رواية "أمام العرش" لطلبة المرحلة الثانوية، وصارحت الأستاذ بهذا في ندوة قصر النيل. وهي رواية تلخص تاريخ حكام مصر بداية من حكم الملك مينا، وتنتهي بفترة حكم الرئيس أنور السادات. كتبها نجيب محفوظ متصورًا حوارًا جميلًا وبسيطًا ومباشرًا يدور بين الحكام تظهر فيه سلبياتُ كل حاكم وإيجابياته، ومن قراءتها سيتعلم الطلبة المصريون، في مقتبل حياتهم، الموضوعية والأمانة في تناول موضوعات التاريخ والحياة ذاتها، هذه الموضوعية والأمانة التي يفتقدونها، حتى من آبائهم وأمهاتهم! ومَن أقدر وأكمل من نجيب محفوظ لكي يتعلموا منه الموضوعية والأمانة؟ والطريف أن سعد زغلول (ونجيب محفوظ طبعًا!)، في الرواية، لم ينس لعبد الناصر محاولته تشويهه فقال له: "لقد حاولت أن تمحو اسمي من الوجود كما محوت اسم مصر، وقلت عني:

إنني اعتليت الموجة الثورية عام ١٩١٩، فدعني أحدثك عن معنى الزعامة، الزعامة هبة ربانية وغريزة شعبية، لا تلحق بإنسان مصادفة ولا كضربة حظ أعمى، والزعيم المصري هو الذي يبايعه المصريون على اختلاف أديانهم... ثم يستمر قائلًا: "بيد أني رغم ذلك لم أضمر لك الرفض، واعتبرت تجنيك على نزوة شباب يمكن التسامح معها نظير ما قدمت من خدمات جليلة." ثم يستمر قائلًا: "وبالرغم أن ثورتك بدأت كانقلاب عسكري إلا أن الشعب باركها ومنحها تأييده، وكان بوسعك أن تجعل من الشعب قاعدتها، وأن تقيم حكمًا ديمقراطيًّا رشيدًا، ولكن اندفاعك المضلل في الطريق الاستبدادي هو المسؤول عن جميع ما حل بحكمك من سلبيات ونكبات.".

الشحاذ

ذهلت وأنا أتلو للعبقري في الجلسة الخاصة بهلتون رمسيس خبرًا علميًّا، لا أتذكره حاليًّا، كنت قد قرأته في إحدى المجلات، وإذا به يرد عليَّ ببساطة قائلًا "إن قوانين نيوتن صحيحة فيما يخص حياتنا على الكرة الأرضية، أما فيما لو خرجنا منها إلى الفضاء الفسيح، وما يخص الكواكب والنجوم والسرعات التي تدور بها، فإن نظريات أينشتين للنسبية هي التي تصح وتسري عليها. وقد بهرت بمعرفة العبقري بحقائق العلم هكذا!" وكنت أعلم من خلال رواياته بأنه دائما وأبدًا يبشر بأن مستقبل البشرية يعتمد على العلم، (على "عرفة" وكراسته في أولاد حارتنا)، ولكن لم أكن أعرف أنه يدرك نظريات علمية بهذا التفصيل. والحقيقة أنها كانت سذاجة مني أو قلة معرفة. فعندما زادت معرفتي بالفلسفة، أدركت أن الفلاسفة والعلماء كانوا واحدًا في بدايات العلم والفلسفة. ففيثاغورث وأرسطو وديكارت وبرترند راسل

مثلًا، كانوا علماء وفلاسفة في الوقت ذاته. ولذلك ليس غريبًا أبدًا أن نجيب محفوظ الذي تخرج في قسم الفلسفة بامتياز، وكاد يكون أستاذًا لها في الكلية لو كان المسئولون قد وافقوا على إرساله إلى بعثة لنيل الدكتوراه في الخارج، ليس غريبًا إذًا أن يكون مدركًا لنظريات علمية كبرى. وفي رواية "الشحاذ" بالذات يظهر فيها هوس نجيب محفوظ بالعلم والعلماء. والحقيقة أن بطل الرواية "عمر الحمزاوي" فيه الكثير من نجيب محفوظ! فقد كان عمر شديد الإيمان بالاشتراكية، ولكنه انشغل عنها بالعمل أولًا، ثم بدأ يبحث عن حل وإجابة للقضايا المصيرية الكبرى التي كانت وما زالت تشغل الفلاسفة على مر العصور، عن أصل الكون، وسر الحياة ومغزاها، وما الحقيقة المطلقة. إلخ. ثم آمن بالعلم إلى درجة التطرف، واعتقد اعتقادًا جازمًا أن العلم قد قضى على الفن والشعر وحتى مهنته، مهنة المحاماة، لم يعد يحترمها، وتمنى لو كان ذا مهنة علمية!! كتب العبقري على لسان عمر الحمزاوي يقول: "مات القانون قبل الفن، عهد الفن قد مضى وانقضى، وفن عصرنا هو التسلية والتهريج، هذا هو الفن الممكن في زمن العلم، ويجب أن نتخلى للعلم عن جميع الميادين عدا السيرك". ثم يقول: "وما نظن أنه الفن الحقيقي ليس إلا الضوء القادم من نجم مات منذ ملايين السنين"، ثم يقول: "قضى العلم على الفلسفة والفن". والحقيقة أن نجيب محفوظ قد بالَغَ في ذلك مبالغة شديدة ربما لأن النظام الناصري وقتها كان شديد الوطأة على حرية الصحافة وحرية الفن في مصر، وكانت الدول الشيوعية وقتها أيضًا في عِزِّ قوتها في جميع أنحاء

العالم (كتب نجيب محفوظ هذه الرواية عام ١٩٦٥)، مما أفقده الأمل في أن تصمد الفنون ومهنة المحاماة أمام هذه الأجواء القاتلة للحريات وللمهن الحرة. وكتب نجيب محفوظ يقول: "وقد بدأت مشكلة عمر الحمزاوي أو مأساته، كما يعترف لصديقه، بأنه كان مجتمعًا في مكتبه بأحد المتنازعين على أرض، فقال للعميل: "تصور أن أكسبك القضية اليوم وتمتلك الارض ثم تستولي عليها الحكومة غدًا!" (كما ذكرتُ، كتب العبقري هذه الرواية في ذروة وقت استيلاء النظام الاشتراكي الناصري على الأموال والممتلكات والأراضي والمصانع). فهز العميل رأسه في استهانة وقال: "المهم أن نكسب القضية، ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها؟" ويقول عمر لصديقه: "فسلمت بوجاهة منطقه، ولكن ذُهل رأسي بدوار مفاجئ، ومن هنا جاء تأثري بكلام الرجل الذي تردده الملايين كل ساعة دون أن يحدث أي أثر لأى إنسان."

وبدأت رحلة عمر الحمزاوي في البحث عن الحقيقة المطلقة.. سِر الحياة، وسر الموت، وسر الكون الذي يتمدد بلا نهاية. وفي موضع آخر يقول لصديقه: "أما أنا فأخطأت الطريق، استبدلت بالفن الزائل عملًا ينافسه في البلى، فالمحاماة كالفن من أعمال العصور البائدة، وفاتني مثلك أن أتعلم العلم، فكيف السبيل إلى نشوة الخلق المفقودة؟! الحياة قصيرة وأنا لا أنسى الدوار الذي أصابني عندما قال لي الرجل: "ألسنا نعيش حياتنا، ونحن نعلم أن الله سيأخذها؟" فيقول له صديقه: "هل تزعجك فكرة الموت؟" فيرد عمر

الحمزاوي قائلًا: "كلا، ولكنها تحتم عليَّ أن أذوق كُنه الحياة". وفي موضع آخر يقول عمر الحمزاوي لنفسه "فيا ترى ماذا أريد؟ أجل ماذا أريد؟ الفقه؟ لا يهم، والحكم لصالح موكلي؟ لا يهم، وإضافة مئات جديدة لحسابي؟ لا يهم، ونعمة البيت السعيد؟ لا تهم، وقراءة عناوين الصحف؟ لا يهم، فما رأيك في رحلة في الفضاء؟ في ركوب الضوء؟ شكرًا لسرعته الثابتة، الشيء الوحيد الثابت في هذا الكون الذي لا يعرف الثبات، المتغير بلا توقف، المتحرك في جنون.". تظهر هنا معلومات نجيب محفوظ العلمية الصحيحة والحديثة عن سرعة الضوء الثابتة في أي مكان وزمان ومن أي مصدر.

وتبدأ حياة عمر الحمزاوي في الانهيار، حيث يترك وراءه كل شيء، العمل والأسرة والأصدقاء من أجل البحث عن الحقيقة المطلقة، وينذره صديقه قائلًا: "عمرك سيضيع هدرًا، ولن تبلغ أي حقيقة إلا بالعقل والعلم والعمل". ويعود عمر الحمزاوي أو نجيب محفوظ ليبالغ قائلًا: "وقد تبوأ العلم العرش فوجد الفنان نفسه ضمن الحاشية المنبوذة الجاهلة، وكم ود أن يقتحم الحقائق الكبرى ولكن أعياه العجز والجهل، وحَزَّ في نفسه فقدان عرشه فانقلب غاضبًا أو عدوًّا للرواية أو لا معقولًا، ولما استحوذ العلماء على الإعجاب بمعادلاتهم غير المفهومة نزع الفنانون المنهارون إلى سرقة الإعجاب باستحداث آثار شاذة مبهمة غريبة، وأنت إن لم تستطع أن تستلفت أنظار الناس بالتفكير العميق الطويل فقد تستطيعه بأن تجري في ميدان الأوبرا عاريًا".

كان هذا هو تفكير نجيب محفوظ في هذه الحقبة الزمنية، والحقيقة أن العبقري قد جانَبَه الصواب تمامًا في هذه النقطة. وقد تذكرتُ أن نجيب محفوظ قد ذكر للصحف أكثر من مرة في تصريحاته عن الفترة التي توقف فيها عن الكتابة بأن السبب هو قيام ثورة يوليو والقوانين الاشتراكية التي طبقتها، وكان هو من أشد المؤمنين بالاشتراكية، ومن هنا ظنَّ أنه لا داعي للكتابة ما دامت أهدافه التي كان يسعى إليها قد تحققت! والظاهر أنه كان يظنُّ أن الغرض من كتابة الروايات والفن عمومًا هو الترويج لمبادئ الاشتراكية أو التقدم البشري! فلما فوجئ بأن التقدم العلمي المذهل سيكون له اليد العليا في فرض المبادئ الاشتراكية، وفي تقدُّم البشرية، فَقَدَ إيمانه بالفن الذي يقدمه هو وغيره. نسي العبقري أن الفن متعة هائلة لا غنى عنها للبشر بصرف النظر عن أي علم وأي مبدأ! وأن الإنسان الذي يعيش بالعلم فقط هو أقرب للروبوت، أي إنسانًا آليًّا بلا مشاعر أو أحاسيس. إنها غلطة كبرى للعبقري، ولكن الكمال لله وحده. ولحسن حظنا وحظ العالم أن العبقري لم يتوقف كثيرًا عند هذا التفكير، وإنما تخطاه كما صرح هو بنفسه، فاستأنف الكتابة ومتعنا بعبقريته سنوات طويلة بعد هذا التصريح. والحق يقال إن اهتمام العبقري بالفلسفة والعلم جعله يتخطى تمامًا التعصب الحزبي والعقائدي، كما تخطى عمر الحمزاوي عقدة الذنب تجاه صديقه القديم الثوري عثمان خليل، فالفلسفة والعلم أساسهما الحيادية الكاملة والموضوعية المطلقة فوق أي عقيدة وأي حزب.

قلب الليل وعدد الهلال

في فبراير سنة ١٩٧٠ أصدرت مجلة الهلال، عددًا خاصًّا عن نجيب محفوظ فقط، حيث بات واضحًا وقتها أنه قد أصبح روائي مصر والعرب الأول بلا منافسة. اجتمع عشرة من نقاد مصر الكبار على صفحات العدد ليسأل كل واحد منهم نجيب محفوظ سؤالًا واحدًا ليرد عليه. وكانت أسماؤهم بترتيب الأسئلة: أنيس منصور، رجاء النقاش، د. رشاد رشدي، رشدي صالح، د. فاطمة موسى، فؤاد دوارة، د. لطيفة الزيات، د. لويس عوض، معين بسيسو، د. مصطفى سويف. ثم السؤال الأخير للصحفي ضياء الدين بيبرس. هذا بالإضافة إلى مقالات نقدية عميقة بقلم أكبر نقاد مصر في الأدب والسياسة والفن التشكيلي والموسيقى والغناء والسينما!

سأله الأستاذ الناقد الكبير رجاء النقاش:

"عزيزي الأستاذ نجيب محفوظ:.. كنت قبل ثورة يوليو ٥٢ وفديًّا.. أما بعد الثورة فمن الواضح أنك أصبحت تميل إلى الفكر الماركسي...

فالماركسيون في رواياتك هم الأبطال والشهداء، وحاملو الزهور الحمراء، وهم الذين يضيئون الحياة بنور الأمل في الظلمات.. وأحيانًا يبدو نقدك للماركسيين هو نقد العشم.... أي إن مسارك السياسي كان من الوفدية إلى الماركسية... إنني رغم ما أحسُّ به من ميلك إلى الماركسية فأنا ألمح في كتاباتك ترددًا في إعلان إيمانك بهذه العقيدة السياسية.. فلماذا التردد؟"

فكان رد العبقري الآتي:

"عزيزي الأستاذ رجاء النقاش: لقد شخصتني، فأجدتَ التشخيص، فلو خيرت بين الرأسمالية والماركسية لما ترددت في الاختيار لحظة واحدة.. ولكن هل يعني ذلك أنني ماركسي؟!"

وبعد أن عرَّف نجيب محفوظ ما الماركسي، نفى عن نفسه إيمانه بها وقال:

"الإيمان الوحيد الحاضر في قلبى هو إيماني بالعلم والمنهج العلمي"

ثم قال: "أعترف لك بأنني أومن بتحرير الإنسان من: ١-الطبقية وما يتبعها من امتيازات كالميراث وغيره. ٢- الاستغلال بكافة أنواعه. ٣- أن يتحدد موقع الفرد بمؤهلاته الطبيعية والمكتسبة. ٤- أن يكون أجره على قدر حاجته. ٥- أن يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة في حماية قانون يخضع له الحاكم والمحكوم. ٦- تحقيق الديمقراطية بأشمل معانيها. ٧- التقليل من سلطة الحكومة المركزية بحيث تقتصر على الأمن والدفاع".

ويقول نجيب محفوظ مستطردا: "هذه صورة المجتمع الماركسي في نظري، الذي هدفه حرية الفرد وسعادته، والاعتماد في كل شيء على العلم، وربما التوجه في النهاية لمعرفة الحقيقة العليا أو المشاركة في خلقها.".

واجهت العبقري برده هذا، وقارنته بما ورد في روايته "قلب الليل" على لسان جعفر الراوي الذي أظن أيضًا أن فيه الكثير من شخصية نجيب محفوظ! فقد كتب نجيب محفوظ على لسان جعفر الراوي يقول: "كتبت مشروعًا يقوم على أساسه حزب جديد على أسس ثلاثة، أساس فلسفي، مذهب اجتماعي، أسلوب في الحكم، أما الأساس الفلسفي فمتروك لاجتهاد عضو الحزب، له أن يعتنق المادية أو الروحية أو حتى الصوفية، والأساس الاجتماعي شيوعي يقوم على الملكية العامة وإلغاء الملكية الخاصة والتوريث والمساواة الكاملة وإلغاء أي نوع للاستغلال، وأن يكون مثله الأعلى في التعامل: "من كل على قدر قدرته، ولكل على قدر حاجته"، أما أسلوب الحكم فديمقراطي يقوم على تعدد الأحزاب، وفصل السلطات وضمان كافة الحريات، عدا حرية الملكية، والقيم الإنسانية".

عندما قلت للعبقري مبتسمًا إن ردَّه عن سؤال الأستاذ رجاء، متطابق تمامًا مع مشروع حزب جعفر الراوي في رواية قلب الليل التي صدرت عام ١٩٧٥، ضحك قائلًا ومعترفًا إن معظم أبطال رواياته وروايات غيره من الكتاب لا بد أن يجد القارئ في بعض أفكارهم وتصرفاتهم تطابقًا مع شخصية الكاتب وأفكاره، وهذا طبيعي.

حكاية بلا بداية ولا نهاية

أثنيتُ لنجيب محفوظ على تطرقه إلى الصراع الواضح وغير المطلوب بين التدين والعلم في قصته "حكاية بلا بداية ولا نهاية " في المجموعة التي تحمل نفس الاسم. فيقول أحد أبطالها الشيخ محمود بحزن: "يا للذكريات... عرفنا ذات يوم أسماء جذابة كأرشميدس ونيوتن، وحقائق غريبة كالجزيء والحركة، ولم أتصور وقتذاك أنها ستطاردنا بعنف كالزمن." وفي موضع آخر يدور حوار شيق بين طالب العلم والشيخ، فيقول طالب العلم للشيخ:

"فاعلم يا سيدي أننا طلاب علم، نحب الحقيقة أكثر من أي شيء في الوجود، يؤسفنا أننا أزعجناك.

فيرد الشيخ:

نحن لا يزعجنا شيء. حتى الموت نفسه لا يزعجنا. ونحن طلاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد.

فيرد طالب العلم:

لعله اختلاف في وجهات النظر.

فيقول الشيخ:

لم يطالبكم أحد بالدخول في طريقتنا.

فيرد طالب العلم:

الآراء المتناقضة يا سيدي لا يمكن أن تعيش جنبًا إلى جنب في سلام.

فتساءل الشيخ بحرارة:

ألا تعلمون أنه لولا الأكرم، لولا الأكرمية، لما كان لحارتكم ذكر ولا لأهلها شأن أو أمل.

فيرد طالب العلم بثبات:

الدنيا تتغير بلا توقف ولا رحمة يا مولانا.

يرد الشيخ:

ولكن الحقائق باقية خالدة.

يرد طالب العلم:

التغير هو الشيء الوحيد الخالد يا مولانا!

الشيخ: التغير؟!

طالب العلم:

التغير في كل يوم، في كل ساعة، في كل لحظة.

الشيخ: أراك تتعلق بظاهر كاذب خداع.

طالب العلم: معذرة يا سيدي فالظاهر الكاذب هو الجمود.

وفي موضع آخر يقول طالب العلم للشيخ:

من أجل تحقيق البطولات قد نستعين بالعقاقير كما نستعين بها على مقاومة الأمراض!

ابتسم الشيخ على رغمه ولكنه قال بامتعاض:

حبوب للتضحية.. حبوب للشجاعة.. حبوب للأمانة.. ما شاء الله!

فيرد طالب العلم منفعلًا:

لا تسخر منا يا سيدي، إن جميع ما حولنا يثير الحزن الشديد. لقد ضقنا بكل شيء ونريد لكل شيء أن يتغير، وقد ورثنا هذا العالم عن آباء وأجداد ظُنت بهم الحكمة يومًا ما فحق لنا أن نتنكر لهم ولتراثهم.

فيتمتم الشيخ ممتعضًا:

أسفي على الآباء والأجداد.

فيرد طالب العلم:

نحن أجدر بالرثاء منهم!"

وقد كتب العبقري هذه المجموعة عام ١٩٧١ أي في أثناء فترة الاضطراب والهزيمة، هزيمة يونيو ٦٧. المهم أنه في النهاية يحدث التصالح بين الدين والعلم لكي تعيش الحارة في سلام.

وفي قصة "حارة العشاق" في المجموعة نفسها تظهر براعة العبقري في كتابة حوار بين زوجين، وكيف ينقلب هذا الحوار، في لحظات وبسلاسة مقنعة، وبأسلوب السهل الممتنع، من حوار عشق وهيام، إلى كراهية وغِلٍّ تصل بالزوجين إلى حد الطلاق الفوري! وتتكرر صورة هذا الحوار ثلاث مرات بين الزوج الشكاك وزوجته، بطريقة محفوظية تثير ضحك القارئ وتأمله في الوقت ذاته. وقد لاحظت أن العبقري يسعد إلى أقصى حد عندما يلاحظ القارئ مدى التناقض والسخرية التي يقصدها في بعض كتاباته. والظاهر أنه لم يقابل أمثال هذا القارئ كثيرًا، مما زاد - لحسن حظي - تقديره لشخصي!

حكايات حارتنا

وفي رواية "حكايات حارتنا" هناك ملاحظة في غاية الأهمية بالنسبة لنجيب محفوظ. الرواية كتبها عام ١٩٧٥، وهي عبارة عن ٧٨ حكاية يرويها بطل واحد هو الراوي لشخصياتٍ وأحداث مرت في حياته منذ الطفولة وحتى الكبر. ويذكر الراوي بدءًا من الحكاية رقم ١٢ وحتى الحكاية ١٩ أحداث ثورة ١٩١٩ المليئة - كما يتذكرها - بالسعادة والفخر والكبرياء لمصر والمصريين ولعائلته بالتفصيل. ثم بعد هذا تتوالى الحكايات والأحداث إلى نهاية الرواية بالحكاية الأخيرة رقم ٧٨ دون أن يأتي ذكر لثورة يوليو ١٩٥٢ وزعمائها عبد الناصر والسادات، بخير أو شر بأي صفحة أو سطر أو كلمة! أما عن الفتوات والقتل والعنف فحدِّث ولا حرج! ولا ينسى العبقري أن يذكرنا بقسوة حارتنا على النساء في عدة حكايات فيقول على لسان الراوي: "ألا يتيسر للجمال أن يهنأ بالبقاء في الحارة؟!" بعد أن حول أهلها حياة فتاة

جميلة إلى جحيم لها ولعائلتها!" وفي حكاية أخرى يقول: "والنساء مجبرات على البقاء في البيت، إلا لضرورة، منعًا للقيل والقال، تحبسهن التقاليد، يجمعهن الحرمان، يعذبهن الفراغ، يتسلين بالنقار"، "أسرة لا تعرف الموت كما لا تعرف الحياة"، ويقول في حكاية أخرى: "وتعلمني الخبرة مع الأيام أن حارتنا تقدس طائفتين؛ الفتوات والبلهاء". أما حكاية رقم ٥٣ فتستحق أن أذكر جزءًا كبيرًا منها لجمالها وخفة دم كاتبها نجيب محفوظ، وهي نوع من الكوميديا السوداء برع العبقري في التعبير عنه. وقد قرأتها كاملة على الأستاذ في ندوة قصر النيل وأنا أضحك وهو في غاية السعادة!

"الحكاية رقم "٥٣"، يكتب نجيب محفوظ:" من فتوات حارتنا حمودة الحلواني، ويُحكى أنه الوحيد بينهم الذي عمَّر حتى بلغ التسعين من عمره، كما أنه الوحيد الذي اعتزل الفتونة بحكم العجز والكبر. وقد تاب وحجَّ ولزم المسجد في آخر أيامه. ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب درس العصر، فقال للإمام: كثيرون يسيئون الظن بالفتوات، ولكن أولاد الحلال بينهم كثيرون! فابتسم الإمام وقال متهكمًا: إنك على رأس أولاد الحلال.

فقال الفتوة حمودة بإيمان: حصتي من الخير لا يُستهان بها.

رد الإمام: عظيم، أعطني مثلًا يا معلم حمودة.

رد الفتوة حمودة: أتذكر رجل الفل الذي اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات؟ أنا الذي دبرت مصرعه!

رد الإمام: ولكنها جريمة يا معلم.

قال: أبدًا، وأنا الذي قتلت سمعة الدنش الذي قتل ابن زوجته.

رد الإمام: ولكن ذلك لم يثبت وقد برَّأته المحكمة.

رد الفتوة: طظ في المحكمة، كان قلبي دليلي، وهو أصدق الحاكمين! ومن حسناتي أنني قتلت فهيمة الآلاتية القوادة المعروفة.

رد الإمام: قيل وقتها إنك قتلتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها!

رد الفتوة: لا تصدق كثيرًا مما يقال!

ضحك الإمام وقال: زدني علما بحسناتك!

رد: وقتلت أيضًا يمني الخيشي.

سأل الإمام: وماذا كان ذنبه؟

رد: العجرفة، كان يسير في الحارة كأنه خالقها.

قال الإمام: تعني أن نفسه سولت له أن يقلدك؟

رد الفتوة حمودة: إنك عنيد ولا تريد أن تعترف لي بفضل.

رد الإمام: لا تغضب وزدني علماً بحسناتك!

فضحك الفتوة حمودة ثم قال: حوادث القتل الباقية والتي فعلتها لا تعد من الحسنات وقد تاب الله عليَّ والحمد لله!"

حوار ساخر وكوميديا سوداء كُتبت بعبقرية محفوظ الهائلة.

رأيتُ فيما يرى النائم

إرهاصات أحلام فترة النقاهة

ولم يترك نجيب محفوظ موضوعًا أو حالة أو قضية محلية أو عالمية لم يتناولها في رواياته أو قصصه القصيرة. ولنأخذ مثلًا رائعته "رأيت فيما يرى النائم"، وهي مجموعة قصص قصيرة غاية في الغموض وغاية في الروعة، ولنتأمل قصة قصيرة فيها تحت عنوان "قسمتى ونصيبي". وهي عن حياة توأمين وُلدا ملتصقين، جسد واحد من أسفل، ومن أعلى اثنان برأسين، فسمتهما والدتهما باسمي" قسمتي" "ونصيبي". ويشرح العبقري باقتدار مذهل ماذا يدور في عقل كل منهما، وكيف تستمر الحياة بينهما. لم يحدث على حد علمي أن تناول كاتب روائي في العالم كله ما يدور في عقلي توأمين وقلبيهما، ملتصقي الجسد برأسين وشخصيتين منفصلتين تمامًا، هكذا قلتُ للأستاذ، الذي رد على بكلمته المتسائلة المعتادة: "كده؟!" بل إن العالم والعلم لم يحدث أن اقتحما

هذه المشكلة التعسة إلا حديثًا وفي مرحلة تلت وفاة العبقري بسنوات! وبدأنا من سنوات معدودة فقط نسمع عن عمليات جراحية متقدمة جدًّا لفصل التوأمين الملتصقين، وبدأنا نعرف معلومات عن مدى العذاب والتعاسة والرضاء في الوقت ذاته التي تنتاب هذين التوأمين قبل الفصل بينهما، والذي أحيانًا ينجح وأحيانًا أخرى يفشل، وتنتهي العملية بوفاتهما معًا! وعندما نعرف أن نجيب محفوظ كتب هذه القصة القصيرة وسط المجموعة عام ١٩٨٢، ندرك ساعتها مدى عبقريته، وأنه من أجدر من حصل على جائزة نوبل على مر عصورها. وأما بقية القصص القصيرة في المجموعة، فمنها سبعة عشر حلمًا تحت عنوان "رأيت فيما يرى النائم"، وكلها أحلام في غاية الغموض والروعة والعمق، ويأخذك فيها العبقري ومعه، بلغته الغنية، وأسلوبه الساحر، وجمله التي تحمل أكثر من معنى، إلى سِرِّ الكون، وسحره وعبق التاريخ، والحياة التي تنضح كما يصفها بالوحشية والجمال! ولنأخذ مثلًا الحلم رقم ٢ الذي يشرح بفن وجمال أخاذ، كيف بدأ الكون وكيف بدأت الحياة وقدر الإنسان في الكفاح المستمر فيها، والذي لا مفر منه، وأنه لا بد له، لكي يتحمل وحشيتها، أن يمتع نفسه بأي وسيلة كانت. فيكتب نجيب محفوظ، (وأنا هنا اختصرتُ الحلم بما لا يخل بالمعنى، ولكنه طبعًا يخل بالجمال والمتعة): "رأيت فيما يرى النائم حبة رمل ملقاة بين جذور أشجار.. جذبت انتباهي واستحوذت عليه ببريقها، وبما أوحته إلى بأنها تراني كما أراها.. ومضت تنتفخ رويدًا حتى آلت إلى كرة.. ووثبت وكأنما قذفتها

قوة في الفضاء.. وتمادت في الانتفاخ.. وركبني الارتياع، فعدوتُ بأقصى سرعة مبتعدًا عن مركزها المتفجر، عدوتُ منها، ولكني عدوتُ في مجالها وحضنها وقبضتها، فلا منفذ للهرب، ولا صبر على التوقف أو الاستسلام.. واستوى في شعوري البُعد والقرب إزاء تلك الكينونة المتمادية في التعملق بلا نهاية.. وتبين لي أنني لست الوحيد في المأزق، وأن ملايين يلهثون من العدو، وأن السُّحب تركض أيضًا والرياح وأضواء النجوم. وارتفع صوت قائلًا: رفهوا عن أنفسكم بالغناء. فتساءل صوت آخر: وهل يطيب الغناء والمطرب يتخبط في القبضة؟ فأصر الصوت الأول قائلًا: رفهوا عن أنفسكم بالغناء! وتحركت الحناجر تغني كلٌّ على ليلاه، وتضاربت الأصوات، فانقلبت عربدة تنضح بالوحشية والجمال".

نجيب محفوظ يدرك أن أحدث نظرية لبداية الكون وأدقها حتى هذه اللحظة هي نظرية "الانفجار الكبير" . .، وأن الكون بدأ مضغوطًا إلى نقطة شبه صفرية ثم حدث الانفجار الهائل، فانفجرت وتمددت هذه الكتلة المضغوطة إلى هذا الكون الفسيح بمجراته ونجومه وكواكبه. وما زال يتمدد حتى هذه اللحظة وإلى ما شاء الله! ونحن البشر على هذه الكرة الأرضية لا نملك إلا الكفاح المتواصل والتقدم المستمر؛ لنشق طريقنا وسط الأهوال والمخاطر، ولنمتع أنفسنا بالفن وبكل ما نستطيع أن نفعله لنخفف وطأة الوحشية والمعاناة في حياتنا. ولا أشك أن هذه المجموعة من الأحلام كانت هي الدافع للعبقري أن يتذكر هذا اللون من الكتابة، كتابة الأحلام،

بعد نحو عشرين عامًا من صدور هذه المجموعة! وبعد أن ضعفت قدرته على الإمساك بالقلم بعد نجاته من محاولة الاغتيال، فبدأ يكتب "أحلام فترة النقاهة".

والحقيقة أن المجموعة القصصية "رأيت فيما يرى النائم" وصل فيها العبقري إلى قمة تمكُّنه من الأسلوب واللغة والفن، بما لا يقارن مثلًا بمجموعته القصصية الأولى "دنيا الله" التي تبدو كأن كاتبًا آخر أقل مستوى بكثير هو الذي كتبها! وقد واتتني الجرأةُ أن أصرح برأيي هذا للأستاذ نجيب، الذي تقبَّل رأيي بسلام وهدوء، وردَّ قائلًا بتساؤل: "كده؟" وهو ردٌّ اعتدته منه عندما يكون غير معترض. والعجيب أنها، أي مجموعة "رأيت فيما يرى النائم"، أفضل بكثير من مجموعة "الفجر الكاذب" التي أصدرها بعدها عام ١٩٨٨. ولكني لم أصارحه بهذا طبعًا!

تحت المظلة

كتب نجيب محفوظ مجموعة "تحت المظلة" بعد هزيمة يونيو ٦٧ مباشرة؛ لذلك كانت كلها تسودها الرمزية والغموض الجميل، معبرة، خاصة القصة الأولى التي سميت باسمها المجموعة، عن اللامعقول الذي حدث في حياة المصريين، وعدم التصديق والرعب الذي سادهم من جراء الهزيمة المفاجئة والمدوية. وقد أخبرتُ العبقري بمدى جمال المغزى وعمقه الذي أنهى به المجموعة. فالقصة الأخيرة على هيئة يوميات، وهي الوحيدة التي لها أحداث واقعية واضحة، بعنوان "ثلاثة أيام في اليمن"، وهي يوميات في غاية الرقة والبساطة يتبادل كتابتها أديب ومقاتل مصري ذهبا إلى اليمن، أحدهما للزيارة والآخر للحرب، وتنتهي باستشهاد المقاتل.

وقلتُ للعبقري إن إنهاء المجموعة بحرب اليمن له دلالة واضحة على ما يقوله ويؤمن به معظم أبناء الشعب المصري، وهو أن حرب اليمن كانت بداية هزيمة يونيو ٦٧! وهي ضربة معلم من العبقري، وقد وافقني الأستاذ مصطفى أبو النصر، وهو ينظر إلى الأستاذ الذي قال كلمة واحدة: "تمام".

خمارة القط الأسود

وفي مجموعة " خمارة القط الأسود " التي كتبها هي أيضًا بعد هزيمة يونيو ٦٧، تكلَّم نجيب محفوظ بقسوة عن عالم الفتوات والبلطجية الذين عاثوا فسادًا في الحارة أو الوطن، لا فرق! وفي قصة "الصدى" إحدى قصص المجموعة، كتب بلسان أحد البلطجية يخاطب أمَّه، أو حارته، أو وطنه، لا فرق: "إنك لأمُّنا حقًّا، فأسلوبك هو أسلوبنا وقسوتك هي قسوتنا، وفي بعض أوقات الإرهاق والملل كنت أتساءل عما شكَّلنا بهذه الصورة الوحشية التي لا تعرفها الكلاب ولا الحمير ولا البقر ولا الجاموس" وقبلها يقول: "والساقية تدور ولا تحمل من باطن الأرض إلا العلقم، لم يجيء الأبناء خيرًا منا".

وفي قصة "المتهم" من المجموعة نفسها يقول البطل بعد أن اتُّهم ظلمًا بجريمة لم يرتكبها، وشهد عليه ظلمًا أيضًا فلاحون، ويحجزه ضابط بوليس لا يهتم، يقول عن هذا الكابوس الذي وجد نفسه فيه (وهو المعادل الموضوعي

لكابوس ٥ يونيو): "ولكنني لم أسهم في صُنعه، أو لعلني أسهمتُ وأنا لا أدري. وهأنا أفكر لأول مرة في حياتي. وسوف أفكر طويلًا وراء الجدران. وقد تم التعارف اليوم بيني وبين أشياء لم أعرفها قبلًا. المصادفة، القدر، الحظ، والنية والعمل، الفلاح والضابط والأفندي...ما يُذكر وما لا يُذكر. كل شيء يجب أن يُعاد التفكير فيه. كل شيء كشيء وككل. يجب أن نبدأ من الألف لنفهم كل شيء، ولنسيطر على كل شيء، وحتى لا يوجد شيء لا يذكر. وليس الزلزال بمسؤول، ولكن الجهل هو المسؤول، وعليك ألا تذعن بعد اليوم لدكتاتورية المجموعة الشمسية ولا للغة النجوم الغامضة".

لقد تسبَّبت كارثة يونيو ٦٧ في جرح هائل في عقل نجيب محفوظ وقلبه، مثل أي مواطن مصري عربي سوي، ولم يندمل الجرح إلا بعد ٦ أكتوبر ٧٣ مثله أيضًا مثل أي مواطن مصري عربي سوي. ونلاحظ هنا، كما ذكرت للعبقري، وكان سعيدًا بملاحظتي هذه، أنه في كل تفكير له في مشكلات الوطن، لا ينسى أبدًا أننا مرتبطون بالكون الهائل الغامض الساحر بنجومه وكواكبه وشمسه التي تعطي الحياة لكرتنا الأرضية.

ولا ينسى العبقري أن من ضمن مآسينا غياب الحب أو قهره، ففي قصة "البارمان" يُردد بطل القصة المصري أمام البارمان اليوناني بيت الشعر:

"كتمتَ الهوى حتى أضر بك الكتم ولامَك أقوامٌ ولومهم ظلم".

ويسأله البارمان اليوناني: هل هذا شعر؟

فيرد: نعم.

يعلق اليوناني: جميل حقًّا، ولكن أأنت شاعر أم عاشق؟

فيرد: عاشق.

فيسأله اليوناني: جميل، ولكن لماذا التكتم ولماذا الظلم؟

فيرد: هكذا الحب في بلادنا.

فيعلق البارمان اليوناني قائلًا: الحب أن تتكلم، وأن تحب، وأن تمرح مع من تحب.

فيرد بطلنا المصري قائلًا: هذا عند اليونان.

فيقول البارمان: عند اليونان والرومان.. وكل الناس.".

وقد حكى لي الأستاذ مصطفى أبو النصر أن نجيب محفوظ قد أخبره أنه في أثناء سفره هو ويوسف السباعي إلى يوغوسلافيا، جاءت إقامتهما في فندق فخم يطل على حديقة هائلة من الأشجار والورود. وفي الليل نزل الأستاذ مع يوسف السباعي للتنزه ليلًا في هذه الحديقة، وإذا بالبوليس اليوغسلافي يمنعهما من دخول الحديقة المظلمة! فظنَّا في البداية أن البوليس يرغب في حمايتهما من أي إنسان قد يباغتهما في الظلام، وإذا بالمفاجأة المذهلة، وهي أن

البوليس يحمي العشاق الذين يريدون الانفراد بعضهم ببعض، من المتطفلين كمحفوظ والسباعي! ولا شك أن هذه الحادثة الطريفة قد وضحت للعبقري الفارق الهائل بين حياتنا الاجتماعية ومدى بُعدها الشاسع عن الحرية التي يتمتع بها كل الناس، شرقًا وغربًا، كما ذكر البارمان اليوناني!

شهر العسل والشيطان يعظ

ويستمر العبقري في كتاباته الغامضة واللامعقولة في مجموعة "شهر العسل" لتكون رمزًا لحالة الاضطراب والغموض التي سادت مصرَ قبل عبور أكتوبر ٧٣.

ولم يترك العبقري شاردة ولا واردة في حياة الإنسان اليومية إلا وحلَّلها وعلَّق عليها، سواء بتعليقاته الفلسفية أو العلمية أو الفكاهية، حتى لو كانت تتناول جسده! ففي مجموعته "الشيطان يعظ"، وفي قصة "الحب والقناع" يحاور البطل زوجته المؤمنة دينيًّا فيقول لها: "إنني أتفق تمامًا معك، فما الإنسان إلا كائن ذو إفرازات كريهة ودوافع فظيعة مرعبة!

فترد: ماذا قلت؟ عنيت بالقذارة تخلخل الإيمان، ولكنك تتحدث عن إفرازات ودوافع كأنك عدو البشر أنفسهم!

فيقول: أعتقد أني لم أتجاوز الحق.

فترد: لا..لا.. معذرة إن قلت إنها نظرة غير عميقة، فما تشير إليه لا يمنع الإنسان من عبادة الله وغزو الفضاء.

فتساءل في نفسه: ألم يكن من الممكن أن يحدث ذلك بلا إفرازات كريهة ودوافع وحشية وسلوك دنيء؟!"

ثم في صفحة أخرى يقول عن ذاته: "كانت حياتي لعنة، ولكنها لم تخلُ من عبرة، فقد علمتني أن أتجنَّب الاستبداد بالغير، واحترام الآخرين فكرًا وعقيدة.. علمتني ألَّا أعدَّ نفسي مقياس الخير والشر في الوجود.". وفي مرة أو مرتين استعنتُ أنا بهذه العبارات الأخيرة الجميلة وأنا أتجادل مع العبقري، فضحك من أعماقه وغفر لي مجادلته! وفي موقع آخر من القصة يقول له صديقه: "مَن مِن الناس حولنا يحظى بشخصية واحدة؟ نحن في مسرح كبير، الجميع ممثلون، يقولون كلامًا جذابًا فوق الخشبة ويتهامسون بكلام آخر وراء الكواليس، هكذا الجميع من القاعدة حتى القمة، فليس في حياتك شذوذ، احذر أي تصرف جنوني، دع ذلك للمجانين من زبائن النيابة والسجون، عليك بالسلوك الجدير بإنسان عبثي، ملايين يمثلون بلا فلسفة ولكن بوحي من غريزة البقاء، ويواصلون الحياة في ارتياح واستبشار وسرور!".

وفي مسرحية "الشيطان يعظ " والتي سُميت المجموعة القصصية باسمها، يخرج الشرطي مُخاطبًا الجمهور، ممسكًا برجل معصوب العينين، ويشرح:

"ادَّعى هذا الرجل أنه توجد نجوم لا تُرى بالعين، فحُكم عليه بفقء عينيه". ثم يدخل الكواليس ويأتي بشاب آخر للجمهور قائلًا: "هذا الشاب طالب بمساواة الرجال بالنساء فقُضي عليه بالإخصاء". ثم يدخل الكواليس ليعود بنعش محمول ويخاطب الجمهور: "هذه جثة مجرم، احتجَّ جهرًا على تسخير جلالة الملكة للجني". ثم يرجع قائلًا: "وفي الغد البقية"، وعندما يسأل البطل الجني: "أهلكت المدينة كلها"؟ يرد عليه: "نعم". فيسأل مرة ثانية: "وما ذنب هذا الشعب التعس؟" فيردُّ عليه: "قررت إهلاك الظالمين بظُلمهم، والآخرين بنفاقهم وجُبنهم".

الحرافيش وجلال عبد ربه

ولنتأمل معًا شخصية من أبرز شخصيات رواية الحرافيش، إن لم تكن أبرز شخصيات رواياته كلها! جلال عبد ربه، هذه الشخصية الأسطورية التي تمثل أحلام الإنسان على مر العصور في القوة والخلود ومواجهة المرض والموت الحتمي في النهاية، فتفقد إيمانها أولًا ثم صوابها ثانيًا، ويأتيها الأجل المحتوم في النهاية. فجلال عبد ربه اختلطت عُقده النفسية في الطفولة (حيث شاهد بنفسه مقتل أمِّه بوحشية، ثم فُجع بوفاة حبيبته التي اختطفها المرض، ثم الموت، قبل أن يتزوجها)، بقوته الجسدية الهائلة التي اكتسبها في المراهقة حتى استوى رجلًا، بإرادته الفولاذية وشجاعته المذهلة، بحلمه المستحيل في مقاومة المرض وتحدي الموت ذاته! تأمل عبقرية نجيب محفوظ وهو يشرح كيف تكوَّنت عُقدة جلال عبد ربه عندما شاهد مقتل أمه فكتب يقول: "منظر تهشيم رأس أمِّه الجميلة انغرز في أعماقه، كابوس دائم يعذب

يقظته ويُكدر أحلامه. كيف تأتَّى لهذه القسوة أن توجد؟ كيف أمكن أن يلقى جمال نبيل تلك النهاية البشعة؟ لماذا وقع ذلك؟ لماذا صمتت أمه؟ لماذا اختفت؟ وماذا جنى حتى يُحرم من جمالها وحنانها؟ لِمَ لا ترجع الأيام إلى الوراء كما تتقدم إلى الأمام؟ لِمَ نخسر ما نحب ونعاني ما نكره؟ لماذا تذعن الأشياء لأوامر صارمة؟ هي أَمه ومبدعته ومهده وحبه، إنها روحه ودمه... إن العظام المحطمة الغارقة في بركة الدم لا تُنسى إلى الأبد".

ثم يصف العبقري كيف بدأ جلال عبد ربه يفقد صوابه وعقله بعد أن اختطف المرض والموت حبيبته "قمر" فبَغضَ الموتَ بُغضًا شديدًا وطَمِعَ في الخلود فقال: "ومضى الخريف يولي ويقبل الشتاء بقسوته القاهرة، وراح الهواء البارد يسفع الجدران، ويلسع العظام. وتطلع جلال إلى سحابة مظلمة فهام بالمستحيل.. كلهم يقدسون الموت ويعبدونه فيشجعونه حتى صار حقيقة خالدة"، "إننا نعيش ونموت بإرادتنا. ما أقبح الضحايا! دعاة الهزيمة.. الهاتفون بأن الموت نهاية كل حي، وبأنه الحق، إنه مِن صُنع ضعفهم وأوهامهم، نحن خالدون ولا نموت إلا بالضعف والخيانة".

ويصف العبقري خليط الشجاعة والإرادة والقوة المذهلة التي تجسَّدت في جلال عبد ربه في حوار موجز متصاعد وعبقري بين جلال وأبيه فكتب يقول:

"وتجسدت أفكاره المحمومة في صورة نسر مُحلِّق ذي صرير يدك الأبنية.

وسأله أبوه ذات صباح وهو يتثاءب:

لِمَ تأخرت عن تسليم الإتاوة لسمكة العلاج (سمكة العلاج هو فتوة الحيَ)؟

فأجابه ببساطة وثقة:

لا يفعل ذلك إلا الضعفاء الجبناء.

حملق الأب في وجهه برعب وسأله:

تتحدى الفتوة؟!

فقال ببرود:

أنا الفتوة يا أبي."

تأمل عبقرية الرد الموجز الذي أراد به نجيب محفوظ أن يصف مدى جبروت القوة والشجاعة والثقة والإرادة التي تجلت في جلال عبد ربه، رد على أبيه بثلاث كلمات فقط تعني كل هذا: "أنا الفتوة يا أبي".

ثم يصف العبقري حياة جلال عبد ربه، بعد أن دانت له الدنيا فيكتب: "دان له الأصدقاء والأعداء. ليس ثمة قوة تتحداه، ولا مشكلة تشغل باله، يتمتع طيلة الوقت بالسيادة والجاه والمال، اكتنفه الفراغ، وتسلل إليه التثاؤب، تركز تفكيره في ذاته، تجسَّدت له حياته في صورة بارزة واضحة

المعالم والألوان حتى النهاية الحادة العابثة، بدءًا من رأس أمه المهشم، ومعاناة الحارة المهينة، وموت قمر الساخر، وقوته المهيمنة بلا حدود.. ويتساءل: ما جدوى الحزن؟ ما فائدة السرور؟ ما مغزى القوة؟ ما معنى الموت؟ لماذا يوجد المستحيل؟".

ويمعن جلال في غيه، وفقدان إيمانه بخالقه، وطلبه المستحيل.

ويسأله أبوه ذات صباح:

"الناس يتساءلون: متى يتحقق العدل؟

فيرد جلال بامتعاض:

ما أهمية ذلك؟

فقال أبوه بدهشة:

إنه كل شيء يا بني.

فقال جلال بازدراء:

إنهم يموتون كل يوم، وهم مع ذلك راضون!

فيرد أبوه:

الموت علينا حق، أما الفقر والذل فبيدك محقهما."

ويستمر الحوار فيقول له أبوه وقد أدرك عدم ايمانه:

"أعوذ بالله من الكفر.

فيرد جلال بوحشية:

أعوذ بالله من اللاشيء!".

وتستمر شخصية جلال تتجه إلى مصيرها الحتمي بقلم العبقري فيكتب: "ما يدفعه إلى الجاه والمال والتملك قوة عمياء مجهولة، جوهرها القلق والخوف، كأنما يتحصن ضد الموت، أو يُوثق علاقته بالأرض حذرًا من غدره. لقد غرق في خضم الدنيا، ولكنه لم يغفل قط عن خداعها، لم تخدره ابتسامتها، لم يطربه عذب حديثها، كان حاد الشعور بلعبتها المرسومة، وغايتها المقصودة، لم يأنس للخمر ولا المخدر ولا الهوى ولا التكية، وكان إذا خلا لنفسه تأوَّه قائلًا: ما أشد عذابك أيها القلب!"، "وعندما سأله أخوه راضي:

لِمَ لا تتزوج يا أخي؟

رد قائلًا:

لِمَ الزواج يا راضي؟

فردَّ راضي:

إنه المتعة والأبوة والخلد.

فضحك جلال عاليًا وقال:

ما أكثر الأكاذيب يا أخي!

فتساءل راضي:

لمن تجمع هذه الأموال؟

يا له من سؤال! ها هو ذا الموت يطارده دائماً.. ها هو رأس أمه ووجه قمر يتجسدان من جديد. لن تنفعه القلعة ولا النبوت. سيذوي بهاء هذا الجمال المتألق، ستتقوض أعمدة هذه القوة الشامخة، سيرث المال قوم آخرون، وهم يغمزون ويسخرون، وستعقب الانتصارات الباهرة هزيمة أبدية".

يا العبقرية نجيب محفوظ الخالصة! وصف وأسلوب وتعبير عبقري للإنسان الذي يبتغي الخلود فيفقد إيمانه، ويحتقر البشر، ويندفع إلى المجهول، وينتهي نهاية وحشية. تقول له حبيبته الجديدة: "السعداء حقًّا من ينعمون بشيخوخة هادئة"، فيرد عليها بتحدٍّ: "السعداء حقًّا من لا يعرفون الشيخوخة!" وفي حوار آخر يقول لها: "أصارحك بأنني أحتقر الناس". فترد عليه قائلة: "ولكنهم مساكين"! فيقول: "لذلك أحتقرهم!" ويكمل وهو متقزز: "لا تشغلهم إلا لقمة العيش". ويكمل قائلًا: "لم لا يسلمون للجوع كما يسلمون للموت؟!" وعندما يذهب لمقابلة شيخ من الشيوخ المخاوين للجان والذي اعتقد أنه يمكنه أن يمنحه وصفة للخلود، دار بينهما الحوار الآتي، يسأله الشيخ: "ماذا تريد؟" يرد جلال: "أريد الخلود". يسأله الشيخ: "لماذا؟" يرد جلال: "هذا شأني"، يقول الشيخ: "ولكن المؤمن لا يتحدى إرادة الله: يرد جلال: "أريد ذلك، وأنا مؤمن"، يقول الشيخ: "إن ما تطلبه خطير". ردَّ جلال: "فليكن."

وقد طلب منه الشيخ عدة طلبات ومنها أن يعتكف عامًا كاملًا دون أن يرى أحدًا سوى خادمه! وبعده سيتحقق له الخلود!

وهنا أيضا تظهر عبقرية نجيب محفوظ في وصفه لتأثير الزمن والعزلة على الإنسان، فيكتب قائلا: "ومرَّت الأيام وهو مستغرق في عُزلته. يقتلع كل يوم من قلبه جذور العالم الخارجي، الفتونة والمال والمرأة المحبة الجميلة. يستسلم للصمت والوعي والصبر. يسليه الأمل والفوز الذي لم يطمح إليه إنسان من قبل. عاشر الزمن وجهًا لوجه بلا شريك. بلا ملهاة ولا مخدر. واجهه في جموده وتوقفه وثقله. إنه شيء عنيد ثابت كثيف وهو الذي يتحرك في ثناياه كما يتحرك النائم في كابوس .إنه جدار غليظ مرهق متجهم. غير محتمل إذا انفرد بمعزل عن الناس والعمل. كأننا لا نعمل ولا نصادق ولا نحب ولا نلهو إلا فرارًا من الزمن. الشكوى من قصره ومروره أرحم من الشكوى من توقفه".

ثم يصف العبقري شعور الإنسان عندما يتوهم أنه قد ظفر بالخلود فيقول: "عندما يدركه الخلود سيجرب آلاف الأعمال بلا خوفٍ وبلا كسل. سيخوض المعارك بلا تدبر. سيسخر من الحكمة كما يسخر من الحماقة. سيتقلد ذات يوم عمادة الأسرة البشرية.. إنه مؤمن بما يفعل. لن يتراجع. لن يخشى الخلود. لن يعرف الموت. سيظل الكون خاضعًا لتقلبات الفصول الأربعة، أما هو فربيع دائم. سيكون طليعة كون جديد. أول مستكشف

للحياة بلا موت. أول رافض للراحة الأبدية. إنما يخشى الحياة الضعفاء، أما معاشرة الزمن وجهًا لوجه فعذاب لا يعرفه الخيال. "، وفي آخر أيام العام الذي انعزل فيه عن العالم أحس بأنه "انتصر على الزمن بعد صموده أمامه وجهًا لوجه بلا رفيق. لا خوف منه بعد اليوم. فليهدد غيره بجريانه المنحوس. لن يُبتلى بالتجاعيد ولا بالشيب ولا بالوهن، لن تخونه الروح. لن يحمله نعش. لن يضمه قبر. لن يتحلل هذا الجسد الصلب، لن يتحول إلى تراب. لن يذوق حسرة الوداع." ثم "تجول عاريًا في الغرفة وهو يقول بطمأنينة: مباركة هذه الحياة الأبدية".

وفي عبقريةٍ مذهلة لنجيب محفوظ يصف علاقة الخلود بالفضاء اللانهائي والمجرات والكون الممتد إلى ما لا نهاية، فيكتب عن جلال عبد ربه، بعد أن توهم أنه أصبح خالدًا فيقول: "في جوف الليل تسلل إلى المئذنة، رقي سُلمها درجة درجة حتى انتهى إلى شرفتها العليا. تحدى جو الشتاء القارس في تسلطه الشامل على الوجود. تطاول رأسه إلى مهرجان النجوم الساهرة المنتشرة فوقه كمظلة. آلاف الأعين تومض فوقه، وكل شيء تحته غارق في الظلام. لعله لم يصعد، ولكن قامته طالت كما ينبغي لها. عليه أن يرتفع، أن يرتفع دائمًا، فلا سبيل إلى النقاء إلا بالارتفاع. وفوق القمة تسمع لغة الكواكب، وهمسات الفضاء، وأماني القوة والخلود، بعيدًا عن أنات الشكوى والخور وروائح العفن، الآن تشدو ألحان التكية بأغنيات الخلود، وتعرض الحقيقة العشرات من وجوهها الخفية، وينكشف الغيب عن شتى المصائر. من هذه الشرفة

يستطيع أن يتابع الأجيال في تعاقبها. وأن يؤدي لكل جيل دورًا، وأن ينضم بصفة نهائية إلى أسرة الأجرام الثانوية".

أما أثر هذا الخلود المزعوم على من حوله فقد شعرت حبيبته بأنه قد "خرج من عزلته مخلوقًا آخر، مخلوقًا يبهر بالقوة والجمال، ويرعب بالتقلب والجنون والحنكة والاستهانة ". وأما أبوه فقد "داخَلَه قلقٌ مرعب من ناحيته، وخُيل إليه أن علاقة الأبوة تُنتهك، وأن ابنه أصبح غريبًا لا يمت له بصلة، بل أصبح غريبًا بين الناس.. إنه قوي وجميل وعقيم وغامض".

وانتهت حياة جلال عبد ربه الطامع في الخلود بنهاية عنيفة مزرية، حيث قتلته حبيبته بالسُّم. وكان وصف مشهد مقتله، والمشاعر التي انتابته في أثناء احتضاره، وهو غير مصدق أنه يموت بعد أن اعتقد اعتقادًا جازمًا بخلوده، هو مشهد كتبه محفوظ بروعة وعبقرية.

حضرة المحترم

قلت للعبقري في ندوتنا الخاصة، وأنا أعلق على رواية "حضرة المحترم": يُخيل إليَّ يا نجيب بك، أن بعضًا من شخصيات رواياتك تختمر في ذهنك، وتخرج إلى النور، نتيجة اختيارك لصفة معينة من صفات البشر، تبرزها وتذهب بها في خيالك إلى أقصى درجة ممكن تصورها، فتتشكل الرواية على ما سيحدث لو أدمن الإنسان هذه الصفة، ثم تضعها على الورق! فمثلًا بطل "حضرة المحترم" موظف مثل حضرتك، وكلنا نعرف من تاريخك أنك كنت مثالًا للموظف المصري الملتزم تمامًا بعمله ومع رؤسائه، إلى أن تركت الوظيفة لتتفرغ للأدب. فتصورت لو أن إنسانًا أدمن الوظيفة، وعَبَدَها وعبد تصوُّراته عنها، ورَهنَ مستقبله بالكامل بها، فماذا ستكون حياته عندها؟، فخرجت هذه الرواية للنور! فرد العبقري: "جايز جدًّا، ولكن بطريقة غير واعية وبدون تعمد". وقد كان رأيي وما زال أن المسألة بها جزء كبير من التعمد والتخطيط، ولكني لم أجرؤ على التصريح بهذا للعبقري!

ويصف العبقري مدى هوس بطل الرواية بالوظيفة في ردِّه على حبيبته عندما تسأله: "ألست تغالي في تقديرك للوظيفة؟" فيرد قائلًا: "الوظيفة حجر في بناء الدولة، والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الأرض.". ويتطابق هذا الوصف المتطرف للدولة مع وصف الفيلسوف الألماني الأشهر "هيجل"، وبتعبيره نفسه تقريبًا. وهذا لا يخفى طبعًا عن فكر العبقري الذي كان متفوقًا في قسم الفلسفة. وهذا التقديس للدولة في العقلية الألمانية في ثلاثينيات القرن الماضي هو ما أدى إلى ظهور الديكتاتور هتلر، وهو ما أدى إلى حكم الاستبداد في الشعوب التي تقدس الدولة ووظائفها.

وفي وصف موسع تتجلى فيه خبرة العبقري بالوظيفة الحكومية، والخلفية التاريخية والاجتماعية والفلسفية لها في عقل الإنسان المصري، يكتب العبقري في الرواية: "إن الموظف مضمون غامض لم يُفهم على وجهه الصحيح بعد. الوظيفة في تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالمعبد، والموظف المصري أقدم موظف في تاريخ الحضارة. إن يكن المثل الأعلى في البلدان الأخرى محاربا أو سياسيًّا أو تاجرًا أو رجل صناعة أو بحارًا، فهو في مصر الموظف. وأن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا من أب موظف متقاعد إلى ابن موظف ناشئ. وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفًا معينًا من قبل الآلهة في السماء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية. ووادينا وادي فلاحين طيبين يحنون الهامات نحو أرض طيبة، ولكن رؤوسهم ترتفع لدى انتظامهم في سلك الوظائف، حينئذ يتطلعون

إلى فوق، إلى سُلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الآلهة في السماء. الوظيفة خدمة للناس، وحق للكفاءة، وواجب للضمير الحي، وكبرياء للذات البشرية، وعبادة الله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء".

والحقيقة أنه أحيانًا ما ينسى العبقري أنه يكتب رواية، وتدفعه قوة معلوماته التاريخية والفلسفية إلى المباشرة، وهو ما يخل - أحيانًا، وفي أجزاء منها - بالجو الفني لها! وطبعًا لم أجرؤ على مصارحة الأستاذ برأيي هذا. ومن الجدير بالذكر أنه، كمعظم شخصيات روايات العبقري وأبطالها، دائما وأبدًا ما يتدخل البطل الدائم والمهيمن في رواياته، وهو الزمن، ليفسد أو يغير من خطط البطل البشري للرواية، ويحطمها! وفي هذه الرواية المؤثرة، لم ينسَ البطل الموظف، في كل مراحل تقدمه في الوظيفة، أنه في صراع مستمر مع الزمن وأنه عدوه اللدود. فعندما ينصحه زميله في المكتب قائلًا: "على كاتب المحفوظات أن يخلع جاكتته وهو يعمل، أو أن يحيك لكوعه كمامة من القماش تقيه شر الغبار والإكلبسات". يرد البطل الموظف في سره قائلًا: "كل ذلك يسير، أما العسير حقا فهو كيف نتعامل مع الزمن.". وفي موضع آخر وبعد ترقيه يقول لنفسه أيضًا:" ما قيمة هذه المزايا حيال سرعة العمر أو مرض مباغت؟!" وعندما رفضته زميلته الشابة بلباقة كعريس متقدم في السن قال لنفسه: "ها هو الزمن يلهبه بسياطه، على حين أنه لم يعد يقوى على العدو"! وفي موضع ثالث يقول لنفسه: "هوِّن من أحزانك، لم تعد تتحمل كالزمان الأول، أجل يوجد تغير جديد، خفيف كالنسيم، ولكنه ماكر كالثعلب. إنه

السن، وإنه الزمن.. بفضله نحقق كل شيء، وبسببه نخسر كل شيء، ولا يبقى إلا وجه ربك ذي الجلال.".

وتتناثر هنا وهناك وفي أكثر من موضع من الرواية كعادة العبقري دائمًا في كل رواياته، كلمات وعبارات علمية وفلسفية غاية في العمق والشمول والجمال، تأمل خواطر بطل الرواية الموظف الذي تمَّت ترقيته من المحفوظات إلى إدارة الميزانية: "ورفع عينيه إلى السماء فرأى النجوم الساهرة. مستقرة فيما يبدو، ولكن لا شيء جامد في الكون. وقال إن الله خلق النجوم الجميلة ليحفزنا إلى النظر إلى أعلى. وأن المأساة أنها ستطل يومًا من عليائها فلا تجد لنا أثرًا. ولا يتحقق معنى لوجودنا إلا بالعرق والدم.". وفي موضع آخر، يكتب:" في لحظة من لحظات الحياة يستوي من أخذها مأخذ الجد، ومن لها بها لهو العبث والهزل!". ثم تأتي الضربة قبل القاضية لهذا الموظف الذي يحارب الزمن حربا ميؤوسًا منها، عندما يُصاب بأزمة قلبية، بعد أن ظنَّ أنه حقق السعادة أخيرًا بزواجه بزميلة شابة حسناء أحبته!

وعندما يعتقد قارئ الرواية أنه لم يعد هناك مزيد من الضربات والتعاسة لهذا الموظف المناضل، إذا بعبقري الدراما نجيب محفوظ يجعل بطله يغادر الفراش ليجرب قُدرته على الوقوف بعد الأزمة القلبية، وعندما يخرج إلى الصالة يستمع مصادفة إلى حوار تجريه زوجته الشابة مع عمّتها بصوت خافت، وإذا به يكتشف، مع القارئ، أن زوجته الشابة الجميلة ما تزوجته

إلا طمعًا فيما لديه، وأنها تندب حظَّها التعس معه!! وكان العبقري سعيدًا لأقصى درجة عندما أخبرته بمدى روعة هذه المفاجأة وهذه النهاية، وأنه أستاذ ومعلم في الدراما؛ لهذا نبغ أيضًا في كتابة سيناريوهات الأفلام السينمائية.

ما أظننش يا كفراوي إني هاحضر الفترة دي !

سألت نجيب محفوظ، ما إذا كان يأمل أن رواياته الرائعة ستخلد إلى الأبد؟ فرد قائلًا: "لا.. سوف تعيش على الأرجح نحو مائتي عام". وقد عُدتُ بعدها إلى العدد الخاص من مجلة الهلال الذي صدر في فبراير ١٩٧٠ والذي خصصته المجلة بالكامل عن نجيب محفوظ، وقد سأله الصحفي ضياء الدين بيبرس السؤال نفسه ولكن بتوسُّع.

سأله ضياء:

"ماذا سيبقى من نجيب محفوظ للتاريخ؟! أعرف جيدًا أنك تسخر من فكرة الخلود في الفن. لمستُ هذا من سهر أسبوع كامل من تسعين حديثًا وحوارًا لك في عشرات الصحف والمجلات المصرية والعربية لأختار منها رحيق فكرك وخلاصة حياتك.. ولكنك كمن يحرص على الموت فتوهب له الحياة. وقد فرضتَ نفسك على الخلود أو فرض الخلود نفسه عليك رضيتَ

أم أبيت. والذي أطمح إليه هو أن أظفر منك بتقييم ذاتي لمراحل تطورك، وأيها، في رأيك سيظل في دائرة الضوء؟ وأيها سيختار في تواضع أن يتوارى في دائرة النسيان؟".

وقد أجابه نجيب محفوظ بالآتي:

"عزيزي الأستاذ ضياء.. نحن في زمن العلم والتطور السريع، ما كانت تقطعه الإنسانية في دهر ستقطعه في يوم. كل ساعة سيخلق ذوق جديد وتذوق جديد. وبفضل التعليم العام ستظهر مواهب لا حصر لها، يُعطي كلٌّ عطاءه ويذهب مشكورًا. لقد أمكن حتى اليوم أن يطلع المثقف على التراث أو أكثره، ولكن ماذا يصنع غدًا إذا نظر وراءه فوجد الآلاف بل الملايين من الفنانين والأعمال الفنية؟ لن يبقى له إلا أن يستوعب عصره وربما العصر المؤثر فيه مباشرة. وما الحاجة إلى الرجوع إلى وراء في عصر يكتشف كل ساعة عن جديد؟! لن يبقى منا شيء وما ينبغي له. لن يبقى من فننا شيء، ولكن قد تبقى مصر لمن يحب مصر، ولمن يحب أن يراجع بعض صفحاتها القديمة. ربما لهذا السبب وحده تبقى، أو تقترب من البقاء، الثلاثية أو زقاق المدق، لا كأعمال فنيةٍ، ولكن كوجهٍ من وجوه مصر.".

وقد تحدثتُ مع نجيب محفوظ بعدها، وكنت قد قرأتُ، أن العلماء في طريقهم لزرع [illegible] خلية إلكترونية دقيقة للغاية تحمل ملايين الكلمات والمعلومات في رأس الإنسان ليستعين بها وقت الحاجة! فيمكن

مثلًا وضع محتوى مكتبة كاملة بآلاف الكتب فيها في خلية دقيقة جدًّا في رأس الإنسان، ومن ثم لن تفقد الإنسانية أي جزء ولو بسيط من تاريخها أو ذاكرتها مهما يطل الزمن! "حقيقي الكلام ده؟" هكذا سألني الأستاذ مبتسمًا، أجبته: مؤكد يا نجيب بك؛ لأنني قرأتُ وشاهدتُ هذه المعلومات في الصحف ومحطات التلفزيون الأجنبية على مرات متكررة.

تحدثت مع العبقري على أن العلم أصبح متقدمًا في العالم المتحضر إلى درجة أنهم يحاولون حاليًّا التوصل إلى الجينات المسببة للشيخوخة لتحييدها ومعالجتها بحيث يمكن للإنسان في المستقبل - بإذن الله سبحانه وتعالى - أن يمتد عمره آلاف السنوات، حيث سيعمر الكواكب والنجوم التي سخرها الله - سبحانه وتعالى - لبني البشر. وأنه خلال عمر الإنسان الذي سيمتد إلى ما شاء الله، سيظل يواجه مشكلات الشباب الدائم الممتد، التي ستكون من نوع آخر لا ندرك كُنهه حاليًّا! "لقد خلقنا الإنسان في كبد" صدق الله العظيم. "ما أظنش يا كفراوي إني هاحضر الفترة دي"، هكذا قال لي العبقري مبتسمًا، فرددت عليه: قاوم يا نجيب بك، قاوم واصمد وهاتحضرها إن شاء الله. فضحك ضحكته الجميلة. وطبعًا كان قضاء الله فوق كل أمنية وكل إرادة.

كان هذا قليلًا من كثير من المناقشات والتعليقات والحوارات التي دارت حول رواياته والتي كنت ورواد الندوة نستمتع بها مع العبقري الجميل المهذب المتواضع الشامخ على مدى سنوات وسنوات. فعدد رواياته

وقصصه القصيرة وصل إلى ما يقرب من ستة وخمسين كتابًا، كنا، نحن مريديه ومعجبيه وتلامذته، نتناقش حولها ونربط أحداثها ومعانيها رباطًا طبيعيًّا لا زيف فيه بأحوال الوطن الذي نعشقه مع وبفضل نجيب محفوظ على مدار أكثر من عشرين عامًا. والحقيقة أن نجيب محفوظ يمتاز بإنتاجه الضخم والمتنوع، وهو من القلائل جدًّا من الروائيين العالميين الذين لديهم مثل هذا الكم من الروايات والقصص القصيرة واستطاعوا، في الوقت ذاته، أن يحافظوا فيها على عبقرية الكيف. وأن يمتلك روائي ناصية اللغة والفلسفة وعلم النفس والسياسة والفكاهة معًا، فهذا نادر جدًّا بين الكتاب العالميين، وهو في رأيي ما أعطى حوارات نجيب محفوظ وعباراته التي جرت على ألسنة أبطال رواياته هذا العمق وهذه الروعة.

نهاية التاريخ وصِدام الحضارات !

في نهايات القرن العشرين ظهر كتابان اثنان كانا وما زالا من أهم الكتب التي ظهرت في العالم منذ صدورهما وحتى هذه اللحظة! أولهما كتاب "نهاية التاريخ وخاتم البشر" للمفكر الأمريكي فرنسيس فوكوياما الذي صدر عام ١٩٩٣، والذي أوضح بذكاء وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي وانهيار النظم الشيوعية في أوروبا، أن الليبرالية الديمقراطية الرأسمالية قد انتصرت انتصارًا نهائيًّا على الأنظمة الديكتاتورية والأنظمة اليسارية لنهاية التاريخ الإنساني. وما زال حتى هذه اللحظة بعض الدول يحاول مقاومة ما جاء بهذا الكتاب المهم، فبعضها ما زال يتبنى القطاع العام في قيادة اقتصادها، والبعض الآخر يتبنى النظام الشمولي في الحكم، وما زال ما كتبه فوكوياما هو موضوع الساعة عند كل شعوب العالم، سواء التي تحررت سياسيًّا واقتصاديًّا أو التي في طريقها إلى ذلك. ثم بعدها ظهر كتاب للمفكر، الأمريكي أيضًا،

صمويل هنتجتون بعنوان "صدام الحضارات وإعادة صُنع النظام العالمي" عام ١٩٩٦، الذي تنبأ فيه بأن الصراع القادم سيكون بين الحضارات وليس كما كان بين الأنظمة السياسية الاقتصادية. وها نحن الآن وإلى ما شاء الله في هذه المرحلة اللعينة من صراع للحضارات المختلفة وصراع داخل الحضارة الواحدة أيضًا! وكان هذان الكتابان هما محور مناقشاتٍ كثيرة في ندوات نجيب محفوظ، وحاولت بقدر المستطاع أن أنقل للعبقري صورة دقيقة من محتوى الكتابين. أما الأستاذ علي سالم فقد كان مهووسًا بكتاب "الأمير" لمكيافيللى! والكتاب عبارة عن نصائح شديدة العمق والذكاء من المؤلف لأمير إيطالي عن كيفية حكم رعيته في القرن الخامس عشر. وكان الأستاذ علي – رحمه الله – يحاول إقناعنا وإقناع الأستاذ نجيب بأن الكتاب لا يتعارض مع النظام الديمقراطي، وإنما هو يتعلق بذكاء الحاكم عمومًا سواء كان ديمقراطيًّا أم ديكتاتوريًّا. وهذا صحيح إلى حد ما. وكنت أداعب الأستاذ علي سالم قائلًا له وللعبقري إن كل الحكام المستبدين كهتلر وموسوليني كانوا يضعون كتاب "الأمير" بجانبهم قبل النوم، وهي حقيقة.

تاريخ ألمانيا الهتلرية

كان كتاب "تاريخ ألمانيا الهتلرية" بأجزائه الأربعة، الذي كتبه المؤرخ الأمريكي "ويليام شيرر" وصدر عام ١٩٦٢ عن نشأة النازية في ألمانيا، وصعود هتلر إلى سُدة الحكم ثم قيام الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ حتى انتهائها في ١٩٤٥، كان وما زال من أهم الكتب والمراجع التي كُتبت عن هذه الحرب الهائلة التي راح ضحيتها الملايين من شعوب أوروبا وأمريكا وروسيا. وكان نجيب محفوظ قد قرأه بالطبع، وعندما ذكرتُ له في ندوة المعادي، أن ونستن تشرشل، قبل أن يصبح وزيرًا للبحرية ثم بعدها رئيسًا لوزراء بريطانيا، كان الصوت الوحيد في البرلمان الذي أدرك خطورة النازية على بلاده والعالم، في فترة ما قبل الحرب، وصرخ في زملائه، بعد أن غضت بلاده مع فرنسا النظر عن احتلال هتلر للنمسا ثم لتشيكوسلوفاكيا في البداية، قائلًا: "لقد كُتب على بريطانيا وفرنسا أن تختارا بين الخزي أو

الحرب، فاختارتا الخزي وستُفرض عليهما الحرب!". وهي عبارات رائعة وتنبؤ صحيح من تشرشل وقتها بما سيحدث!

وقد أكمل العبقري على ما قلته، بأن ذكر أن هتلر ظل يعتقد إلى ما قبل النهاية بقليل، أن الغرب الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لن يسمح بانهيار ألمانيا أمام الشيوعية، وأنه سيتدخل لإنقاذها من الهزيمة أمام روسيا، ولكن أمله خاب؛ لأن تشرشل ظل على كراهيته لهتلر حتى النهاية، ولم يهتم باحتلال روسيا لأجزاء من ألمانيا وأوروبا!

وقد ظنَّ نجيب محفوظ أن هتلر عندما زار فرنسا بعد سقوطها تحت أقدام جيشه في بدايات الحرب العالمية الثانية، ودخل عربة القطار نفسها التي شهدت من قبل توقيع الألمان على وثيقة استسلامهم في الحرب العالمية الأولى، رقص من الفرحة! والحقيقة أنني لم أجد فيما قرأته وفيما شاهدته من أفلام وثائقية عديدة والتي صورت هتلر وهو يدخل العربة، لم أجد أي دليل على أن هتلر قد رقص! ولكني لم أجادل العبقري في ظنِّه هذا.

عدد مجلة الهلال الرائع

وأخيرًا لا بد أن أُوجِّه نظر المصريين الشبان والشابات إلى العدد الخاص الأول الذي أصدرته مجلة الهلال فبراير ١٩٧٠ عن نجيب محفوظ؛ لأن فيه كل ما يمكن معرفته تقريبًا عن شخصية العبقري نجيب محفوظ وفنِّه وحياته، وأناشد أي مسؤول حاليٍّ عن الثقافة المصرية أن يقوم بعمل ما يلزم لطبع هذا العدد الخاص ونشره وتوزيعه بأرخص سعر ممكن على أبناء الشعب المصري.

ولنقرأ معًا فقرات من المقدمة التي كتبها باقتدار رئيس تحرير مجلة الهلال وقتها الأستاذ رجاء النقاش تحت عنوان: "لماذا نجيب محفوظ؟". يشرح فيها لماذا تخص مجلة الهلال نجيب محفوظ بعدد خاص؟". فكتب يقول:

"هو كاتب صاحب موهبة خصبة أصيلة. ولا شك أن رواياته وقصصه المختلفة قد قدمت لحظات غنية من المتعة الفنية لعشرات الآلاف من

المواطنين العرب.. ونجيب محفوظ من هذه الزاوية كاتب قومي كبير.. إنه مثل ديكنز بالنسبة للإنجليز، وتولستوي بالنسبة للروس، وبلزاك بالنسبة للفرنسيين.. إنه يمثل هذا الكاتب القومي بالنسبة لنا نحن العرب... على أن كل هذه العناصر في شخصية نجيب محفوظ لم تكن تكفي وحدها لكي تجعل منه هذا الفنان القومي الكبير الذي تعتز به الأمة العربية وترتبط وجدانيًّا وفكريًّا بأدبه.. فهناك عنصر آخر شديد الأهمية والخطورة والحساسية، وهو أن نجيب محفوظ منذ أول سطر كتبه حتى آخر سطر يضع عينيه دائمًا على مصر. إنه يستمع باستمرار إلى نبض مصر في تاريخها وواقعها، ولا يضع حاجزًا بين أدبه وبين هذا التاريخ أو الواقع على الإطلاق. كل ما كتبه نجيب محفوظ له صلة بمصر وبالتاريخ والإنسان والمستقبل في مصر. وأدبه – من هنا – هو لون من الأدب السياسي الرفيع، وهذه نقطة قوة أساسية تربط بينه وبين تاريخنا القومي برباط لا ينقطع، وترفع من قامة نجيب محفوظ حتى تجعله من بناة الوجدان العربي المصري الأصيل... وهو فوق ذلك كله نموذج رفيع للأخلاق الصافية النقية الأصيلة في عصر من عصور القلق والاضطراب والبحث عن قيم جديدة.. عصر لا يستطيع أن يحافظ فيه على نقائه وصفائه وعزة خلقه إلا من كان في أصالة نجيب محفوظ، وفي قامته المديدة، كأنه تمثال حي للكرامة والضمير القومي والكبرياء والتواضع".

أحسنتَ يا أستاذ رجاء.

كان الأستاذ نجيب محفوظ رمزًا للحياة الإنسانية في أجمل أحوالها وأشرقها وأنبلها. كان الإنسان في معيته يشعر بهذا، ويتمنى لو أن الحياة تعامله مثلما يعامله نجيب محفوظ، تحترمه مثلما يحترمه نجيب محفوظ، تحنو عليه مثلما يحنو عليه نجيب محفوظ، تحاول أن تفهمه مثلما يحاول نجيب محفوظ! تستقبله وتودعه بابتسامة وضحكة مشرقة كنجيب محفوظ.

رحمك الله يا عبقري، وصبَّرنا على فراقك، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

مهندس / محمد الكفراوي

القاهرة أكتوبر سنة ٢٠١٩ ميلادية

هجوم مضاد دفاعًا

عن أولاد حارتنا

جريدة الشعب ٢٢ نوفمبر ١٩٩٤

بل الجبلاوي حاكم مستبد

"هذا التعليق وصلنا فور نشر الجزء الأول من دراسة د. صلاح سلطان في العدد الماضي، ونحن ننشره إيمانًا بحرية الكلمة وفتحًا لباب الحوار كما اعتدنا دائماً".

كتب الأستاذ صلاح سلطان في مقال نشرته جريدة "الشعب" التي نعتز بها جميعًا بتاريخ ١٥ من نوفمبر ٩٤ يتهم الكاتب الكبير نجيب محفوظ بأنه عندما رسم شخصية الجبلاوي في رواية "أولاد حارتنا" إنما كان يقصد بها الله سبحانه وتعالى والعياذ بالله!

ونظرًا للظلم الذي وقع على أديبنا الكبير نتيجة تفسيرات متعنتة للرواية، وهو ظلم تجاوز كما رأينا حدود المعقول، ووصل إلى حد الاعتداء على

حياته. وحيث إنني صديق للأستاذ نجيب محفوظ وأعرف عن يقينٍ قوة إسلامه، وصلابة إيمانه، وقد قرأتُ روايته الفذة، واتفقت مع المرحوم جلال كشك ومعه ملايين من المسلمين علي تفسير مختلف تمامًا عن تفسير الأستاذ صلاح.. لكل هذا أرجو نشر ردي على المقال المذكور احترامًا لموضوعية جريدة "الشعب" التي عوَّدتنا عليها دائمًا، وحفاظًا على أبسط حقوق نجيب محفوظ وحقوق المرحوم جلال كشك الذي لا يملك الآن ردًّا وهو في رحاب الله على ما هوجم به في هذا المقال. وأبدأ بالتالي:

أولًا- كل من درس تاريخ البشرية بدءًا من عهد الفراعنة وانتهاء بعهود الفاشية والنازية والشيوعية وحتى يومنا هذا يدرك تمامًا أن مسألة تأليه الحكام كانت تتم بصورة آلية وكأنها والعياذ بالله غريزة في الإنسان. وإذا قرأ الأستاذ صلاح تاريخ حياة ستالين وما كتبه خروشوف عنه، وتاريخ حياة ماوتسي تونج وما كتبه عنه طبيبه الخاص لأدرك على الفور مدى ما كان يتمتع به هؤلاء الزعماء من سلطات هائلة تتحكم في أرواح الملايين من مواطنيهم، فبكلمة واحدة يُقتلون أو يُلقى بهم في جحيم المعتقلات، وبكلمة أخرى تُكتب لهم النجاة. وإذا قرأ كيف عاش تيتو ديكتاتور يوغسلافيا السابق في جزيرته الخاصة التي كانت تحتوي على كل ما لذ وطاب من نعيم الحياة، وفيها حديقة حيوانات خاصة، وكأنها جنة على الأرض. وإذا شاهد ما فعله شعب كوريا الشمالية عند وفاة زعيمه الأوحد وكيف آمنوا واقتنعوا بأن الرياح زمجرت والأنهار ثارت والشمس احتجبت حزنًا على وفاة الأستاذ

كيم ايل سونج! لو قرأ وشاهد وسمع الأستاذ صلاح سلطان لأدرك أن كل العبارات التي استعان بها من الرواية إنما المقصود بها، وترمز للحاكم الديكتاتور في كل العصور الذي يؤله نفسه، ويؤلهه شعبه، ولا صلة لها بالله - سبحانه وتعالى - من قريب أو بعيد.

ثانيًا- وسوف أذكر بعض العبارات التي ذكرها الأستاذ صلاح، والتي وردت بالرواية وأعلق عليها لكي يحكم بيننا ومعنا قارئ جريدة "الشعب":

١- ص٦ (امتلك هذه الأرض بقوة ساعده، وكان رجلًا لا يجود الزمان بمثله وفتوة تهاب الوحوش ذكره). واضح تمامًا من العبارة أن الجبلاوي رجل استولى على الأراضي بالقوة وبالفتونة كأي حاكم أو مغتصب وليس فيها ما يدل على أنه إله بأي حال من الأحوال.

٢- ص٩٠ (من المسئول عما نحن فيه إلا ذلك الرجل الفظ الغليظ اللعين) بالله عليكم هل هذه العبارات أو الصفات مقصود بها الله؟ هل هذا فهم معقول للكلمات؟!

٣- ص٧٠ (صاحب هذا البيت جبار بلا جدال قابع وراء الأسوار بلا قلب متمتع بنعيم لا يخطر على بال)، كل من يقرأ في السياسة وتاريخها يعلم أن الغرب وصحافته كانوا يطلقون على ستالين - ديكتاتور الاتحاد السوفييتي السابق - عبارة "الجبار القابع خلف أسوار الكرملين" وماوتسي تونج كان جبارًا بلا قلب وقتل كل زملائه تقريبًا إبان الثورة

الثقافية الصينية، وتمتع كما ذكر طبيبه الخاص بنعيم لا يخطر على بال. فكيف يمكن لأحد أن يتجاهل كل هذه المعلومات ليتهم نجيب محفوظ بأنه يقصد الله؟!

٤- ص٥٥ (لماذا غضبك كالنار تحرق بلا رحمة؟ لماذا كان كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير أيها الجبار؟) إن أي طفل مسلم يعرف أن عبارة "الله غفور رحيم" مع غيرها من صفات العفو والتسامح تملأ جنبات وآيات القرآن الكريم، فهل كان يمكن لمن هو في ثقافة نجيب محفوظ أن تفوت عليه هذه الملحوظة؟! قطعًا لا. إذًا عندما يسأل نجيب محفوظ في مرارة عن "العفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك... إلخ" إنما يوجه سؤاله إلى الديكتاتور.

٥- ص٧١ (إنك تجد أهون مما فعله أدهم سببًا كافيًا للبطش بالناس) وص٣٧ (إن أبانا يغفر كل شيء إلا أن يهينه أحد) و (أن الجبلاوي يعلم كل شيء، وأن المقيم في البيت الكبير يعلم كل صغيرة وكبيرة)، وص ٢٣٤ (كلمة منه تغير حارتنا من حال إلي حال) وص ٢١ (أبوك لا يُراجَع له أمر).. كل هذه العبارات والجمل التي حاول الأستاذ صلاح أن يفسرها على هواه لا رد لي عليها إلا بأن أقول له مرة أخرى اقرأ سياسة. اقرأ تاريخ ستالين وماوتسي تونج وشاوشيسكو وكيم أيل سونج وسوف تكتشف على الفور أن كل جملة مما ذكرتها تنطبق تمامًا على

أفعالهم وأفعال غيرهم من الديكتاتوريين علي مر العصور، وأنه دائماً ما تحاول أجهزة حكمهم وبطانتهم ومخابراتهم أن تُقنع شعوبهم بأنهم – أي الحكام – على علم بدبة النملة وكل صغيرة وكبيرة في أوطانهم.

ثالثًا– فسَّر الأستاذ صلاح موت الجبلاوي أيام عرفة بأنه تأكيد من مؤلف الرواية أن الله – الذي هو الجبـلاوي في نظر الأستاذ صلاح – سوف يتم الاستغناء عنه في زمن التكنولوجيا والتقدم العلمي، أي إن عرفة يمثل التكنولوجيا والتقدم العلمي! فإذا طبقنا تفسير الأستاذ صلاح على أحداث الرواية كلها – والمنطق يقتضي هذا – وكان موت الجبلاوي يعني الاستغناء عن الله، فلا بد أن موت عرفة في الرواية يعني الاستغناء عن التكنولوجيا والتقدم! فهـــل هذا ما يقصده نجيب محفوظ؟! إن الإله والعلم والتكنولوجيا سيتم الاستغناء عنهم؟!! منطق وتفسير لا يصمد. وإنما يقصد نجيب محفوظ فعلًا بالرواية كلها أن يوضح أن تطور الحضارة والإنسانية سيقضي في النهاية على الديكتاتورية والاستبداد. والعبارات التي انتهت بها الرواية تؤكد ذلك وتقول: "لكن الناس تحملوا البغي في جلدٍ، ولاذوا بالصبر واستمسكوا بالأمل، وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا: لا بد للظلم من آخر، ولليل من نهار؛ لنرى في حارتنا مصرع الطغيان، ومشرق النور والعجائب". أليس هذا ما نشاهده فعلًا بعد سقوط سور برلين، وانهيار النُّظم الشمولية في معظم أنحاء العالم؟! في هذا التنبؤ وبهذا التحليل تكمن قوة وعظمة أولاد حارتنا.

وأخيرًا تحية من الأعماق لأديبنا الكبير نجيب محفوظ المسلم المتمسك بعقيدته والمدافع عنها في كل ندواته العامة وجلساته الخاصة، والله على ما أقول شهيد. وتحية إجلال للكاتب الإسلامي الكبير جلال كشك رحمة الله عليه، وأؤكد مقولته الصادقة والحقيقية "أن المسلم الذي يتعرف إلى الله – تعالى – من ملامح شخصية الجبلاوي هو الذي يستحق الاستتابة، ويجب أن يعيد تثقيف نفسه، وهو مسلم ظن بالله الظنون"، صدقت يا أستاذ جلال. وعلى الإنسان لكي يفهم فن نجيب محفوظ أن يكون قارئًا للدين والسياسة والأدب... إلخ، وليس للدين فقط.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مهندس / محمد الكفراوي

(جريدة الشعب ٦ ديسمبر ١٩٩٤)

باعتراف نجيب محفوظ: أولاد حارتنا تصور الكفاح ضد الاستبداد.

كتب الأستاذ ممدوح الشيخ في جريدة الشعب بتاريخ ٢٩ من نوفمبر عنوانًا وهو "باعتراف محفوظ.. ورأي طرابيشى ونوبل أولاد حارتنا تصور موت الإله"!! وتحت هذا العنوان ذكر الأستاذ ممدوح نص كلمات محفوظ لجريدة القبس الكويتية والتي يشرح فيها الدافع لكتابة الرواية ومضمونها وإذا بنا نفاجأ - نحن القراء - بأن كلمات نجيب محفوظ لا يوجد بها أي اعتراف من أي نوع بأن روايته تمثل موت الإله! واسترسلنا في قراءة رأي الأستاذ جورج طرابيشي عن الرواية، وتأكيد نجيب محفوظ رأيَه وإذا بمفاجأة أخرى تنتظرنا.. ولا كلمة واحدة عن موت الإله!! فمن أين أتى الأستاذ ممدوح بعنوان كهذا؟! يتبقى تعليق "ستوري آلن" - سكرتير لجنة

نوبل – لقد ذكر نجيب محفوظ هدفه من كتابة الرواية ومضمونها للجريدة الكويتية قبل حصوله على الجائزة بثلاث عشرة عامًا تقريبًا، فهل صدر خلال هذه الأعوام أي إشارة أو تصريح من نجيب محفوظ يُفهم منه أنه غيَّر رأيه؟! وهل صدر منه بعد حصوله على الجائزة ما يفهم منه أنه وافق على تعليق سكرتير لجنة نوبل؟! لا... لم يحدث ولما كان أي إنسان – نجيب محفوظ أو غيره – مسؤولًا فقط عن تصريحاته وأعماله، وحيث إن العمل الفني كلما زاد إتقانه وجماله كثرت تفسيراته وتأويلاته وهو في هذا يختلف تمامًا عن كتب التاريخ وكتب الدين، إذًا لا شأن لي أو لأحد على الإطلاق بما ذكره "ستوري آلن" ما دام صاحب العمل نفسه قد قال كلمته، إذًا نعود إلى كلمات صاحب العمل نفسها التي صرح بها للجريدة الكويتية، وكلها تؤيد وجهة النظر التي ذكرتُها في جريدة "الشعب" في ٢٢ من نوفمبر، والتي تتفق مع رأي المرحوم جلال كشك، ومعنا ملايين من المسلمين، فماذا قلت وماذا قال الأديب الكبير نجيب محفوظ؟

قلت الآتي:

"إن نجيب محفوظ يقصد بالرواية كلها أن تطور الحضارة الإنسانية سيقضي في النهاية على الديكتاتورية والاستبداد، وأن الجبلاوي رمز للحاكم المستبد في كل العصور، وأنه لو كان المقصود به الإله فلا بد أن نعتبر موت عرفة هو موت العلم والتكنولوجيا، وهذا تفسير ومنطق لا يصمد، وقال

الأستاذ نجيب محفوظ للجريدة: "بدأت أشعر أن الثورة التي أعطتني الراحة والهدوء بدأت تنحرف وتظهر عيوبها...بدأت تناقضات كثيرة تقهر النفس، وبدأت أشعر بأن هناك عيوبًا وأخطاء كثيرة تهز نفسي، وخاصة من خلال عمليات الإرهاب والتعذيب والسجن، من هنا بدأت كتابة روايتي الكبيرة "أولاد حارتنا" التي تصور الصراع بين الأنبياء والفتوات، كنت أسأل رجال الثورة: هل تريدون السير في طريق الأنبياء أم الفتوات؟

عزيزي قارئ جريدة "الشعب"، هل هناك أوضح من هذه الكلمات على لسان كاتب الرواية نفسه منذ تسعة عشر عامًا؟ إن إرهاب الثورة وتعذيبها وسجونها هو الذي أوحى إليه بكتابة الرواية! وهل هناك شك الآن في ذهنك أنها رواية تصور كفاح البشر ضد الظلم والاستبداد؟ يتبقى تفسير اختيار نجيب محفوظ لرموز فنية تصور صراع الأنبياء مع الفتوات وكفاحهم ضد الاستبداد والظلم.

إن كلمة فن تختلف في معناها عن كلمة تاريخ أو كلمة علم أو دين أو فلسفة إلخ... وبالتالي أي عمل فني في كتاب سواء رواية أم مسرحية أم قصة قصير أم نقد أم شعر، يختلف تمامًا عن كتاب في الدين أو كتاب في التاريخ. ففي كُتب التاريخ إذا تناول مؤرخ وقائع وأحداثًا في فترة تاريخية ما بدقة شديدة وبتفاصيل موثقة أصبح عملة مُتقنًا، وتكون نتيجة هذا وصول المعلومات الصحيحة عن هذه الفترة إلى ذهن القارئ.

وفي كُتب الدين إذا تناول مفكر أو كاتب إسلامي أو مسيحي وقائع ما حدث مثلًا في عهد الرسول – عليه الصلاة والسلام – أو المسيح عليه السلام بدقة وبالتفاصيل وشرح العبرة والمغزى من نزول الوحي والرسالة شرحًا مباشرًا، عُد المفكر بحق متعمقًا في شئون دينه، وتكون نتيجة هذا التعمق أن تصل الفائدة المرجوة للقارئ، ويزداد إيمانه ثباتًا، وقوة أما في الفن وكتب الفن فالعكس هو الصحيح. ففي الرواية أو المسرحية قد يختلق الفنان الوقائع كلها أو يُغيرها؛ لكي يصل بقارئه إلى ذات النتيجة التي يخرج بها من قراءته لكتاب دين أو تاريخ، بل إن الأدب الحديث كثيرًا ما يمزج هذه الوقائع والأحداث التي اختلقها بالخيال، وكلما امتزج الواقع المختلق بالخيال المختلق وأصبح من المستحيل أو الصعوبة التفرقة بينهما، زادت المتعة والإثارة في العمل الفني، وإذا كان امتزاج الواقع بالخيال عميقًا وجذابًا وآسرًا ويثير في القارئ أحاسيس وانفعالات وأفكار تهدف إلى تأكيد قيم الحق والخير والجمال فإنه يوصلنا إلى ذات النتائج التي نحصل عليها من قراءاتنا في المجالات والنشاطات الإنسانية الأخرى، وعلى رأسها كُتب الدين. وفي دول الحضارة الحديثة يدركون تمامًا هذه البديهية والتي نلخصها مرة أخرى في التالي: "إن العبرة في الفن بما يُحدِثه في النفس البشرية من أفكار وأحاسيس وانفعالات نبيلة، وليس بما يعرضه من وقائع هي مختلقة أصلًا من ذات الفنان وممتزجة بخياله لخدمة هذه الانفعالات والأحاسيس. وإن

محاسبة الفنان سواء دينيًّا أو أخلاقيًّا أو سياسيًّا أو فنيًّا تتمُّ على هذا الأساس وحده ما دمنا معترفين أصلًا بالفن كنشاط إنساني.

لذلك نجد مثلًا أن أهم أسس الرقابة على الأفلام السينمائية في الولايات المتحدة الأمريكية ليس منصبًّا بالدرجة الأولى على تفاصيل ووقائع وأحداث الفيلم التي كثيرًا ما تكون مليئة بالعنف والقتل والدماء، ولكن الاهتمام يركز على أن يحس المشاهد بالتعاطف والحب لقوى الخير والحق داخل الفيلم، وليس محتمًا أن تنتصر قوى الخير، بل قد تنتصر عليها قوى الشر في كثير من الأفلام، ولكن لا بد أن يخرج المشاهد من دار العرض في النهاية متألمًا من هزيمة الخير ومتعاطفًا معه، ولاعنًا قوى الشر مهما انتصرت.

هذا هو مفهوم الأخلاق في الفن الحديث، وهذه هي وسائله وأدواته التي تختلف تمامًا عن وسائل وأدوات الدين والتاريخ، وإن اتفقت في الأهداف والنتائج، والأديب الكبير نجيب محفوظ فنان أراد أن يصور في عمل فني روائي تطوُّر تاريخ البشرية وكفاحها المتواصل من أجل الحرية والديمقراطية ضد الاستبداد والظلم.

ذلك الاستبداد والظلم الذي عاصَرَ بعضه نجيب محفوظ، ولمسه في واقع أعمال الثورة بعد ١٩٥٢، ويعلم الأستاذ نجيب محفوظ كفنان مؤمن بالله أن هذا التطور والكفاح قد تحقق في الواقع وتاريخيًّا على يد رسل اصطفاهم الله سبحانه، لكي ينشروا نور الحق والهداية للبشر جميعًا، وحيث إن هذا

الواقع وهذا التاريخ قد تمت كتابته آلاف المرات بأقلام المؤرخين ومفكري الإسلام والمسيحية؛ لهذا أراد نجيب محفوظ أن يصل بمتذوق وقارئ الأدب إلى نفس النتيجة والاستفادة التي يصل إليها بعد اطلاعه وتذوقه لكتب الدين والتاريخ، وأن يشعره عن طريق الفن بنفس مشاعر الرضا والفخر والامتنان بهذا الكفاح الضاري ضد الاستبداد، واختار نجيب محفوظ باقتدار مذهل أبطالًا خياليين روائيين لا يمتون في واقع الرواية (المختلق أصلًا) بأي صلة بالرسل أو بالوحي من قريب أو بعيد، وإنما هم فقط رموز فنية أو معادل موضوعي لما عاناه وحققه هؤلاء الرسل المصطفون في الحياة الحقيقية والتاريخ الحقيقي ضد الاستبداد والظلم. - وطوال قراءتك - عزيزي القارئ - للرواية الفذة لا يفارقك أبدًا الشعور الذي أراده نجيب محفوظ لنا.. شعور التعاطف والحب والاحترام لهذه الرموز الفنية الخيالية.. وشعور الكراهية العميقة للفتوات المستبدين الذين قاتلوهم وحاربوهم، وعندما تفرغ من الرواية يزداد إيمانك بأن الحياة الإنسانية التي خلقها الله - سبحانه وتعالى - كان لا يمكن احتمالها في الواقع الحقيق دون الرسل المصطفين، وأن نزول الوحي عليهم ليس عبثًا، وإنما لنشر نور الحق والهداية، وللقضاء على الاستبداد والظلم والفساد، وأن على البشر من بعدهم أن يستمروا في قتال الشر والاستبداد والديكتاتورية في كل مكان..." كلما أضر بهم العسف قالوا: لا بد للظلم من آخر، والليل من نهار، ولنرى في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب".

فهل هناك أجمل وأرق وأقوى من هذه المشاعر التي تُفجرها الرواية لتثبيت الإيمان ومحاربة الظلم والطغيان... ثم بعد هذا يقولون لنا: إن هدف الرواية هو موت الإله؟!

عزيزي قارئ جريدة الشعب، لا بد أن نوسع مداركنا بالقراءة في الدين والتاريخ والسياسة والفن والعلم حتى نفهم كتابات نجيب محفوظ وقبلها وبعدها، حتى تكتمل مقومات شخصياتنا كبشر متحضر مؤمن بالله ورسله، فلا نتعرض للنبذ أو الازدراء أو الإحساس بالدونية تجاه دول الحضارة الحديثة وفنونها. نجيب محفوظ شرفنا فعلًا كمسلمين وعرب ومصريين، فليحفظه الله لنا من الإرهاب والإرهابيين. اللهم آمين.

مهندس / محمد الكفراوي

المقالة التي أغضبت نجيب محفوظ

الوفد - الثلاثاء ٢٦ رجب ١٤١٣هـ - ١٩ يناير ١٩٩٣م

لا يا أستاذ نجيب

عهدنا في الأستاذ نجيب محفوظ دائمًا الموضوعية في تناول الأحداث السياسية التي تحدث بمصرنا الحبيبة.. ولهذا أصبنا نحن تلاميذه بالدهشة من حديثه الذي أدلى لمجلة آخر ساعة بعددها الصادر ٣٠ ديسمبر ١٩٩٢، فقد صرح الأستاذ بأنه: «لا يرى أي تناقض بين أهداف حزب الوفد وأهداف الحزب الوطني الحاكم؟ وأن الوفد لم يعد لديه ما يطالب به اليوم سوى الديمقراطية. ويمضي الأستاذ قائلًا: «إذا نحن فتشنا في حقيبة الوفد بحثًا عن أهداف أو مبادئ أو أشياء أخرى ذات قيمة بخلاف موضوع الديمقراطية هذا فلا أعتقد أننا سنجد شيئًا؟!! وأود أن أقول للأستاذ وللقارئ أن الديمقراطية تعني التالي:

١- مجلس شعب حقيقي يملك سلطة الموافقة وعدمها على الميزانية العامة للحكومة.

٢- مجلس شعب حقيقي يملك سلطة إسقاط الحكومة إذا ما فشلت أو تعارضت مصالح وزرائها مع مصالح الشعب.

٣- وجود أكثر من مرشح لرئاسة الجمهورية ويختار الشعب كله بإرادته الحرة وبدون تزييف المرشح الذي يتقدم بأفضل برامج اقتصادية واجتماعية وأفضل تاريخ وسمعة وأفضل عقلية.

٤- اقتصاد حر يدرك نجومه من رجال الأعمال أن الديمقراطية الحقيقية وتداول السلطة ستمنع أي تحالف شرير بينهم وبين رجال سلطة مؤبدين في مناصبهم ضد مصالح الشعب.

٥- حرية تكوين الأحزاب بدون أي قيود من لجان مشكوك في دوافعها.

٦- حرية إصدار الصحف واختيار مجالس إدارتها اختيارًا حرًا بواسطة الصحفيين أنفسهم.

٧- تليفزيون وإذاعة حرة تمامًا بمجلس أمناء يمثل جميع الاتجاهات والأحزاب.

٨- حرية الرأي والعقيدة والفكر والثقافة والفن.

هذا ما يطالب به الوفد تحت كلمة الديمقراطية وهي كما ترى عزيزي القارئ كلمة واحدة فعلًا ولكنها تعني الكثير وهي أسلوب حياة لكل دول العالم المتحضر وهي الطريق الوحيد والهدف الوحيد لأي دولة متخلفة لكي تلحق بركب الحضارة.. فإذا اتهم نجيب محفوظ الوفد بأنه لا يجد غير هذه الكلمة في حقيبته فهو شرف للوفد وتهمة لا ينفيها. أما عن أن الحزب الوطني الحاكم ورئيسه يشارك الوفد هذه الأهداف والمبادئ التي ذكرناها فاترك الحكم على هذا لضمير القارئ وضمير نجيب محفوظ نفسه الذي ذكر هذه النكتة بجرأة يحسد عليها.

صور متنوعة للندوات فى مراحلها الزمنية المتعاقبة

ندوة قصر النيل.. د. فتحي هاشم – د. محمود الشنواني –
م. محمد الكفراوي والباقي لا أتذكرهم

ندوة قصر النيل.. مصطفى أبو النصر – الشاعر عادل عزت –
سامي البحيري – م. محمد الكفراوي

ندوة قصر النيل

ندوة قصر النيل.. الشاعر عادل عزت - الشاعر والروائي نعيم صبري
د. فتحي هاشم - مصطفى أبو النصر - م. محمد الكفراوي

ندوة قصر النيل.. مصطفى أبو النصر – محمد البدري – عادل عزت –
إلهامي بولس – نعيم صبري – م. محمد الكفراوي وآخرين

ندوة قصر النيل.. مصطفى أبو النصر – نجيب محفوظ

ندوة قصر النيل.. علي سالم – نجيب محفوظ

ندوة قصر النيل.. من اليسار: عادل عزت – مصطفى أبوالنصر – سامي البحيري –
من اليمين: زكي سالم – هارفي أسعد وخلفه المهندس محمود عبد السميع

ندوة قصر النيل.. مصطفى أبو النصر –الشاعر نعيم صبري– د. فتحي هاشم –
م. محمد الكفراوي

ندوة قصر النيل.. مصطفى أبو النصر – د. سامح – م. محمد الكفراوي –
د. فتحي هاشم – الشاعر عادل عزت

ندوة قصر النيل.. أول ندوة بعد حصول نجيب محفوظ على نوبل

م. محمد الكفراوي - د. سامح وآخرون

الندوة الخاصة بهيلتون رمسيس.. الصحفية ماجدة الجندي

المهندس محمد الكفراوي - نجيب محفوظ

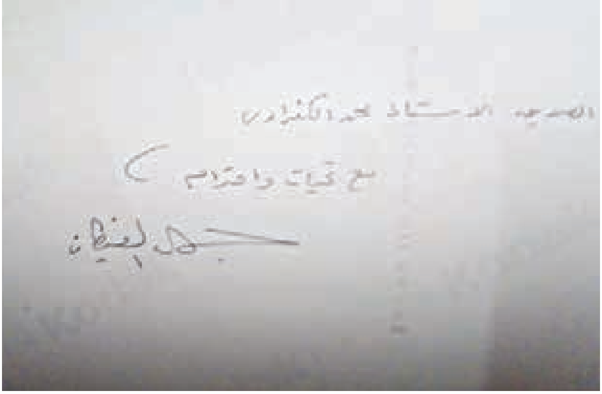

إهداء الكاتب جمال الغيطاني علي صورة ندوة هيلتون رمسيس

ندوة سوفيتيل المعادي.. د. محمود الشنواني –
الشاعر والروائي نعيم صبري – م. محمد الكفراوي

ندوة سوفيتيل المعادي.. سامي البحيري – م. محمد الكفراوي

ندوة سوفيتيل المعادي.. د. سامح – م. محمد الكفراوي

ندوة سوفيتيل المعادي.. م. محمد الكفراوي – نجيب محفوظ

ندوة شبرد.. علي سالم – م. محمد الكفراوي – أديبة أجنبية

ندوة شبرد.. م. محمد الكفراوي

ندوة شبرد.. م. محمد الكفراوي – الدكتور (...) ابن الدكتور يحيى الرخاوي

ندوة شبرد.. م. محمد الكفراوي

ندوة شبرد.. علي سالم – أحمد فهمي – م. محمد الكفراوي

ندوة شبرد.. علي سالم – م. محمد الكفراوي

ندوة شبرد.. الأستاذ (....) يمني الجنسية – د. فتحي هاشم – محمد أمين الشرطة – الصحفي إبراهيم عبدالعزيز – القاص والناقد أحمد سعيد – د. فتحي هاشم – م. محمد الكفراوي وآخرين

فندق شبرد .. المستشار الثقافي الأمريكي هينز ماهوني – م. محمد الكفراوي – د. زكي هاشم

فندق شبرد.. صحفية ألمانية - أحمد فهمي - نعيم صبري - م. محمد الكفراوي